« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه فى الرّغام .

والمستضعف فى أرضٍ ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر فى سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويتابع الحق الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان فى سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ؛ لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر فى سبيله بالمكان الذى يرغم أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا تجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

« ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » وكلمة « وقع أجره على الله » أى سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابى . والمراغم سبب من أسبابى وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : « وقع أجره على الله » علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا « وقع » بمعنى « سقط » ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزاء مَن يذهب إليه معرفة كاملة .

وهكذا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيماني ويتدارك ما فاته ؛ لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه . والهجرة تقتضى ضرباً فى الأرض ، وتقتضى الجهاد .

وبعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ، فأركان الإسلام هى : الشهادة ؛ والصلاة ؛ والصوم ؛ والزكاة ؛ والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدى الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالاً ؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد لا يقولها المسلم فى العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبداً ما دامت فيه الصلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة)[1] .

ولأن الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضا ، وهكذا نجد الصلاة أوسع فى الإمساك عن ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

---

(١) رواه الترمذى وأحمد .

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم ـ مثلاً ـ لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدى الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن فى الصيام . والزكاة هى إخراج جزء من المال ، والمال يأتى به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصلى المسلم فهو يزكى بالأصل ، إنه يزكى ببذل الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففى الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود فى الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة فى كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحى ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هى منزلة الصلاة نجد الحق يحذرنا من أن يشغلنا الضرب فى الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقولن أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففى الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج ربه .

كذلك فى السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة .

والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفى اللغة « اختصار »

و« اقتصار » . « الاقتصار » أن تأخذ بعضا وتترك بعضاً ، و« الاختصار » هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثال ذلك عندما نختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعانى التى فيه فى عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان فى أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية فى الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معانى كثيرة فى ألفاظ موجزة .

والإسهاب - كما نعلم - لا يأخذ من الوقت مثلما يأخذ الإيجاز ؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يقدح ذهنه - فى وقت أطول - ليصل إلى المعانى فى كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول - زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية - أنه كتب رسالة لصديق فأطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

وإنى أعتذر إليك عن التطويل فليس عندى الوقت الكافى للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذى أراد أن يهدد قائد الروم . . فكتب إليه ؛ أما بعد : فسأتيك بجيش أوله عندك وآخره عندى . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذى سيواجه ملك الروم من جيش عرمرم سيملأ الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالى الذى كان صعبًا فى « دومة الجندل » أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما « إياك أريد » ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التى يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر فى الصلاة هو أن يؤدى المؤمن كُلاًّ من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة فى وقت الحرب تقتضى ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضا عن قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

فإذا شرع الله للخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة واجبة فى الحرب فلن تكون هناك مشاغل فى الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيف . وصلاة الحرب - أى صلاة الخوف - جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضا ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً فى الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ

أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصلى مع رسول الله ، وأخرى ترقب العدو وتحمى المؤمنين .

ولكن كيف تصلى طائفة خلف رسول الله ولا تصلى أخرى وكلهم مؤمنون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن يقسم النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصلى بكل طائفة مرة ، ليشرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة ـ كما عرفنا ـ ينطبق على الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيهما ، فليس من المتصور أن يصلى أحد ركعة ونصف ركعة ، وفى علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها إلماماً عاجلاً ؛ لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش فى حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقَسِّم الجيش إلى قسمين ؛ قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ، ويصلى بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهى أن يصلى بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتى الطائفة التى حمت الطائفة الأولى فى أثناء الصلاة لتصلى هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصلى الطائفة الأولى الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم ، ثم تصلى الطائفة الثانية الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ركعة ، ولايصلى النبى ﷺ معها الركعة الثانية بل يظل واقفاً قائماً إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى ﷺ الركعة الثانية بالنسبة للنبى ﷺ بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى ﷺ قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى ﷺ بها وتنال الطائفة الأولى بشرف بدء الصلاة مع الرسول ﷺ وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه ﷺ .

وهنا نسأل : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى ﷺ وائتماماً به لأن الصلاة معه هى الشرف؟ فكيف يصلى المقاتلون الخوف بعده ﷺ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله ﷺ فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

«وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم» وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبلة أو البندقية فيأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

«فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم» والقول القرآنى هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً : تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله ﷺ فبالهم مشغول بذواتهم وبحماية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله ﷺ تلهيهم المسألة ؛ لذلك قال الله : «وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم» وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويجسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الحذر آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع فى أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هي مكان باستطاعة الإنسان أن يتبواه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوأ الإنسان الإيمان وهو أمر معنوى ؟. إنه سبحانه فى هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار ـ كما نعرف ـ هى المكان الذى يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يُتبوأ ، أى جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار فى هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يجسم الحق المعنويات لنفهم منها الأمر وكأنه أمر حسّى ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الحذر والأسلحة ؛ لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومتاعه . فلو فقدها المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمتاع إلى قوة العدو ؛ لأن فى ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وعدو الإسلام يود أن يغفل المسلمون عن الأسلحة والمتاع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلى أثناء الحرب ، فلا يصح أن ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلى ، فالقتال موقف لله ، فلا تنفصل القتال فى سبيل الله عن الصلاة لله .

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » والغفلة هى نسيان طارىء على ما لا يصح أن يُنسى ، وفى هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هى حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل فى قول الله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين فى لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ولكن لنر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النساء)

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفى ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فلماذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر ؟ . إن أخذ الحذر لا يعنى أن الله تخلى عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سبحانه هيأ وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عندما نبه كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو القائل « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ».

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

كان المؤمن مطالب بألا يسوِّف ويؤخِّر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً فى بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو يسايف عدوه وينازله ، فهو يحمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ».

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو فى حالة الاشتباك مع العدو لا ينساه الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة فى حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففى وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً وفى كل حال ، وبعد أن يطمئن المسلم لموقفه القتالى فليقض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو فى الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه فى حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن لله فى أوقاته تجليات ، فلا يحرمن واحد نفسه من هذه التجليات فى أى وقت ، وذكر الله يقرِّب العبد من مولاه ـ فسبحانه ـ مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتالى فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان ميقاتها أثناء القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . ولماذا كل ذلك ؟ ويأتى القول الفصل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت الصلاة فى أثناء الاشتباك القتالى، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر، لماذا كل ذلك؟ لأن الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى ـ كما يفهمه البعض ـ بأن صلاة الظهر ـ على سبيل المثال ـ وقتها ممتد من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصلى الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها ؟ .

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ؛ فقد أكون فى إجراء جراحة . أو راكباً طائرة . ونقول : أسألك بالله إذا كنت فى هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تركه وأردت أن تقضى حاجة ، فماذا تصنع ؟ إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضى حاجتك ؟ وقد تجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضى حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ؛ لأن فيهم العبودية الفطرية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك مُلاءة لتصلى فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتسع للصلاة ؛ لأن الله لا يكلف أبداً عبده شيئا ليس فى سعته ، والحق كلف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها .

ولله المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال فى موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالنا بالرب الخالق ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة رزق عبودى يحررك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له لأن فارضها هو الخالق المربى ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولا بربك ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤ ﴾

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد على من يدعون التحرر ويحاولون إظهار الإسلام بأنه يصلح للعصر الذى نحياه عندما نؤوله ونطوّعه لمرادات العصر ، ناسين مرادات الإسلام ؛ فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب فى الإسلام لرد العدوان . ونقول لهم : صحيح أن الحرب فى الإسلام لرد العدوان ، والحرب فى الإسلام أيضاً هى لتوسيع المجال لحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذى يخيف هؤلاء أن يكون القتال فى الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون الطغيان فى أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى لا يقاوموا قهر الناس والطغيان عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام الكامنة والتى يهبها لمن يؤمن به ديناً ، وينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون : إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول لهؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

فى الاعتقاد . والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف فى وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيدة بالسيف ، إنما يحمى بالسيف حرية المعتقِد ، فالحق يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أى هدفا وغاية ، ويجند لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات الطاقة ، كأن الإنسان لا يرد القوم الكافرين فقط ساعة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يبتغيهم أيضاً امتثالاً لقول الله : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » . فعلى المسلمين أن يُعْلُوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم فى هذه الدعوة لا يفرضون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف فى وجه الجبروت الذى يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان فى ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله فى المؤمن القدرة على أن يبتغى عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيسا لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلن » الذى عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلن » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد انجلترا بالحرب ، وعندما استعدت انجلترا أعلن « تشمبرلن » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز :

ـ انتظروا أياماً سوداء وانتظروا الجوع .

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون » . إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تمتازون على الكافرين بما يلى : « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » . فأنتم

وهم فى الألم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعلمون لحظة دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذى ينصرهم ومن يمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب الفئة المؤمنة التى انتهت قضية عقيدتها إلى الإيمان بإله واحد ؛ هو ـ سبحانه ـ أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القضية تحكم حركات حياتهم ؛ إنه ـ سبحانه ـ يطالبهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القضية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التى تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود ـ أى لا مطاع ـ فى أمر إلا الحق سبحانه وتعالى .

وحين تحكم هذه القضية أناساً فهى توحد اتجاهاتهم ولا تتضارب مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ؛ لذلك جعل الله الطائفة المؤمنة خير أمة أخرجت للناس ؛ لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصفو رقعة الإيمان مما يكدر صفو حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنّه خلقهم ويعلم طباعهم وغرائزهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أغيار ، ومن الأغيار أن يصفو لهم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ؛ لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق فى الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القضية على طرف الثمام[1] أى سهلة التناول لا مشقة فى الحصول عليها وتدرك بدون آلام وبدون متاعب فسيدعيها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حمل العقيدة .

من أجل ذلك لم ينصر الله الإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام فى أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يحموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء

---

(١) الثمام : عشب لا يطول له زهر يسهل أخذه وقطفه .

إلا من ذاق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بمرارة الاضطهاد ووطأة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم .

وكلمة « لا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى فى طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوبا منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يقفون فى وجه الدعوة لتؤدبهم حتى يتركوا الناس أحراراً فى أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه : ألّا تهنوا ولا تضعفوا فى طلب القوم الذين يقفون فى وجه الدعوة . ثم قال سبحانه : « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المواقع والحروب والإعداد لها ؛ فأنتم وهم متساوون فى إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هى القوة المرجحة . فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تُقَوَّم بغاياتها والثواب عليها . لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » . . فلا يهمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى شرح هذه المعادلة حتى تكون الأذهان على بينة منها إعداداً وخوضاً للحرب واحتمالاً لآلامها :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذى ينتظرنا هو إحدى الحسنيين . . إما أن ننتصر ونقهركم ، وإما أن نستشهد فنظفر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربص المؤمنين بالكافرين :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

كفة مَن ـ إذن ـ هى الراجحة فى المعادلة ؟ إنها كفة المؤمنين ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى طلب القوم لأنهم يألمون كما تألمون ، ولكن

لكم مرجُحا أعلى وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله عليماً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ؛ فالشوكة التى تشاك بها فى القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هى أن تسير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما يُصيب المؤمنَ مِنْ شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)[1] .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال فى سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيه يصفى أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به وينضوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انضواءكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يُطبق عليه حكم الله ، وإياكم أن تظنوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله واتباعكم لرسول الله قد أخذتم شيئاً يميزكم عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا الكفار ودافعوا المنافقين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له تميز على غيره ، ولمثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(١) رواه مسلم فى البر .

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصفة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجماعة » حيث يتطلب إنزال القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك فى كل الكون.ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى . . إننا نجد أن رئيس الدولة أو الملك فى أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا القرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك فحين يتكلم سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (١٤)

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تأتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . فسبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة العنكبوت)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٥١ سورة العنكبوت)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (١٠)

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على الأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يجيء من الحق فهو ينزل إلينا منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارىء لها أن الجهة التي أنزلت هي جهة أعلى ، وليست مساوية لمن أُنزِلَ إليه ، وليست أدنى منه أيضاً .

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهة أُنزل إليها ، وشيء أنزلته الجهة إلى المُنَزَّلِ إليه . والكتاب هو المنزل . والذي أنزله هو الله . والمُنَزَّلِ إليه هو رسول الله وأمته . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتعلق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم :

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

إنه لباس جاء من أعلى ؛ لذلك استخدم الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزينكم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، فهو لا يوارى العورة فحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأجمل منه أنه لباس التقوى .

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة ستراً ورفاهية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمية والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قِبَلِ الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إلينا بشيء يعالج مادتنا وقوامنا ، وبشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق في الآية التي نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يُطلق الكتاب فالمعنى ينصرف إلى الكتاب الجامع المانع المهيمن على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذى نزل على أى رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يأتى واقع آخر لينقضه . وعلى سبيل المثال : أنت فى حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكى بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل مدة عشرين سنة فهى لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذى حدث أمامك . ولكن إذا حَدّثَ إنسان بقضية كذب لا واقع له . فماذا يكون موقفه ؟ سيحكى القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله فى أول مرة فيحكى وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ؛ لذلك يقول كلاماً مغايراً لما قاله فى المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذى لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .

ويقال فى حياتنا للتلميذ الناجح من أساتذته : لقد أعطيناك المرتبة الأولى على زملائك بالحق . أى أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . وقوله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أى إن إنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتبسا ومرتبطا بالحق ولا ينفك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووجود معنى بجانب معنى فى القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهى لا تتناقض ولكنها توضع بحكمة الخالق لتجلو لنا المعانى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامى وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ؛ لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وأنت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق . تجعل الذى حُكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذى لا حيف فيه حتى وإن كان عقابا ، فالكافر يقرع نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذى يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضاً يعرف المسلم ساعة يُحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظنن أحد أن الإسلام قد جاء ليحابى مسلما على أى إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائما فى جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطى هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التى حدثت معاصرة لرسول الله ﷺ بمثابة إستدرار السماء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، ولو جاءت الأحكام مبوبة وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه فى الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة وقوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدعى للإذعان له ؛ لأنه ثبت وأُيِّد ووثِّق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذى نزل هو : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علّمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تتمثل الشىء الذى يعلمه لك الله وكأنه مجسد أمامك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التى حدثت هى : كان فى « بنى ظفر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعا ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع فى بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه لص ، فذهب إلى يهودى وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع فى جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وتكوّن مَن الدقيق أثراً فى الأرض إلى بيت اليهودى وكان اسمه « زيد بن السمين » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخذها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها وقالوا : « لقد سرق ابن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندى « طعمة بن أبيرق » . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت على المسلم ضد اليهودى فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله لِيُعَدِّل منهج الغرائز البشرية . والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرتها قد تتصور أن الحكم على المسلم وتبرئة اليهودى هو إضعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يقيم الأمر بالقسط فينزل على رسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إياك أن تقول : إن هذا مسلم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا تكون سُبة عليه ، وإياك أن تخشى ارتفاع رأس اليهودى ؛ لأن هناك لصاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم على خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليجامل مسلماً . وعلى كل مسلم أن يعرف أنه دخل الإسلامَ بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك لص أو خائن أو مستغل لقوته فاتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسبب لك تعباً . ولهؤلاء نقول : لا ، فسبحانه وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » و« اللام » التى فى أول « الخائنين » هى للملكية أى أن الحق يأمر النبى صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفا لصالح الخائن ، بل عليه أن يخاصم لمصلحة الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفا ينفع خائنا ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن عن الخائنين خصيما . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولماذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام »؟ نقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجح أمره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن نعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا ينفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له ، ولذلك جاء الحق بها إيضاحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف فى جانب الخائن ولن يأتى له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » . والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتى باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف فى أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

القائل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المنطق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحر مبين . وكأن الآية هى : وإذ تتلى آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحر مبين . ولنلحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا مُحَدَّث عنه وليس مخاطباً . فقالوا عنه : إنه سحر مبين .

وهناك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

والقائل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو : أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أوردها : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك في غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم . وإلا لو أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضي أن يكون : لو كان خيرا ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

والأمر بالاستغفار يجيء على مجرد وجود خاطر التردد بين نصرة المسلم أو نصرة اليهودي ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخاطر يتطلب الاستغفار . والذي يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غضاضة أن يعدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بني ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذي من بينهم ، وتمحكوا في الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة في ألا يتفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يشبع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفى أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يجسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة فى الذين يختانون أنفسهم . والجدل كما نعرف هو الفتل . وحين يفتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويجدلها ليصنع حبلاً ، فهو يفتل هذا الغزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلاً للشد والجذب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجدل الحبل حتى نعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب لىّ القول ولحنه أو الفصاحة فى الأسلوب . لذلك يأتى الأمر إلى الرسول : لا تقو مركز أى إنسان يختان نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هى أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أمِنَ المعقول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى افتعال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو ليعطى نفسه شهوة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان فى مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الآجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذى يخون الناس إنما يخون ـ ضمناً ـ مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويتطلب افتعالاً ، ولذلك يقول الحق : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » .

والآية التى تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوانين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتى الحق بكلمة خوّان . وفيه فرق بين « خائن » ، و« خوّان » ، فالخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة

مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة فى أمر يسير صغير ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة فى أمر كبير . إذن . فمرة تأتى المبالغة فى تكرير الفعل ، وأخرى فى تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن » ؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرجه الله عن دائرة الستر إلاّ إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا عرفت فى رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد فى السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ، والإثم أفظع المعاصى . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكى يحكم له الرسول ضد اليهودى ، لماذا صنعوا ذلك ؟. لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويبرأ يهودى ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتى بالحيثية التى دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقضى على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس فى أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟ . إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعمية فى قضاء الأرض فلن تعموا على قضاء السماء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يغضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسى أو فضحت ولدى أو فضحت أسرتى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردهُ عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ، لذلك فأنت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تجعل المؤمن مصدقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان فى الخلوة والجلوة والسر والعلن . فإن قدر واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يقدر على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » و« يبيت » أى أنه يفعل أمره فى الليل ؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم فى الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصنع مكيدة فى البيت ليلا ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبييت » حتى ولو كان فى وضح النهار ، ولا يبيت إنسان فى خفاء إلا رغبة منه فى أن ينفض عنه عيون الرائين . فنقول له : أنت تنفض العيون التى مثلك ، لكن العيون الأزلية وهى عيون الحق فلن تقدر عليها .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه مآلا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شىء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن

الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من ماله شيء من الجزاء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾

فالذى جادل عن ابن أبيرق كان يريد أن يبرىء ساحته أمام الناس ويدين اليهودى ، وفى أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهى المسألة بهذا اليسر ؟ لا ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أيفلت من عقوبة الله فى الآخرة ؟ لا ، إذن فالذى يجادل يريد أن يعمى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعمى على قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق يذيل الآية : « أم من يكون عليهم وكيلاً » أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذى يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أغيار ، لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة للمذنب حماية للمجتمع من استشراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا فى محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم فى باله أن يبرىء « ابن أبيرق » ، وقسم فى باله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ . لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله غفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يبقيهم فى الصف الإيمانى ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودى ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لعادة الخيانة ، فنقب حائطا على رجل ليسرق متاعه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فيتساءلون : أليس الذى ارتكب العمل السيىء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ؛ فمعنى عمل سوءا أضرّ بهذا العمل آخرين ، إنّه غير الذى ارتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط ؛ فالذى سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأعمال هى ارتكاب للسوء ؛ فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أى يلقى الناس بما يكرهون .

لكن الذى يشرب الخمر قد يكون فى عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحمى المسلم حق من نفسه ، ويحمى النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حماية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات ؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمى نفسه . فإن صنع سوءا أى أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء » . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) ﴾

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟. إنه إساءة لغيره أيضا ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذى يسىء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة . وقد تجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذى يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنيا غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بادروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويُمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا »[1] .

« ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور ورحيم أزلاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خيِّراً فعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيىء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية فى الإنسان لا يستحيى منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحى منها الإنسان ؛ لذلك يجب أن يقوم بها فى خفية ، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الحلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » .

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الالتفات ؛ فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويعزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذى سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية ففى ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور فى أعماقه ، وهو يختلف عن ذلك الذى تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن على عدوه أن يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى دائماً ـ هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئا يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فأين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يقف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويعيش الظالم فى حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .

ومن ضمن المفارقات التي تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف أغتاب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والديك أولى بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطى حسناتك لعدوك ، ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هى : لا تكن أيها المغتاب أحمق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعدوك حسناتك وهى نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصرى ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه . فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اغتبته بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك أثمن من هذا الرطب . وفى هذا إيضاح كاف لذم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ« كان » فإياكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث فى زمن ماضٍ ، ولكن لنقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم ؛ فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له ، لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار . ومادام الله هو الذى يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيما ، ولايزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قالوا : إن الخطيئة هى الشيء غير المتعمَّد ، مثال ذلك حين نعلِّم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسى القاعدة ولم يستحضرها . ونظل نصحح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطىء .

والخطيئة - إذن - هى الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمَّد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله فى ذلك ؟

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، ويا ليته اكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إنَّ إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حمل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشقة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها ببرىء ، إذن فهى حمل على أكتافه . وتعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سُعار العداوة ؛ يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يهدأ سعار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة المائدة)

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يتقبل القربان وليس أنا فلماذا تقتلنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة المائدة)

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شىء وقت الجريمة ، وبعد أن وقعت ، وهدأ سعار الغضب الذى ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم ناصعة فى النفس .

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ، وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البرىء بالإثم إنما يرتكب عملاً يتطلب مشقة وتتنازعه نفسه مرة بالندم ؛ لأنه فعل الجريمة ، وتتنازعه نفسه مرة ثانية لأنه رمى بريئاً بالجريمة ؛ لذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » وساعة

نسمع كلمة « بهتان » فهى مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذى يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق فى شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فماذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أنه سمع شيئاً عجيباً يخرسه عن أن يتكلم ؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفراً ، فكان الأمور المخالفة لمنطق الحق والمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنّما هى البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التى نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرىء نفسه وأن يُدخل فى الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمِّله إثماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شىء إلا إذا كان هذا الشىء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإنّ فى الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصعاً ؛ فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسعاه . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التى تبهته ولا يدخل فيها هذا التماحك اللفظى . فقال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عَدَّى ذلك إلى أن يحمله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثمَ أيضاً .

. والإثم ـ كما عرفنا ـ هو السيئة المتعمَّدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليلى الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزينوا لك أن تبرىء مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البرىء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاقهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التى جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك فى قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلّمه حبيبه أسامة بن زيد فى أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : مَنْ يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرؤ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »[1] .

---

(١) رواه مسلم .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

وهنا نتساءل : هل هَمَّ أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن « الهَمّ » نوعان : هم إنفاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتى بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضا . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضى به من بعد ذلك فى كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليما .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ المذنب الذى يعلم أنه مذنب لاسْتقرّ فى ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البرىء الذى كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فَهَمُّ التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضا .

﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل فى القضية . ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن ما يبين سر نزول القرآن منجماً ؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذى ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتى الحكم . وقد سبق أن قال الكفار :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

لا ، فقد أراد الله القرآن منجماً ومتفرقاً ومُقسَّطاً لماذا ؟

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للفؤاد من اللَّدد والخصومة الشديدة ومن العناد الذى كان عليه الكفار وردّهم للحق ـ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ينزل نجم من القرآن ، وفى شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تُثَبِّت الفؤاد ؛ فإن تعب الفؤاد من شغب الناس ؛ فآيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحى تنفى عنه هذه المتاعب .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ؛ لذلك كان فى كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآنى بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآنى تُهَوِّنُ عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو ينتظر حلاوة الوحى لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

أى أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحى عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرهقه الوحى ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد »[1] .

ورأته خديجة ـ رضى الله عنها ـ « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكيته ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشريته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائيا فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا »[2] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحى أن يحس محمد حلاوة الوحى الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحى عندما يجىء ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيرا ، لأن الحق قال :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقا وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كُتّابُ الوحى ، وبعد ذلك تأتى معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرى عنه يقول للكتبة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة فى الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذى تكون فيه كل آية فى موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

وإلا فقولوا لى : كيف ينزل الوحى على رسول الله بسورة بأكملها ويمليها للكتبة ، ثم يقرؤها فى الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أى لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها .

إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التى يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التى استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذى ينزل به القرآن فيقرأه الرسول فى الصلاة مثلما نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾

(سورة الأعلى)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فإذا ما علمك الله - يا رسول الله - ما لم تكن تعلم بنزول الكتاب ، فهل أنت يا سيدى يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ؛ فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيمانى ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرِّع ؛ وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه عَلَّمَ رسوله الكتاب والحكمة . والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ولنا أن نلحظ أن « فضل الله » تكرر فى هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول فى هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتنأى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانيا أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهى التفويض من الله لرسوله أن يشرّع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك فى حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت فى القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدى الصلاة أم لا ؟.

فيقول : إنى أصلى ..

فنقول له : كم فرضاً تصلى ؟.

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بمثلها ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصلى على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتمونى أصلى)[1] وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقد تجد واحداً من أهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات فى أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله فى صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى فى ذيل نفس الآية ؟.

نقول : أنت لم تلحظ فضل الله فى الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظلماً ، وفى الجزئية الثانية هو فضل فى الإنعام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول فى أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معا ليتدارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة ؟.

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول ؛ فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أى جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارّة ، والمسارّة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن

---

(١) رواه البخارى والبيهقى فى السنن الكبرى .

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يفضح الحق أمر هذه النجوى ، فينزل القول الحق :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التي تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا ، لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويجزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسنؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطنى الله الجزاء على الطيب فى الدنيا ؟! لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل :« فسنؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ، وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ؛ لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلا « فسوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يمنى أمته الإيمانية بشىء فهو يمنيها بالآخرة ، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه[1] .

لقد أخذت لنفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفّينا بهذا ؟ ولنر عظمة الجواب وإلهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكم الجنة) .

كان فى استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستنتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبداً فقد يستشهد واحد منهم فى قتال من أجل نصرة دين الله ، فماذا سيأخذ فى الدنيا ؟ . إنه لن يأخذ حظه من التكريم فى الدنيا ، ولكنه سينال الجزاء فى الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذى سيشمل الكل ، وهو الجنة ليدلهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحض كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة ؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أتحبنى ؟ فأجاب الصاحب : نعم أحبك . فسأل السائل : على أى قدر تحبنى ؟ قال الصاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتفهنى عندك !! .

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والفاعل لهذا العطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكأن الحق يبلغنا :

ـ يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول الله وامتزجوا به لتكونوا معه شيئاً واحداً . وإياكم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؛ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليلتحم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ساعة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

حدثوه فى حكاية الإسراء والمعراج نجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال . فيرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ؛ فالصديق أبو بكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .

ويأتى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث فى أمر كان ملتحماً ، مثلما نشق قطعة الخشب فنجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمتم بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدقٍ عن الله ، فإياكم أن تشرخوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعياذ بالله . أو المعنى ومن سلك غير الطريقة التى جاء بها الرسول بأن صار فى شق وشرع الله فى شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر فى أدلة الوجود الأعلى لله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله ، بقيت مرتبة ، وهى أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ؛ لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيمانى على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لابد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى فى

الوجود الأعلى وفي البلاغ عن الله فلا بد للإنسان أن يلتحم بالمنهج الذى جاء به المبلغ عن الله . ويفعل الإنسان مطلوب القوة العليا ؛ لأن الله قد أمر به ؛ ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقرّه . أما إذا دخل الإنسان فى مماحكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والهدى - كما نعرف - هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعل من أفعال الخلق لابد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدّية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أقصر طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلا وطريقا للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذى جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذى يحدث له ؟ . ها هى ذى إجابة الحق : « نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . وقد يأتى لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَن يذاكرُ ينجحُ . بالضم فيهما ، و« من » هنا هى اسم موصول ؛ فالذى يذاكر هو مَن ينجح . وقد نقول : مَن يذاكرْ ينجحْ . بالسكون وهنا « مَن » شرطية .

وفي الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هي ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذي يقتضي سكون الفعل ؛ ويقتضي - أيضا - جواباً للشرط . و« من » تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، ونتعرف - عادة - على وضعها مما يأتي بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « مَنْ » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « مَن » اسم موصول ؛ لأن هذا يستدعى ترك الفعل « يشاقق » في وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضمة ، وكذلك يكون « يتبعُ » فعلاً مضارعاً مرفوعاً بالضمة ؛ عند ذلك نقول : « توليه ما تولى ونصليه » . ولكن إن اعتبرنا « مَن » أداة شرط - وهي في هذه الآية شرطية - فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاققْ الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبعْ) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله :(نولِّهِ) (ونصْلِه) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهي الياء من آخره « ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . ومعنى « تَوَلَّى » أي قرب ، ويقال : فلانٌ وَلِيّ فلان ، أي صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »[1] .

فالذي يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال - ولله المثل الأعلى - لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافي لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه »[1] .

أي أن له مطلق القوة الفاعلة التي لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفا من شريك واحتياجاً لغريب . ولذلك

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

فمن يشاقق الرسول فى أمر إيمانى فالحق يوليه مع الذى كفر ويقربه من مراده . وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشىء المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء المشاقق لرسول الله والمتبع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدنيه من أهل الكفر والمعاصى، ويلحقه بهم ويحشره فى زمرتهم . ولا يعنى هذا أن الله يمنع عن العبد الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن وللكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الشورى)

ويقول سبحانه :

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نجد العطاء الربانى غير مقصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن وللكافر ، ولو لم يكن لله إلا هذه المسألة لكانت كافية فى أن نلتحم بمنهجه ونحبه .

« ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » ولا بد أن يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء . وبعد ذلك تأتى سيرة الخيانة العظمى للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

والحق هنا يتكلم عن إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك فيؤمن ، لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التى لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضا . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعيما يفوق من عاش مؤمنا لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئت فينال عقابها .

مثال ذلك « مخيريق » فحينما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال مخيريق لليهود : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم فقالوا : اليوم يوم سبت فقال : لا سبت . وأخذ سيفه ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل فى حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولله المثل الأعلى نرى فى حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يقتربون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلابا ، هنا تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، فما بالنا بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإرادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصى . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ونعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ونعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقترفه وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصادق ، لكن نفسه ضعفت ، والذى يرد الحكم على الله . وقد نجد عبداً يريد أن يرتكب الذنب فيلتمس له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إنى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروفى قاسية وضروراتى ملحة . فهو عبد عاصٍ فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو ـ والعياذ بالله ـ كافر .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولنتنبه إلى أن بعض المستشرقين الذين يريدون أن يعيثوا فى الأرض فساداً . ولكنهم بدون أن يدروا ينشرون فضيلة الإسلام ، وهم كما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

وحين يتكلمون فى مثل هذه الأمور يدفعون أهل الإيمان لتلمس وجه الإعجاز القرآنى وبلاغته .

إنهم يقولون : بلَّغ محمد قومه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » لكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

هم يحاولون نسبة القرآن إلى محمد لا إلى الله . ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيتين الكريمتين . ونقول رداً عليهم : إن الواحد منكم أمى ويجهل ملكة اللغة ، فلو كانت اللغة عندكم ملكة وسليقة وطبيعة لفهم الواحد منكم قوله الحق :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

وكان الواجب أن يفهم الواحد منكم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب ؛ فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن المشرك لا يدخل فى هذا الأمر كله ؛ لأنه كافر فى القمة . ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريمتين . والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة المعانى القرآنية .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد

ضل ضلالاً بعيداً » . والمشرك مهما أخذ من متع الحياته فحياته محدودة ، فإن بقيت له المتع فلسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهى تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتع بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأغيار ، فهو بين أمرين : إمّا أن يفوتها وإمّا أن تفوته. وهو راجع إلى الله ، فإذا ما ذهب إلى الله فى الآخرة والحساب ، فالآخرة لا زمن لها ، ولذلك ما أطول شقاءه بجريمته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذى يضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رشده . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون فى ألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلا ، لكان من الجائز أن يدخلوا فى عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا مفر من دخولهم فى الشرك . ويقول سيدنا إبراهيم عن الأصنام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليحدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدو لى ، إلا رب العالمين . كأن قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله . ولنر من يعبدونه ويدعونه فى مصائبهم :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

و« إن » هنا بمعنى ما ، فـ « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله فى موقع آخر :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى إن الحق يقول : «إن أمهاتهم إلاّ اللائى ولدنهم» . وكذلك « إنْ » فى قوله : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » ، وكان العرب ينسبون إلى المرأة كل ما هو هيّن وضعيف ولذلك قال الحق :

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فالإناث فى عرف العرب لا تستطيع النصر أو الدفاع ، ولذلك يقول الشاعر :

وما أدرى ولست أخال أدرى   أقوم آل حصن أم نساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلماذا تدعون مع الله إناثاً ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة . وعندما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله البنات ؟ . على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .

ولذلك قال الحق :

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى قسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندما ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان هناك صنم اسمه « إساف » و« نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرن ولا ينفعن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هى نساء ، أو هى ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » والأسلوب هنا أسلوب قطع . أى ما يدعون إلا إناثاً ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم إلا زيداً » وهذا نفى الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

واستخدم الحق فى صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على المقصور عليه لا يتعداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثانٍ هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وكان خدم الأصنام يدعون أن فى جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون فى جوف كل صنم شيطان يكلمهم . . وكان ذلك لوناً من الخداع ، فالشياطين ليست جناً فقط ولكن من الإنس أيضاً .

فهناك سدنة وخدم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأتى الخير للآلهة كالقرابين والنذور ويسعد السدنة بذلك ؛ لذلك كانوا يستأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : اذبحوا لى كذا . أو هاتوا لى كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يثبتوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذى يتكلم فى جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن، وإمّا شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد » .

ووصف الشيطان بأنه مريد يتطلب منا أن نعرف أن هناك كلمة « مارد » وكلمة

« مريد » . وكل الأمور التى تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نمسك مادة « الميم والراء والدال » نجد كلمات مثل « أمرد » و « امرأة مرداء » و« شجرة مرداء » ، و« صرح ممرد » .

إن المادة كلها تدور حول الملمس الأملس . فأمرد تعنى أملس ؛ أى أن منابت الشعر فيه ناعمة . وصرح ممرد كصرح بلقيس أى صرح مصقول صقلاً ناعماً لدرجة أنها اشتبهت فى أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقيها خوفاً أن يبتل ثوبها . والشجرة المرداء هى التى لا يمكن الصعود عليها من فرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون فى ساق هذه النخلة بعض المسامير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذى لا تستطيع الإمساك به . إذن . فـ « مارد » و« مريد » و« ممرد » و« مرداء » و« أمرد » ، كلها من نعومة الملمس .

« وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان فى الآخرة يقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتملص من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم .

والشيطان موصوف بأن الله طرده من رحمته . فالحق يقول :

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذنب الشيطان وعصى الله . وآدم أذنب أيضا وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة فى القرآن :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونعرف بهذا القول : أنّ هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فليحذر كل واحد أن يأتى إلى ما حرّم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراما لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكنى غير قادر على نفسى . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون عاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحلل ما حرّم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله ـ سبحانه ـ : « لعنه الله » أى طرده من رحمته . وليتيقظ ابن آدم لحبائل الشيطان وليحذره ؛ لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أعمل فكره لفند قول الشيطان وكيده ، ذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم ـ عليه السلام ـ لأمر أراده الله وهو أن يكون آدم خليفة فى هذه الدنيا ؛ لذلك كان من السهل أن يوسوس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمرا فى الخلود . ولو أن آدم أعمل فكره فى المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فأنت أيها الشيطان الذى قلت بخوف شديد لله :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ؛ لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا » .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما فهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون فى المستقبل من أنه سيكون له أتباع من البشر ؟ وكيف قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » ؟.

لقد عرف أنه مادام قد قدر على أبيهم آدم وأمهم حواء فلسوف يقدر على أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانبه ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر على آدم وعلى حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس فى ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر على آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذا

التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن ـ كما نعلم ـ هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

مادام إبليس قد قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض ـ كما نعلم ـ هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذى لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس ـ إذن ـ لأخذ نصيب مفروض من بنى آدم ؟

ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩﴾

فى هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لنصيب مفروض من بنى آدم . فإبليس هو القائل كما يحكى القرآن :

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيىء لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخمارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهى تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفى هذا إجابة لمن يقولون : إن الوساوس تأتينى لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هى أشرف موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يدى الرب ؛ لذلك يحاول الشيطان أن يلهى الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوساوس ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة فليتذكر قول الحق :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعيذ بالله فوراً يعرف الشيطان أنك متنبه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك متنبه له مرة واثنتين وثلاثاً فهو يبتعد عنك فلا يأتى لك من بعد ذلك إلاّ إذا أحسّ منك غفلة .

ويبين لنا الحق طريقة الشيطان فى أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلنهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف فى البداية يتسع حتى تنتهى إلى غير غاية .

وضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة فى منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض فى أن كل خطوة يخطوها تهيىء له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ « الكشك » الذى يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل « الكشك » اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات فى هذا « الكشك » يحرك قضيباً يكون سمكه فى بعض الأحيان عدداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر .

الضلال ـ إذن ـ أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق فى هذه الآية : « ولأمنينهم » والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذى نراه جالساً ويمنى نفسه قائلا : سيكون عندى كذا . . وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنًى . . إن تكن حقاً . . تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأماني فى أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يمنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : القطع . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن نفرق جيداً لنفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التى نظن أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المتنفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلحظ أحد أنه من الغباء تقبُّل فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدنة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها

وسيلة ، فيجلس فى جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتى الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفى أغلب الحالات أهل سمنة لأنهم أهل بطنة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله يبغض الحَبْرَ السمين)[1] .

فمثل هذا الحَبْرَ يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن ينتفع بالضلالة يرى أن حظه فى أن تستمر الضلالة ، مثله فى ذلك مثل المنتفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذى يصيبه الغمّ عندما تأتى البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المنتفع بالفساد هبّة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون فى الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريتاً ، والعفريت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشتى الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها منذورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفى آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ، وعند أبى نعيم فى الطب النبوى وعزاه أبو الليث السمرقندى فى بستانه لأبى أمامة الباهلى مرفوعا .

ويورد الحق أيضاً فى هذا الأمر :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤) ﴾

(سورة الأنعام)

فهل المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذى اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

لا شيء من هذه كلها محرّم ؛ فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيفتها ، ونلحظ فى الريف المصرى عندما تختنق جاموسة أو بقرة أو خروف بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويمد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقنى بالذبح لتستفيد من لحمى وتتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ؛ لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها فى أثناء حياتها تخدم الإنسان إما فى أن تحمل الأثقال ، وإمّا أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهى تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح ليستفيد الإنسان من لحمها ، فهى مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاما وتسخيراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا .. فلم نقبل تحريم غير المحرّم وتحليل غير الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكرا يقول السدنة : يكفى أنها جاءت بأربعة بطون وأتت بالخامس فحلاً ذكراً ويشقون لذن الناقة ويتركونها ؛ وعندما يراها أحد ويجد أذنها مشقوقة فالعرف يقضى بألا تستخدم فى أى شيء ، لا فى الرضاعة ، ولا فى الحمل ولا يحلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلأ وتسمى

« البحيرة » ويأخذها السدنة فى أى وقت ؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها فى الوقت الذى يتراءى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

والبحيرة - إذن - هى الناقة التى تبحر آذانها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تباعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ويهبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغض . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى لم يذبحوا الذكر لآلهتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ؛ لذلك فهبة الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

وإنما أمهات القوم أوعية ... مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحماية . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : حمى ظهره .

وهناك من يتحذلق فى عصرنا قائلاً : أنا نباتى ، لا آكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدعى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول لهؤلاء : انتبهوا ؛ إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهى نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ؛ فهذا مصدر للخوف من أن يزيف الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونتساءل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شىء هو من خلق الله .

والخلق ـ كما نعلم ـ إيجاد من عَدم ، وسبحانه خلق كل شىء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة فى علم الخالق أزلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد المستحدَث الصناعى فى الأسواق كغسالة الملابس مثلا ونعرف أن الذى صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر فى هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التى تؤدى هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرفون » أراد فى البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع فى محظور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث فى القرآن عن

نظائره ، وقد نجد فى القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا : « فليغيرن خلق الله » ، وفى موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه فى الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به قوله الحق :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟ إنها الصفاء الأولى فى النفس والطبيعة . ومثال ذلك حين يوجد الإنسان فى بيئة لا تكذب فلن يعرف فى حياته الكذب . وعندما يوجد الإنسان فى بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف على الموبقات من النقص المجتمعى ، بدليل أن البلدان التى طبقت الشريعة الإسلامية وتم قطع عدد قليل من الأيدى عقوبة وحداً فى السرقة انتهت فيها السرقة . ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئاً فى مكان ما يظل فى مكانه إلى أن يعود صاحبه ليجده ، هذه هى الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة بطبيعتها هو أننا نجد أن الذى يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنّه ينظر بكل ملكاته ، أما إن نظر ـ والعياذ بالله ـ إلى محارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغايراً لطبيعته . والتكلف هو الإتيان بشىء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتى إلا من هذه الناحية .

كيف ؟.

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث ـ أى أنه يحاول أن يكون أنثى ـ وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزينتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهى تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد ـ أمده الله بالعافية ـ وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتى من الذين اللاتى ... حرت بين الفتى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ، ففى بعض الأحيان صارا من « الذين واللاتى معاً » لأن الفتى يتشبّه بالفتاة ، والفتاة تتشبّه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبتُ الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفا ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطى هذه الأمزجة . ألا ترى فى الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتى آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليتواءم الخلق بهذا السيال . وقد تحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها فى لون الورد فتضع عليهما بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها فى الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التى يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعى ؟ . إن الأظافر ذات لون أراده الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تتنفس أيضا . وقد يفتى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ؛ فهذه ليست أصباغاً ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفى هذه الحالة يصل الماء فى الطهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التى على الظفر فلا تزال إلا بمادة كيماوية ويمكن إزالتها وهى لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها فى الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكناً ومتعة ولكن بتوازن عاطفى وعقلى ، فلو أراد الله لخدّ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التى فى الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، فسبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التى تحدث وشماً[1] ، أو الرجل الذى يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

---

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة فى البدن ، وذرّ ونثر مادة عليه تستخرج من نبات النيل تسمى : « النِّيلَج » حتى يَزْرَقّ أثره أو يخضرّ .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشىء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟ .

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمانى الكاذبة فى الوساوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطانى فى الدنيا ، ومادامت مهمة الله هى العطاء الدائم فلا بد أن يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد فى الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟.

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

فما هو الغرور ؟ هناك « غُرور » - بضم الغين - ، و« غَرور » - بفتح الغين - . والغُرور - بضم الغين - هو الشيء يُصوَّر لك على أنه حقيقة وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور - بفتح الغين - هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغَرور - بفتح الغين - هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك الغُرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذى كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذى يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتي واحد ويدعي لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

ـ هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التي أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أيصيرون إلى عذاب ؟. ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس في باله الله . بل قام بتلك الأعمال وفي باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلاّ أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار)[1] .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم في الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين في بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله في عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستذلون .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في الجهاد . وأخرجه كذلك النسائي والترمذي وابن ماجه .

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء فى الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذى يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطرار يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنطق قائلة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

كأن النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله فى دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورده الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

وحين يأتى سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهيأة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبىّ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصارى : (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمنا حقاً . لقد أجاب الصحابى بكلمة كبيرةالمعانى وهى الإيمان حقاً ؛ لذلك قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك » ؟

أجاب الصحابى : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربىّ بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثا »[1] .

والحق ساعة يقول : « سـ » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

والجنة ـ كما قلنا من قبل ـ على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوّح نباتها وشجرها وييبس ويتناثر ، أو يصيبها الجدب ، أمّا جنة الآخرة فهى ذات الأكل الدائم ، وإن لم تطلق كلمة « الجنة » من

---

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبونعيم فى الحلية . وضعفه الدارقطنى وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ؛ كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هى البستان على مكان عال ، وهى ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع فى هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذالرّى من المطر للجذور،والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضرتها وخضرتها ، وأول شىء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ؛ لأن الأنهار تجرى وتنبع من تحتها . ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود فى الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدين فيها أبداً » أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد مَن ؟ « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » . وحين يعدك من

لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق ـ سبحانه ـ . أما وعد المساوى لك في البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه ، أو لا يجد الوُجد واليسار والسَّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا » هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقرارا منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ؛ لأن الكذب إنما يأتي من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾

والأمنية ـ كما عرفنا ـ هي أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، إنّ الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان في الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح في الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذي نضربه لذلك ، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد لهذه الحواف وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هى وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . كأن يأتى إلى جوانب البئر ويبنى حولها جداراً من الطوب كى لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر فى راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملأوا جِرارهم وقِرَبهم فيفكر فى رفع المياه بمضخة ماصة كابسة إلى صهريج عالٍ ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى ممتع دون عمل . . فهذه هى الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هى الأمانى التى لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هى أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شىء سببا ، ولنلحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرَقِّى أساليب الحياة فى الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر فى مجارٍ محددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون فى كل مجرى تراب من صخور أو طمى ؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها فى صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلا . وصنع الإنسانُ الكوبَ فى البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ؛ فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : « ليس بأمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟. إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضى حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسنّا الظن بالله . ونسمع الحسن البصرى يقول لهؤلاء : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أمانىّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه يقول لهؤلاء : « ليس بأمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بأمانيكم » شاملاً أيضا الكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (٣٦)

(سورة الكهف)

هذه هى أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمانيهم :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمانى خادعة ؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »[1] .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة فاطر)

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شىء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءا فليبحث لنفسه عن ولى أو نصير ولن يجد .

والولى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

---

١ ـ رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوىٌّ ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولى » ، و« النصير » ؟ . والولى ـ كما عرفنا ـ هو القريب الذى يلى الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه فى سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتى لنصرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذى يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل ، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر .

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (مِن) التى تدل على التبعيض . . أى على جزءٍ من كلّ فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل : « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعضٍ من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هي أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان فى الأعمال الصالحة التى تتفق مع خلافته فى الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح ؛ فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح .

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس فى باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد . كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التى ينتفع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفى ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التى عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءا ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذى يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو القائل :

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها . وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلا من الله ، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتى فى

هذا المقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيرا) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهرى ، وفى آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفى شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف . إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى « ولا يظلمون نقيراً » ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ؛ فالتراجع فى الفضل - بالنسبة لله - هو ظلم للعبد . ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا فى الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » والنقير هو : النقرة فى ظهره النواة ، وهى أمر ضئيل للغاية . وهناك شىء آخر يسمى « الفتيل » وهو المادة التى تشبه الخيط فى بطن نواة التمر ، وشىء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى فى عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

وساعة نسمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » فحسن الاستنباط يقتضى أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفى حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟ . معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح بأن زيداً هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على صورةالاستفهام إلا إذا كان المخبر عنه محدداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أنّ من يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكأن الناس ساعة تدير رأسها بحثاً عن جوابٍ للسؤال لن تجد إلا ما حدده السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا التساؤل : لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً فى صيغة تساؤل مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصدق كله :

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليترك لنا حرية الجواب فى الكلام ، كأنه سبحانه يقول :

ـ أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة فى إطار ذمتك وحكمك فقل لى من أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن ممن أسلم وجهه لله فتقول :

ـ لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب إقراراً ، والأقرار ـ كما نعلم ـ سيد الأدلة .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » ونعلم أن الكلمة إذا أطلقت فى عدة مواضع فهى لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذى توجد به تميزات تبيّن وتوضح ملامح الأشخاص . لأننا لن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل تعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا نتساءل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذى يشبه وجوهنا فهذا وقوع فى المحظور ، لأن كل شىء متعلق بالله سبحانه وتعالى نأخذه على ضوء « ليس كمثله شىء » نقول ذلك حتى لا يقولن قائل : مادام وجه الله هو الذى لن يهلك يوم القيامة فهل تهلك يده أو غير ذلك ؟ . لا ؛ إن الحق حين قال : « كل شىء هالك إلا وجهه » فالمقصود بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن فوجه الله ـ هنا ـ هو الجهة التى يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة فى أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولى وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ؛ لأن الله موجود فى كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بدليل أننا نصلى حول الكعبة ، وتكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة فى أثناء الطواف حول الكعبة وفى أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا لنطوف حولها ، ولتكون متجهنا إلى الله فى جميع الاتجاهات .

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أى الجهة التى ارتضاها سبحانه وتعالى .

ونحن هنا فى هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » . وأسلم وجهه أى أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو غرض ، فيكون وجهه هو المتجه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا ـ إذن ـ هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟ ؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن القامة العالية والوجه الذى يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أى أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من الإسلام ، فـ « أسلم » تعنى : سلّم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوى أنه يعرف فى هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم لمساو إلا إن شهد له قبل أن يلقى إليه بزمامه أنّه صاحب حكمة وعلم ودراية عنه . فإن لم يلمس الإنسان ذلك فلن يسلم له . وما أجدر الإنسان أن يسلم نفسه لمن خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟ .

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أيضمن أن يبقى هذا الإنسان حكيما ؟ إنّه كإنسان هو ابن أغيار ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامى لمن خلقنى فهذا منتهى الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن آمنت به إلهاً قوياً وقادراً وحكيماً وعليماً وله القيومية فى كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله فلن يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

ولماذا جاءت كلمة « محسن » هنا ؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ونعرف أننا آمنا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فإننا نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فهو يرانا . والحوار الذى دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلي وأظمأت نهاري ، وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) فقال : « يا حارث عرفت فالزم ثلاثا »[1] .

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنه فى لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين فيستحيى أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما سأل جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2] .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه ؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك .. فكيف تفعله مع الله ؟!!

وتتجلى العظمة فى قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » لماذا إذن « ملة إبراهيم » ؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنه الجامع لكل خصال الخير التى لا تكاد تجتمع فى فرد إلا

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعّفه الدارقطنى وابن حبان .

٢ ـ من حديث طويل رواه الإمام مسلم .

إن وزعنا الخصال فى أمة بأكملها ؛ فهذا شجاع وذلك حليم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيرة كلها لا تجتمع فى فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة . وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً لخير كثير فوصفه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم : « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » . والملة هى الديانة و« حنيفاً » أى « مائلا عن الباطل إلى الحق » . والمعنى اللغوى لكلمة « حنيف » أنّه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومتى تُرسل الرسل إلى الأقوام نعرف أن الرسل تأتى إذا طمّ الفساد وعمّ ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . . فالحق سبحانه يمهل الناس وينظرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أَوْجَهُ ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتى الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل عن الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالا . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » فما هى حيثيات الخُلّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم لله وجهه ، وكان محسناً ، واتبع الملة ، وكان حنيفاً ، هذه هى حيثيات الخُلّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله فى النار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟. فقال إبراهيم : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاسأل ربك فقال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » فقال الله : « يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم »[1] أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئاً . وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى أنس الناس بأبنائها ؛ ونعلم إن إسماعيل قد جاءه ولداً فى آخر حياته ، وأوضح له الحق أنه مبتليه ، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة ؛ فالابن لا يموت ؛ ولا يقتله أحد ولكن يقوم الأب بذبحه ، فكم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟!

١ ـ من الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وذكر نحوه فى تفسير ابن كثير وفى الكشاف للزمخشرى .

وسار إبراهيم لتنفيذ أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر . ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام . لم يقل : « افعل ما بدا لك يا أبى » ولكنه قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معاً لأمر الله .

فماذا فعل الله ؟ :

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ (١٠٧) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم إسماعيل ابناً ، وله فداء ، ولكن رزق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

وجلس العلماء ليبحثوا معنى كلمة « خليلاً » ، ويبحثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التى وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخاء ولام ولام » . و« الخَل » - بفتح الخاء - هو الطريق فى الرمل ، وهو ما نسميه فى عرفنا « مدقاً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ودّ عالٍ ، وإن لم يكن بينهما ودّ فواحد يمشى خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنين اللذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه . والخليل أيضاً هو من يسد خلل

صاحبه . والخليل هو الذى يتحد ويتوافق مع صديقه فى الخِلال والصفات والأخلاق . أو هو من يتخلل إليه الإنسان فى مساتره ، ويتخلل هو أيضاً فى مساتر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه فى أى مكان سواء فى الصالون أو فى غرفة المكتب أو فى غرفة النوم . لكن هناك من لا يستقبله إلا فى الصالون أو فى غرفة المكتب ..

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » أى اصطفاه الحق اصطفاءً خاصاً ، والحب قد يُشارَك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو يعلمنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفى إبراهيم خليلاً ، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته ، أما الحب فيعم ، ولكن الخلّة لا مشاركة فيها . ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعني نفسه[١] .

وإسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان أسبق من أحمد شوقي وكان شيخا للقضاة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما التقينا قرب الشوق جهده
خليلين زادا لوعة وعتابا
كأن خليلاً فى خلال خليله
تسرب أثناء العناق وغابا

وشاعر آخر يقول :

فضمنا ضمة نبقى بها واحداً

ولكن إسماعيل صبرى قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب فى البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾ (١٢٦)

وسبحانه أوضح فى آية سابقة أنه لا ولى ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أنْ تظنوا أنّ هناك مَهْرَباً أو محيصاً أو معزلاً أو مفراً ؛

---

١ ـ رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود وفى البخارى : (لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن اخوة الإسلام ومودته) .

فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا السموات تُؤوى هارباً منه ، ولا مَن فى السموات يعاون هارباً منه ، وسبحانه المحيط علماً بكل شىء والقادر على كل شىء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

« ويستفتونك » أى يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مرّ بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهى تعبير عن سؤال المؤمنين فى مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هى : « ويستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلّة والمحيض والإنفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »[1] .

١ ـ رواه الإمام مسلم وغيره .

أى أنه طلب منهم ألاّ ينبشوا وألاّ يُفتشوا فى أشياء قد يجلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة فى معرفة أى حكم يحدد حركة الإنسان فى الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا يسألونه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطرا على كل أفعاله ، فالشيء الذى أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه .

وأيضاً فالإسلام جاء ليجد عاداتٍ للجاهلية وللعرب ولهم أحكام يسيرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا فى ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوك لهم من صميم أمر الإسلام ؛ لذلك سألوه فى أشياء كثيرة .

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوجد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد فى أمر ما : فلنستفت عالماً فى هذا الأمر ؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم فى استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء - إذن - يكون لحكم موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص داراً للإفتاء ؛ لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات فى الدين . وقد يعيش حياته ولا تمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرتيب ، أما الفتوى فهى فى أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول : (ويستفتونك فى النساء) كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيما يتعلق بالنساء حلاً وحرمة وتصرفاً .

فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيهن » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ـ سبحانه ـ يفتيهم من جديد .

فلعل الحكم الذى نزل أولاً لبس على بالهم أو ليسوا على ذكر منه .

فقال الحق :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَآءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى النِّسَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم فى أمرهن ، وسبق أن نزل فى الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَٰمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وتوالت آيات من بعد ذلك فى أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتعجل الاستفتاء فى شىء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يغنيه عن أن يستفتى .

ومع أن الاستفتاء فى أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، يتيمات وغير يتيمات فلماذا جاء الجواب فى يتامى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات لهن القدرة على أن يبحثن أمورهن ، ولسن ضعيفات ، أمّا اليتيمة فهى ضعيفة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ الإنسان المبلغ الذى يصبح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حدّ البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ؛ لذلك جاء الجواب خاصاً بيتامى النساء ؛ لأن يتامى النساء هُنّ دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم فى

عصرنا بـه الأوصياء » . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مال، فالوصى يحب أن ينكحها ليستمتع بجمالها ويستولى على مالها . وإن كانت دميمة فالوصى لا يرغب فى زواجها لذلك يعضلها ، أى يمنعها من أن تتزوج ؛ لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وها نحن أولاء نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكانت له الفراسات التى تسمى الفراسات الفاروقية جاءه واحد يسأله عن أمر يتيمة تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

ـ إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دميمة فخذها زوجة وليكن مالها شفيعاً لدمامتها .

ويقول الحق :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذى كتب لهن إما أن يكون مهوراً . وإمّا أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولى . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالى الذى لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، ونجد مادة « رغب » تعنى « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه » ، وإذا « أحب ألّا يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت « عن » جاءت كما فى الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب فى » فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » فى هذه الآية نجدها محذوفة الحرف الذى يقوم بالتعدية حباً أو كرهاً ؛ لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة فى المرأة . . تصير « ترغبون فى » وإن كانت المرأة دميمة وزهد فيها فالقول يكون : « ترغبون عن » ولا يقدر أحد غير الله على أن يأتى بأسلوب يجمع بين الموقفين المتناقضين . وجاء الحق ليقنن للأمرين معاً .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « والمستضعفين من الولدان » بجانب اليتيمات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحينما يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية على مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان ملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمة هذا الأسلوب لا يمكن أن يأتى به إلا رب كريم . فالحق قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هى فى الأصل ملك للسفهاء ؛ فالمال ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأخوة الإيمانية للتكاتف والتكافل ، وساعة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يحجرون على سلوكه حماية لماله من سفهه ، والمال يصان ويحفظ ومطلوب من الوصىّ والولى أن يحميه ، هذا ما قاله الحق فى السفهاء .

والحق يتكلم فى اليتامى . فيقول سبحانه :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفيه أو المبذر ليس لأى منهما سلطة التصرف فى المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، وينتسب المال فى هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحافظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعلى الوصى أن يرد له المال .

ونحن أمام آية تضع القواعد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط ـ بالكسر ـ تعنى العدل . وتختلف عن « القَسط » ـ بفتح القاف ـ وهو يعنى الجور ، قَسَط ـ يقسِط أى عدل ، وقسط يَقْسُط ، أى جار ، فالعدل مصدره « القِسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القَسط » بالفتح للقاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سفها بغير علم ـ قالوا :

ـ يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾

(سورة الجن)

و« القاسطون » هى اسم فاعل من قسط ، ونقول : ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنها تستعمل فى « عدل » وفى « جار » . وسبحانه يقول عن العادلين :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

القاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَط يقسُط » . والمقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » نراها تبدأ بهمزة الإزالة ، أى كان هناك جور فأزلناه . أما القِسط ـ بالكسر ـ فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يفصل بين الاثنين هو الفعل المضارع ؛ ففى العدل هو « يقسِط » . بكسر السين فى المضارع ، أما يقسُط ـ بضم السين فى المضارع ـ تعنى « يجور ويظلم » . ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لباقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى الموسل إليه يغضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرتى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟ . فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه ، وفى عصرنا نجد من يلقى خطاباً يطلب تشكيل الخطاب حتى ينطق النطق السليم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم فى قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه يتكلم فى المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف فى أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جميلة حتى يُطمع فيها أو فى مالها ، وفى هذه الحالة يجب على الولى أن يرعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأن يقوم المؤمن على أمر اليتامى بالعدل ؛ لأن اليتيمة قد تكون مع الولى ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شىء من الوسامة ، فيسرع إليها الولى بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وينبه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد . ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » ليدلنا على أن أمر الفعل والقيام به ليس مناط الجزاء ، ولكن أمر النية فى الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنيّة كذا .

إن الذى يمسح على رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم فى الثواب ، ومن يكفل اليتيم فهو مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . والذى يقدر ذلك هو الله ـ سبحانه ـ العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذى يقوم بهذا العمل ؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النيّة الدافعة والباعثة على العمل . ولا يكفى أن يقول الإنسان : إن نيّتى طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] .

---

١ ـ رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

أى لا بد من ارتباط واقتران النيّة بالعمل ؛ لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يعدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النيّة للخير وحدها لا يكفى ، وإن افتقد الإنسان النيّة وأدّى العمل فغيره يأخذ خيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نيّة طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » ؛ لأنه سبحانه عليم لا بعد أن نصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا ينتظر سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم . بل إنه ـ جل شأنه ـ يعلم كل شيء علما أزليًا ؛ لذلك قال : « فإن الله كان به عليماً » ؛ لأن كل أمر برز فى الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أزلاً قبل أن يوجد الوجود .

وفى المجال البشرى نرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لى قصراً صغيراً على مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسى على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقا فطنا غايةً فى الدقة فيقول للمهندس : إننى أريد أن تصنع لى نموذجا صغيراً قبل البناء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسى مصغر ، وأن تبنى الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيتها .

هكذا العالَم قبل أن يوجد ، كان معلوما علما تفصيليا بكل دقائقه وأبعاده عند خالقه ، والنماذج المصغرة التى يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالنجار الذى يقصر فى صنع حجرة نوم من خشب الورد لندرته ، فيستعيض بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل فى علم وقدرة المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ؛ لأنه ـ سبحانه ـ هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به عليماً » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة نرى «إن» وبعدها اسم مرفوع كما في قوله :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

فلنعرف أن «إنْ» هذه داخلة على فعل ، أى أن ترتيبها الأساسى هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.. وهنا فى هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت إمرأة من بعلها نشوزاً ، وما الخوف ؟. هو توقع أمر محزن أو مسيء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السيء. وهكذا نجد أنّ الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » أى أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفتة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿ وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشوز ؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول : « هذه نغمة نشاز » أى أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ من النشز ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض فى الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدنا فيها نتوءا فهذا اسمه نشوز .

والأصل فى علاقة الرجل بزوجته ، أن الرجل قد أخذ المرأة سكناً له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه ، واشترط الفقهاء فى الزواج التكافؤ أى أن يكون الزوجان متقاربين ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون فى الطيبة أو الخبث ، فلا يأتى واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كى لا تتعبه ، ولا يأتى واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كى لا يتعبها ؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره .

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان فى الطباع والسلوك ، وفى هذا توازن ، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة ، فالخبيثة لا تخجل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً أى ارتفاعاً عن المستوى المفترض فى المعاملة ، فى السكن والمودة والرحمة التى ينبغى أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهى قد أفضت إليه وأفضى إليها ، فإن خافت أن يستعلى عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشوز . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز فى الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » والإعراض يعنى أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التى بين اثنين ـ كما قلنا ـ وقال الله عنها :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال فى ذلك أيضاً :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطى الرجل المرأة وتغطى المرأة الرجل فهى ستر له وهو ستر لها وحماية . ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهى تدارى أى جزء ظاهر من جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفى شيئاً .

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً ، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها . ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله ، واطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهى هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت فى العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال فى الرجل بقية من فتوة . وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته ، أو يرغب فى الزواج بأخرى لأى سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قَسْمها ، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزّواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شىء من المهر ، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته ، وهى مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذى يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود ، فتقول له الزوجة كلمة تنهى الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن نتنبه إلى قول الحق هنا : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما » .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول الحق :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هي مجمع كل الجمال والخيرات ؛ لأن كل خصال الخير التي تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر فى المرأة الجميلة . بل قد توجد فى المرأة التى ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التى ليس لها حظ من الحسن فهى تحاول أن تكون أمينة ومطيعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تستبقى لنفسها رصيد استبقاء .

ولذلك نجد اللاتى ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة فى حمل أعباء تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسّى ، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه ؛ لأن الجمال الحسّى قد يأخذ بعقل الرجال ، لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدَّثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه ، وهو رجل طيب فقال لها : آه لو رأيتنى وأنا فى دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعى . لقد ظن أنها عندما تراه فى مجلس العلم سترتدع ، وتكون حنونة عليه .

وذهبت لحضور درس العلم ، ورآها ، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له فى قلبها ، وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيتنى اليوم . فقالت : رأيتك ويا حسرة ما رأيت ، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشراقات الله فى تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التى كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التى كان يكرمنى الله من أجلها .

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذى يصبر عليها يؤتيه الله خيرها ، ولذلك قالوا : « إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت : الحمد لله فقال لها : على أى شئ تحمدين الله ؟ قالت : على أنى وأنك فى الجنة . قال : لم ؟ . قالت : لأنك رزقت بى فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما فى الجنة .

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هى مجمع الجمال والحسن فى كل شيء ، فإن كانت متدنية المستوى فى جانب فهى متميزة فى جانب آخر ، فلا تضيع الامتياز الذى فيها من أجل قصورها فى جانب ما . وزوايا الحياة كثيرة . وقلنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابناً لله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادمنا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز فى جانب ، والآخر قد نال الامتياز فى جانب آخر ـ هذا النقص فى زاوية ما ، والامتياز فى زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أى إنسان يساوى مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم .

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه فى المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها فى الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذى ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال ؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التى ليست كذلك ، والذى يرضى هو من ينظر إلى المحاسن . والذى يغضب هو من ينظر إلى المقابح . والعادل فى الغضب والرضا هو مَن ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا ، إنّ الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

- لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظرى أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » .

إننا فى بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذى يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة فى النفوس ، والتى تتسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يُصلحا بينهما صلحاً والصلح خير » وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . يوضح لنا سبحانه : أنا خالقكم وأعلم طباعكم وسجاياكم وأعلم أننى عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شيء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض . وجاء الحق فى آية وقال :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وهناك فرق بين الحقوق التى قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذى يَتطوع به . ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين : أأحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضي : نعم إنه الفضل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضي لأخيه .

ويذيل الحق الآية : « وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التى لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ؛ لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع ،والمغبون هى المرأة ؛ لأنها مقيدة بزوج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : سأتزوج بثانية ، ورضيت هى بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على ولدى وتقسم لى فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إلىّ فأقرها . إذن فالغمة فى زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية . والمرأة معذورة فى ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله فى أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذى فى صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى ـ وهو الله ـ الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معذورات فى أن يغضبن من هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله فى التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا فى نفسها ولا فى بيتها ولا فى رعاية أولادها . فهى تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عينى بدلاً من أن يدس نفسه فى أعراض الناس » .

إذن فالذى يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله فى التعدد لا بد أن يأخذوه

بأصوله التى وضعها الله فى إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق فى البيتوتة ، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلا ، وكان ـ رضى الله عنه ـ لا يتوضأ عند واحدة فى ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان فى الطاعون ، أمر بدفن الاثنتين فى قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وأمر بالعدالة فى المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زمناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتسامة ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل فى كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل فى ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

أى أن العدل الحبّى مستحيل . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : (اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) ـ يعنى القلب ـ[1] .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسيه والنزوع النفسى . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . . إلا إذا أراد الحب العقلى ، أما الحب العاطفى فلا . والذى يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا

١ ـ رواه أحمد وأبو داود والدارمى .

الدواء من الخارج ؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه ـ سبحانه ـ بقوله : « فتذروها كالمعلقة » وهى المرأة التى لا هى أيّم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هى متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ، لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكنى أريد العدالة فى الموضوعات الأخرى ؛ كأن تسوّى فى البيتوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك فى المؤانسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات فى الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه ـ جل وعلا ـ يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله فى خلقه لما حمّل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوّداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة فى تبعات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعلى مطالب الحب ، فنجعل للمحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب فى الكون ليعربد فى أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ . وعندما ننظر ـ مثلا ـ إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها فى الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة فى الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف فى أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان فى أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل. إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى غريزة حب الاستطلاع فينبغى أن نجعلها

فى مجالها المشروع فلا نجعلها تجسساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة حب المال فى الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله فى الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنسانى . إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يلغ فى أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز فى مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة فى غير المجالات التى حددها لها المنهج .

إذن فالميل أمر فطرى فى النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم فى عمارة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه فى هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلى ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه فى مجاله القلبى فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبى .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطى من تحب خير غيره ظلماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض .

ولنا الأسوة فى سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر ـ رضي الله عنه ـ : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ـ رضى الله عنه ـ . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت علىّ إلوِ وجهك عنى ، لأن قلبى لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القالب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذى ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك . ولكن المنهج يضع لك القواعد التى يسير عليها سلوك قالبك . وعليك أن تعدل فى قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعيا أنه يفهم النص القرآنى ، إنّنا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هى ليست من التعدد فى ذاته ، ولكنها تأتى من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله فى العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل فى التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ثم جاء فى آية أخرى وقال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف فى هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فقال : « فلا تميلو كل الميل » إنه ـ سبحانه ـ فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذى يعلم مَن خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرِّع على « ولن تستطيعوا » لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفي هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهي المرأة التي لم يتحدد مصيرها ومسارها في الحياة ، فلا هي بغير زوج فتتزوج ، ولا هي متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها في البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التي جعلت الرجل يفسد في علاقته الزوجية ليقضي عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة في المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها في البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوي ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شيء من قسمها ترضية له تكن التفرقة ـ هنا ـ أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذي يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التفريق بينهما في مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا في واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام فى هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنِّحل يلجأون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامى بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحيَ الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها فى عمله . ولا تملأ الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

« وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون فى استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان ؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) ﴾

وسبحانه هو الذى يُرضى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن افترقت عن زوجها ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هى خير ممن فارق،ويرزق المرأة رجلا هو خير ممن فارقت ، فلا شيء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيرا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الإثنان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ

﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟ . يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هى بأربعة مقادير تجرى على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمنَ الإناثَ يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرّية من الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التى تقر بها العيون عادة . والحالة التى تقر بها العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التى تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يهب لمن يشاء إناثا » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتى بالحالة التى يكون العطاء فيها فى القمة : « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً » .

وأخيراً يأتى بالقَدَر الرابع الذى يجريه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك ؟ إن المواقف الأربعة هى قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنّه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قابلها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً ـ أو زوجين ـ أخذا قدر الله فى العقم كما أخذاه فى غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله ، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم فى الحمل والتربية وغيرها ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربّاهم

غيرهم ، والذى يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون فى ضيق ، هو أنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ـ والعياذ بالله ـ فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل فى حديثه القدسى :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة)[1] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لها فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق فى حياتهما معاً .. فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : مَن يقضى مصالحك كلها ؟.

إنه الحق سبحانه الذى سخر أشياء ليست فى طوق قدرتك ، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟. أأرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقيًّا ؟

أأرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : غذّى ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات ؟. كل هذا ليس فى طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة فى أمرك ، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه منى سأنفذه قدر استطاعتى . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شىء مملوك لله وفى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق .

طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسأل نفسك : أتعيش فى ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكلية ، وسبحانه القائل :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لغير منهج الله .

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » يوضح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهى ؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصبح كل شىء يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » . وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصَى . « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غنى عنه ، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أنى أستميلكم إلى الإيمان لأنى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وستظل حتى ـ ولو كنت متمرداً ـ فى قبضة

مرادات ربك . فلن تتحكم فى مولد أو فى ممات أو فى مقدورات . فالكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون يقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، والتى قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة النحل)

وسبحانه هو الذى يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها مازال فى قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهى تغلق المجال الجوى كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا يوضح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغذى الأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلى ، ويأتى الحق ليجرى على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جدب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد .

وفى موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ،

وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتقذف بالنّار وتجرى الناس لتنقذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى فى أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشرى القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجىء المقولة مرة ثانية فى الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنىّ ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة فى الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها فى صدر الآية لتثبت معنى ، وجاءت فى ذيل الآية لتثبت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويجىء « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه . ويجىء « لله ما فى السموات وما فى الأرض » فى ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتى فى الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾

ويجىء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تضن الأرض عليك بعناصرها ؛ لأن كل هذه الأمور مسخرة بأمر الله الذى خلقك وقد خلقها وقدّر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذى أكفلكم وأكفيكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحس بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطىء أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللّهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال ؟» قالوا : بلى ، قال : « لقد حَظرت[1] رحمة واسعة . إن الله ـ عز وجل ـ خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جِنّها وإنسها وبهائمها وأخّر عنده تسعاً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره »[2] .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه ـ سبحانه ـ هو القيوم،وتعنى المبالغة فى القيام ، إذن كل شىء فى الكون يحتاج إلى قائم ، لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أنِ اجتهد فى العمل وبعد أن تتعب نم ملء جفونك،لأنى أنا الحق لا تأخذنى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ . « وكفى بالله وكيلاً » .

ثم يأتى الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن العالمين ، فلا يكفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كفرت أيها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت فالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيها البشر أن تعتقدوا أنكم خُلِقْتم وشردتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فالله سبحانه يقول :

(١) حظرت : منعت وحجرت .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

وبعض الفاقدين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكنا خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نقرأ « كان » بجانب كلمة « الله » فهى لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ؛ لذلك يظل قديراً وموجودا فى كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلِمَ الغفلة ؟ ولِمَ لا تأخذ الزيادة ؟ ، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان فى الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه . فالحق يقول :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » فى مقابلة للدنيا ؛ وأن من يأخذ الدنيا لن يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد ـ سبحانه ـ للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيا من تريد ثواب الدنيا لا تحرم نفسك بالحمق من ثواب الآخرة . وكلمة « ثواب » فيها ملحظ ؛ فهناك أشياء تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتنتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تنفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات الناس فى الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداوة وقوة وضعفاً إنما تأتى من القسم الذى ينفعل للإنسان ، لا من القسم الذى يُفْعَل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر فى الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا فى المادة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة فى المعامل ، فإن أردت أن تكون متقدماً فعليك أن تتعامل مع العناصر التى تنفعل لك ، والأمم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما ينفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيما يُفعل لهم ويسخَّر لصالحهم .

وإن أردنا الارتقاء أكثر فى التحضر . . فعلينا أن نذهب إلى ما يُفْعل ويسخّر لنا ونتعامل معه حتى ينفعل لنا . . كيف ؟ .

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، ونستطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملاً آخر يجعلها تنفعل لنا ، مثلما جئنا بعدسة اسمها « العدسة اللامة » التى تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة فى بؤرة العدسة ؛ فتحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يُفْعَل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثى . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء فى وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة فى مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الأمم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما ينفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما ينفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمنفعل لها ؛ مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاءً مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء فى الحضارة الآن هو أشعة الليزر التى تصنع شبه المعجزات فى دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدى معنى تضخيم الطاقة بواسطةالانبعاث الاستحثاثى ، فكلمة « ليزر » ـ إذن ـ مثلها مثل كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مسمّى .

وترجمة مسمّى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى . ففيه انبعاث تلقائى هو مصدر الطاقة الذى يُفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثاثى فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتفعل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائى متمثل فى الشمس فتعطى ضوءا وحرارة . وعندما جلس العلماء فى المعامل وصمموا العدسة التى تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التى هى تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى ، ولأن العنوان طويل فقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكوّنوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتى عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذى ينفعل للإنسان،واستحثاث واستخدام ما يُفعل له بطريقته التلقائية لينفعل معه كأشعة الشمس مثلا .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن نستوضح آفاق قول الحق : « من كان يريد ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل .

ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق فى الآخرة .

ولذلك يقال:« الدنيا متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحمق أن يوجد طريق يعطى الإنسان جزاءين ثم يقصر همته على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر ؛ فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا بد من العمل لنأخذ الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للاثنين .. الدنيا والآخرة ، إذن فالذى يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هى دار جزاء ، والدنيا هى مطية وطريق وسبيل . فكأن كل عمل يفعله المسلم ويجعل الله فى باله .. فالله يعطيه ثواباً فى الدنيا ، ويعطيه ثواباً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » - إذن - فثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول - مثلاً - حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو الفعل . فالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى الأقوال وإلى الأفعال . ولتوضيح هذا الأمر نقرأ قول الحق :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان فى قوله تعالى : « ولا تحاضون على طعام المسكين » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حضوا غيركم على العطاء . أى أن الذى لا يملك يمكنه أن يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستنفر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون فى القتال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن فى الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فغير القادر يمكنه أن يتكلم بفعل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق : « وكان الله سميعاً بصيراً » فسبحانه يسمع قول مَن لا يستطيع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فثواب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى ، ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب فى حديث قدسى :

(الإخلاص سرّ من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى)[1] .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل فى اختصاص رقيب وعتيد وهما الملكان المختصان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبير بكل شىء وقدير على كل شىء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[2] .

فالعمل يكون بالجوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى نضبط هذه المسألة لنفرق ما بين الفعل والعمل . نقرأ ونفهم هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . ويأتى نوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالمعنى أنه سميع للقول ، وبصير بالفعل .

---

(١) رواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف ، والآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة فى هذا الباب .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلاً : يا أيها الذين آمنوا ، فكأنه يقدم حيثية الحكم الذى يأتى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى قبل أن ينطق بمنطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكمنا بكذا » . إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم . وحيثيات الحكم الذى يحكم به الله هى الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفى أى حكم آخر هى إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالمؤمن يدخل على الإيمان بقمة القِسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل ذى حق حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد .

إن قمة القِسط ـ إذن ـ هى الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القِسط وهو الإيمان ، فليجعل القِسط سائداً فى كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال « كونوا قوّامين بالقسط » أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فنحن نقول : « فلان قائم » و« فلان قوّام » . ونعرف أن كلمة « قوّام » هى صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهى لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله خصلة لازمة فيك ، ولتفعل القسط فى كل أمور حياتك . والقِسط كما علمنا من قبل فى ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الأقساط هى العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك : إن المسألة يسيرة . . فقسط يقسُط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال:« أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن : « القِسط ـ بكسر القاف ـ هو العدل الابتدائى ، لكن الإقساط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاءوا لقاضٍ فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القِسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكَمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ فى التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقساط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقِسط عدل من أول درجة ، والإقساط يعنى أنه كان هناك جور فرُفِع ، لأنه مسبوق بهمزة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شىء مستتر وخفىّ عليهم فأزال ما به من عجمة . وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » والواحد معجم أى يعطى معانى الألفاظ فيزيل خفاءها . وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فأنت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة فى القسط ؛ ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط فى كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفى أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لابد أن تكون الشهادة لله . لماذا ؟.

هب أن رجلاً كافراً بالله ـ والعياذ بالله ـ ويقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل

بذلك العدل فى حيثية الإيمان ، فالذى يدخل فى حيثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفى باله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعةٍ ولا لغايةٍ ولا لهوى ولا لغرضٍ ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قوّاماً بالقسط وفى باله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط وحده لا يكفى ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو كان ملحداً . ونقول : هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوّام بالقسط يجب أن يفعل بقصد امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد فى العادة هو من يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ، والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما فعل ، والإقرار سيد الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضى الدليل الذى يرتب عليه الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة تجر وبالا عليه ، وهذه المعانى من معطيات الإشعاعات القرآنية ؛ فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال فى نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه وبال فى نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان بهذا الذنب . والحق يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو سيأخذون كل شىء ، إننى أنا الموجود المتكفل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين » . وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجح هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من خير ما .

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ؛ لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغنيّ طمعاً في ثرائه ؛ فلماذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدِّث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ؛ لذلك يحذرنا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثراء الثرى أو بفقر الفقير ؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالقهم ـ جل شأنه ـ ولذلك جاء بالحيثية الملجمة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القَيّم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : «آفة الرأى الهوى » . وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحتفظ لنا فى ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له : أعفنى من القضاء ! فقال الخليفة : فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عني أني أحب الرُّطب - أي البلح - وبينما أنا في بيتي وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن تكون النفس في لهفة عليه مادامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للخليفة : فقلت للخدام من جاء به ؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن مَن أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصل في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل عليّ فعرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . أن تلووا في الشهادة والليّ هو التحريف . . أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، فإن الله بما تعملون خبير ، أو أن يُعْرِض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لذلك يقال : إنه خائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ، لهذا فهو يعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوي لسانه بها ، لذلك يقول الحق : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فالذي يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف . فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل ينقسم الآن أمامنا إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ

﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق فى صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : نرى فى بعض الأحيان رجلاً يجرى كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول ، فتكون كلمة الإيمان هى حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً . وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما فى القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد وافقت شهادتهم بألسنتهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهم ، فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم فى شهادتهم ؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هى أن يواطىء اللسانُ القلبَ . وبعض من الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ، لذلك يتخبطون فى الفهم . فهم لا يعرفون صفاء التلقى عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المنافقين لم يكن فى مقولة:إن محمدًا رسول الله،ولكن فى شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله فى قولهم: « نشهد » فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بمزيد من الإيمان ، ولنا فى قول الحق المثل الواضح فى حديثه للنبى ؛ قال الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ ﴾

(سورة الأحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله » ، أى يأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن فمعنى قول الحق : « يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا » أن الحق يخاطبكم بلفظ الإيمان . ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وإلا يترك مؤمن هذا الشرف . فإن رأى واحد منكم منادًى بوصف طُلِبَ منه الوصفُ بعده فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويدبره . ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا تعرف بالعقل ولكن لا بد من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من مجىء رسول للبلاغ .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول لك : إن هناك خلقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن فالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله وبما أنزل عليه .

ويترك الحق سبحانه وتعالى لخلقه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم حُدِّثوا بأن فى الكون كائنات أبلغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم الملائكة . - إذن - فالدليل عندهم يحثهم ويدفعهم إلى الكشف والبحث .

والمثال على ذلك الميكروب الذى لم تعرفه البشرية إلا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وفصائله وأنواعه ، ومازالت الاكتشافات تسعى إلى معرفة الجديد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم فى وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا : إذا حُدثتَ أيها الإنسان من صادق على أن فى الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعليك بالتصديق ؛ فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناسَ أحدٌ بوجود الميكروب فى أثناء ظلام العصور الوسطى لما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشفنا الأشياء التى تضاعف صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعنى أنه غير موجود .

فإذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذى يجرى فى الإنسان مجرى الدم ، فهنا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تهيأت أسباب الرؤية والعلم . فإذا كان الله قد خلق أجناساً من غير جنس مادة الإنسان فلنصدق الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عَلَمٌ عليه ، أما الكتاب الذى أنزل من قبل فلنعرف أن المراد به هو جنس الكتاب . . أى كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « الـ » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هى « الـ » الجنسية . والجنس كما نعلم ـ تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتى بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

(سورة العصر)

نجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « الـ » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . . أى أن اللفظ الذى استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه لفظ عام .

ويطالبنا الحق بالإيمان بالكتاب أى القرآن ؛ فإذا أطلقت كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن ؛ لأن « الـ » هنا (للغلبة) ، مثال ذلك : يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بمزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهى تعنى القرآن ؛ لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلاّ إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذى لا نسخ ولا تبديل له ، فـ « الـ » هنا للكمال أما الكتاب الذى أُنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » أى إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر فى الآية فهو كافر أيضا .

وكان بعض اليهود كعبدالله بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأسد وأسيد ابني كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يامين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فنزلت فآمنوا كلهم[1] .

والخطاب والنداء يشمل أيضا المنافقين . أى يأيها الذين آمنوا فى الظاهرنفاقا ، أخلصوا لله واجعلوا قلوبكم مطابقة لألسنتكم ، فالنداء - إذن - يشمل المؤمنين ليستديموا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول وبكل كتاب ، وهو أيضا للمنافقين ليخلصوا فى إيمانهم حتى تطابق وتوافق قلوبهم ألسنتهم .

إذن فمن يكفر بأى شىء ذكره الله فى هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » و« ضل » أى سار على غير هدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يقال : ضل الطريق ، والذى « ضل ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضَلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضُلاَّل متحدون فى نقطة البداية ، لكنهم فريقان يختلفان ، فأحدهما يسير فى طريق الإيمان وهو منتبه دائماً إلى غايته وهى رضاء الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) الكشاف لجار الله الزمخشرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا في غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما قلوبهم فهى مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يُلَبِّسوا فى المنطق ويُدَلِّسُوا فيه .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذى عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ، بَلْ رُبَّما تمادوا فى الغىّ وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبيّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى ، بدليل أنه أمر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربه . وفى عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التى لم تكن معلومة فى عصره ؟ . .

إن الناس جميعا مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبين أن هذا ليس من عندى ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وهذا كشف محرج ومنطقى لما فى قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً فى أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان فى قلوبهم بالفعل لأن كلمة (لمّا) تفيد نفى الإيمان عنهم فى الزمن الماضى ولكنها تفيد أيضا توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً » أى ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون ، وسيعللون ذلك بأنهم عندما تعمقوا فى المسائل العقدية كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوّنوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر وفي ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير مَن تردّدَ بَيْنَ الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء في قوله : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا في الخيانة العظمى الإيمانية التي يحكمها قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية ـ كما نعلم ـ ترد بمعانٍ متعددة . . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثاني هو المعونة ، أي يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دلهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكأن الله قد دل على المنهج الذي يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمده بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أؤكده دائماً : شرطي المرور الواقف في بداية الطريق الصحراوي . يسأله سائل : ذاهب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطي بالدلالة ، ثم شكر الرجلُ الشرطيَّ وحمد الله على حسن شرح الشرطي ؛ ويحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفاداها . أي أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذي يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه فى شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متأصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير فى مواكب الرسالات من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أى رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصاحبة أو الولد لله ثم يزدادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسماء من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال فى أول الآية : « آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا . ثم كفروا » . وقال فى آخر الآية : « ثم ازدادوا كفرا » أى أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالله لا يمنع الهداية عمن قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه فى هدايته ، أما من ينفض يده من يد الله فلا يبايعه على الإيمان فالله غنى عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل فى ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النساء)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُذَلَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشىء يسر سيأتى زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم ـ كمنافقين ـ مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهى من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائى أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيع وعظيم تحقيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحبا بك يا قزم . هذه هى المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحبا يا مارد . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض لِيُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هى السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتى للأداء البلاغى للمعنى الذى يريده المتكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . ومادمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستتعذبون . والذى ينافق ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هى العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يَأتى له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتى بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال: « بَشِّر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتى مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالنذارة .

وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لابنه : استذكر يا بنى حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر فى اللعب ثم يقول الأب : يابنى لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتى الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ؛ فيقول الأب لابنه : أهنئك لقد رسبت فى الامتحان ! فقوله أهنئك تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقى ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزنا فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذى يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة ـ كما قلنا ـ توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق فى آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء » نفهم أن برداً يأتى لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التى تأتى لهم هى :

﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويتساءل السامع أو القارىء : هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذى يعطى لهم كالمهل يصعِّد الألم فى نفوسهم .

والعذاب ـ كما نعلم ـ يأخذ قوته من المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذِّب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذَّب يتجلد ، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليما أيضا ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلما للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهينا .

ولأن المنافقين والكفار غارقون فى المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافقُ الكافرَ ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية لا بد أن يحدث لغاية تُطلَب منه ، ولا يتجرد الفعل عن

الغاية إلا فى المجنون الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأى غاية ولأى هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يبتغون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم ـ جل شأنه ـ إلى جهلهم ؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فمادموا يبتغون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزّة ؟. العزة مؤخوذة من معنى مادى وهو الصلابة والشدة . فالأرض العَزاز أى الصلبة التى لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شيء شديد فيه عِزّة . والمراد بها هنا : الغلبة والنصر ، وكل هذه المعانى تتضمنها العزة .

فإذا قيل : الله عزيز . . أى أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على مِحاله أو مكره أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل:فلان عزيز أى لا يُغلب ، وإذا قيل:هذا الشيء عزيز أى نادر ، ومادام الشيء نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده ؟. أتطلبونها من نظائركم ؟. وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساوٍ لهم من الأغيار ، فالمنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً ؛ لأن أسباب العزة هى غنى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن الغنىَّ يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفى هذا القول تصويب لطلب العزة . وليطلب كل إنسان العزة إيمانا بالله ؛ فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهى ـ جميعا ـ فى الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ؛ وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يقول الحق : « فإنّ العزة لله جميعا » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهى قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها ـ سبحانه ـ

منه . فما بالنا بالقوة اللانهائية لله ، وكل قوة في الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هي لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم ، وبذلك يحمي الله وحدهُ أهل الإيمان ، ويصونهم من أي تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فمادمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ؛ لأنك إن هادنته كان أعز في نفسك من الإيمان ، ومادمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يَتَهَجَّم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعةً يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون في الإيمان . . فهذا يعني أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان في قلوب

المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أي حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هى إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت فى المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل فى مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً فى البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين فى مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون فى الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسبحانه هنا فى سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو فى الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً فى المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله . وقد نزل فى القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها فليغادروا المكان ، ونلحظ أن الذى نزل فى الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتى السماع فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأنهم يخوضون فى دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يُرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » يوحى أنهم إذا ما خاضوا فى حديث غير الخوض فى آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك فى صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى آنئذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان فى ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل فى الخوض أن تدخل فى مائع . . أى سائل ، مثل الخوض فى المياه أو الطين ، والقصد فى الدخول فى سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض فى مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل بمجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع فى المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان فى طريق رملىّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سَدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصفَ الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال فى الباطل لا ينتهى إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول فى باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا فى مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق فى موقع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ

تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذى أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذى أنزل من قبل التوراة فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون فى باطلهم .

وفى موقع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول فى مائع ، ومادمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وتأتى الكلمة التى ترهب المؤمن وترعبه : « إنكم إذاً مثلهم » أى إنكم إذا قعدتم معهم وهو يخوضون فى آيات الله تكفرون مثلهم ، لأنكم تسمعون الخوض فى الدين بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نواليهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الجلوس معهم فى أثناء الخوض فى الدين يجرئهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أى ساخر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمّن ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفى ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا فى الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجتراء على الدين والخوض بالباطل فى دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتى من أننا نرى من يخوض فى دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم » نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هى أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوض فى دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم » هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن فى منزل ، ويذهب إلى البقال ليشترى منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان فى يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين فى الباطل لو رأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شىء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هى عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلما فى الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ، فلابد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » واستحوذ على الشيء أى حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستحوذ عليكم » يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البيانى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح » أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة « نصيب » أى مجرد شيء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيراً مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثمن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة المسد)

قول الحق سبحانه : « سيصلى ناراً ذات لهب » يدل على أن أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عددٍ من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصلى ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لهب وزوجه أن يقولا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الإخلاص)

فلا أحد سيغير حكم الله ..

إذن فقوله الحق : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة » أى لا معقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم فى الآخرة التى تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب فى الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فنتائج الأسباب تعطيه ؛ لأن مناط الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أنّ الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطىء يُصَحَّحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل ؛ فهذا يعنى أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتلتصق القاعدة فى رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل فى الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذى يظهر اللذعة من استشراء الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذى يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شىء غير طبيعى فى هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا ـ إذن ـ أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكى عن العلامة سيبويه ، وهو من نذكره عندما يلحن أحد بخطأ فى اللغة ؛ فنقول : « أغضب المخطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذى وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب فى عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لحنة فى مجلس ، أى أنه أخطأ فى النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها .
وأصبح مؤلفاً فى النحو .

ومثال آخر : الإمام الشاطبى ـ رضى الله عنه ـ لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً فى النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة فى القراءات فلم يتعرف عليها ، فأقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة ـ أى غلطة ـ هى التى صنعت من سيبويه عالماً فى النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء فى القراءات جعل من الإمام الشاطبى شيخاً للقراء ؛ على الرغم من أن سيبويه كان عالم قراءات ، والشاطبى كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا فى ظاهر الأمر على المؤمنين فى بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية ؛ ففى « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربى الذى تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة ... إلا إذا لم تقتلع أسبابها
لكن إذا جهدت لتطرد شائباً ... فالحمق كل الحمق فيمن عابها

فعندما يقتلع الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك فى أحد ، هم خالفوا فى البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .

فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل فى نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فإن لم يعدّ المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّتهم الكثرة فالنتيجة هى الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يضع فى يقينه هذا القول الربانى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أى شىء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطىء ، لذلك يؤدبه ويربيه ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتى بمدرس ليفعل ذلك ؛ لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجى فلا ينفعل ؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادى . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحيانا على من يرحم .

والشاعر العربى يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يكُ حازما ... فليقس أحيانا على من يرحمُ

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد فى صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذى لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المنزلة فى النفس .

ومن لا نهتم بأمره لا نعطى لسلوكه السيىء بالاً . وساعة نرى أن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن قضية من قضايا الإيمان قد اختلت فى نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظلوا هكذا بل يصفيهم الحق من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن فى قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يمكر إنسان بك ، وهو يعلم أنك تعلم بمكره ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن المكر هو الأمر الذى يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول فى المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومالهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذى يبيته الله لهؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر - إذن - على الخداع ؟

إن الذكى حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعنى مكر به مكراً فيبدى له قولاً وفعلاً ويخفى سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق فى هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

و« خادع » تعنى حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

بين طرفين . وكذلك نقول : شارك فلان فلانا ؛ لأن مادة « فاعل » تحتاج إلى طرفين . لكن عندما نقول « قتل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد . والخداع يبدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذى يُراد خداعه أن خصمه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر . وتسمى العملية كلها « مخادعة » ، ويقال : خادعه فخدعه إذا غلبه وكان أخدع منه . ومن إذن الذى غلب ؟ إن الذى بيّت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى « المخدوع » الأمر بتبييت أكبر ؛ فهو « خادع » ، والذى يغلب نقول عنه : « أخدعه » أى أزال خداعه . والله سبحانه وتعالى عاملهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فالمنافقون أظهروا الإيمان أولاً وأضمروا الكفر ، وأعطاهم الله فى ظاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفى الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ؛ لأنهم سيكونون فى الدرك الأسفل من النار .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » وإياك أيها المسلم أن تشتق من هذه العملية اسما لله وتقول « المخادع » ؛ لأن أسماء الله توقيفية أى لا نسمى الله إلا بالأسماء التى سمّى بها نفسه . وسبحانه يفعل الفعل ، لكن لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطينا هنا « مشاكلة » ليوضح لنا أن المنافقين يمكرون ويبيتون شراً للمؤمنين ، وأنت أيها المسلم تعرف أن الإنسان إنما يبيت الشر على قدر طاقته التى مهما كبرت فهى محدودة بجانب طلاقة قدرة الله . ولذلك يفضح الله هذا الشر المبيت من هؤلاء المنافقين ، وهم حين يمكرون فالله بطلاقة قدرته يمكر بهم أى يبطل مكرهم ويجازيهم على سوء فعلتهم ، ولا نقول : « الله ماكر » . ولله أن يقول فى الفعل المشاكل ما يشاء .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » .

إن الغايات من الأحداث هى التى تضفى على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كنت تحب الحدث الذى تقبل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة . ويقيسون لهفة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة . والشاعر العربى يصف لقاء حبيب بحبيبته :

لقـاء الاثـنـين يـبـين حَـدَّهْ   تلهف كَيْفِ واستـطالـة مُـدَّهْ

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيبين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهما يسرعان باللهفة فيقطعان العشر الخطوات فى ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التى يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ؛ وكذلك المدة التى يحتضن كلاهما الآخر ، هل هى دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذى يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتَيَّمون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم . وفى الحضارة الغربية التى سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفى بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادله هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة ومبسوطة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى . أما إذا ثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى أصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك من الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معا ، ثم ما المدة التى يستغرقها بقاء اليد فى اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلما معاً ـ رجل وامرأة ـ وكأن الكلام قد أخذهما فنسى كل منهما يده فى يد الآخر .

سـلام نـوعـين يـبـين حَـدَّهْ   تلهف كيف واستـطالـة مُـدَّهْ

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً . وكان المنافقون يقومون إلى الصلاة بتثاقل وتكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » كأنهم يؤدون الصلاة كستار يخفون به نفاقهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن قيامهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال ـ رضى الله عنه ـ طالبا منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة »[1] .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهى عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسل . « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم غيرهم وهم يصلون . وفى الصلاة التى يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم فى أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك فى السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففى داخل كل منافق تياران متعارضان . . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذى مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيرا .

وإذا ما حسبنا كم شيئا يجهر به المصلى وكم شيئاً يجريه سراً ، فسنجد أن ما يجريه المصلى سراً فى أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففى الركوع يقول : سبحان ربى العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان ربى الأعلى ، فى كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مَرْئيا ومسموعا من غيره ، هذا هو معنى المراءاة . أما الأعمال والأقوال التى لا تُرَى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُها إلا هذه المراءاة ؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية . ويلفتنا

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إلى هذه القضية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] .

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً فما بالنا بالذى يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه ؟

وعندما يغش واحداً آخر واكتشف الآخر غشه فهو يعاقبه فما بالنا بغش الله ؟! ولذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : « إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ »[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة « يا فاجر » « يا غادر » « يا مرائى » ضل عملك وحبط أجرك فخذ أجرك ممن كنت تعمل له »[٣] .

إذن فالمنافق إنما يخدع نفسه ، هو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس . ويزكى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به ، لكنه لا يعمله لله ، ولذلك قال القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وقال عن لون ثان من نفاقهم :

---

(١) رواه مسلم من حديث جبريل .

(٢) رواه أحمد والبيهقى فى الشعب ، والطبرانى من رواية محمود بن لَبيد عن رافع بن خديج .

(٣) ابن أبى الدنيا وإسناده ضعيف .

﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذى ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر ينزلق من عليه التراب . ومن يرائي المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له .

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين فيقول :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق فى خيط فيأخذه الريح إلى ناحية ليقذفه فى ناحية أخرى لأنه غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت تسمية « الذباب » الذى يذبه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبّ عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذبذبوا أنفسهم أم تلك هى طبيعتهم ؟ ولنتأمل عظمة الحق الذى سوى النفس البشرية ؛ ففى الذات الواحدة آمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان يقى نفسه بأن يجعل الآمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جزءًا من الذات هو الذى طوّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل . فقد خلق الله النفس البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغنيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى النفس الواحدة ؛ لذلك يقول الحق : « قوا أنفسكم » فالنفس تقى النفس ؛ لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول : تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المتاعب فيما بعد .

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى قوله : (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء ، ونازعته نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت المراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين الملكات .

مثال آخر : الغريزة الجنسية تقيم السعار فى النفس ، فيقوم الوعى الإيمانى بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض الناس حتى لا تلغ الناس فى أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناءك فى فراش غيرك ؛ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر وينهى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى الإنسان غريزة إلى أمر آخر ؛ لأنه إن عدى الشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التى تعطى لنا النور فى حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذى وضع القطب الموجب فى مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث نأخذ الضوء الذى نريده أو تعطينا شرارة لنستخدمها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت قفلة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النفس البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن البشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذى يحدث فى المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره الضارة ، وهكذا نرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد غريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصى أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء فى الحديث : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[1] .

فالطعام لبقاء النوع . والإنسان محب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله فى الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع فى التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعايش ملكاته فى ضوء منهج الله معايشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعاندة ، لتعيش كل الملكات فى سلام ، ويؤدى كل جهاز مهمته كما أراد الله .

لكن المنافق يحيا مذبذباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرخى لبعض ملكاته العِنان على حساب ملكات أخرى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يمتاز عن المنافق ـ ظاهرا ـ بأنه منسجم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعلن ذلك ولكنه فى حقيقة الأمر يتصارع مع فطرته التى تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل : وكيف يتساوى الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر مع الذى أعلن الكفر ؟ ونقول : الكافر لم يخدع الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع الفئة المؤمنة

---

(١) من حديث رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهو ليس معها ؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خسيس فى وضعه الإنسانى والرجولى .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » .

والله لا يضل عبداً بشكل مباشر ؛ فسبحانه يُعلم خلقه أولاً بالرسل والمنهج ، لكنه يضل من يصر على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وعماه . صحيح أن فى قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ويزين له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ؛ فسبيل الله واحد وليس هناك سبيلان .

ونذكر هذه الحكاية ؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعى - وهو مؤلف عربى له قيمة كبيرة - يملك أذناً أدبية تميل إلى الأساليب الجميلة من الشعر والنثر ، ووجد الأصمعى إنساناً يقف أمام باب الملتزم بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حاراً « يارب : أنا عاصيك ، ولولا أنى عاصيك لما جئت أطلب منك المغفرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعى بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ؛ وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا فأولى بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

وهذا أمر منطقى يستقيم مع منهج الإيمان ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفى الكفر فى قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه .

الحق سبحانه فى إرساله للرسل وفى تأييد الرسل بالمعجزات وفى إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان فى الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ؛ لذلك لم يترك - سبحانه - الإنسان ليفكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقا للكون . لم يتركنا سبحانه لهذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنبهنى يارب ، والجهل بالقانون فى الشرع البشرى لا يعفى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرما ، لكن الله لا يفعل ذلك ؛ فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذى يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرّة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتقربتم إليهم ونصرتموهم فأنتم أكثر شرا من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسبابه ، وفى أعماقه خيط من الكفر وخيط من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به .

فإن صنعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة فى أن يعذبكم .

« أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين هو السلطان الواضح المحيط الذى لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالمحامى أمام المحاكم . لكن حجة الله هى سلطان مبين . أى لا تنقض أبداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

ولنر دقة التربية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل فى كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتى بلمحة عن المنافقين ثم يأتى بلقطة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفر السامع من وضع المنافق ويحببه فى صفات المؤمن ، وهنا يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً فى نزول . والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول :

« النار دركات كما أن الجنة درجات »[1] .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفى عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس ؛ لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق .

ونستخدم فى الأمر الدقيق ـ أيضا ـ ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذى رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نلقى دلوا من المياه فى الحمام بعد تبليطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يفضح شيئا آخر . والقول المصرى الشائع : « إن الذى يقوم بعمل المحارة هو الذى يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ، فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . والذى يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملأ المناطق غير المستوية فى الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلا . والذى يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هى أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذى يريد أن يغش هو الذى يسرع بتسليم البناء ؛ لأن الغبار الذى يوجد فى الجو يمشى فى خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعا إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التى لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذى يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة النساء)

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التى لا يوجد لها مقوم ذاتى . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائى لهم حتى يناسب ما فعلوه .

وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذى أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكما فهو يضمن بقيوميته ووحدانيته ألا يوجد منازع له فى الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله فى الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن تجد لهم نصيراً » أى أنه حكم مشمول بالنفاذ ، ولن يعدله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلك لأحد ولا مُلك لأحد .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم فى المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه ـ سبحانه ـ أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾

إذن فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائى ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط فى مزيد من الشرور ، لذلك قال : « إلا الذين تابوا » أى تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويُخلص لله نيةً وعملاً . « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » . إذن فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هى التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذى صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين . . أى أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛ لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رءوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يجير أحد على الله ، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذى يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيمانى بالله ، لكن الحق يقول : « وأخلصوا دينهم لله » فلماذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولا . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدى ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدى على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن فقوله الحق : « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص فى التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا فى النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل فى التنعيم وفى نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين . « فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما » .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهريا وشكليا من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها فيقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقا بها فهو لا يأتى بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابى لكم ولا أحقق لذاتى من ورائه شيئا ، فلا استجلب به لى نفعا ولا أدفع به عنى ضرا .

لكنه هنا لا يأتى بهذه القضية كخبر من عنده ، بل يجعل المنافقين يقولونها . مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول واحد لآخر : أنت أهنتنى . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهنك . وأقسم لك أننى ما أهنتك . وقد يضيف : ابغنى شاهداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاهدًا على أن الإهانة المزعومة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً على من يتهمه بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فماذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل فى طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقا من أنه أهان الآخر ، فهو يخاف أن يقيم الآخر دليلا على صحة اتهامه له ، ولكن حين يقول له : وماذا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ . فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب لجماعة كانت ستتعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضى الله شهادتهم ، فكأن هذه لفتة على أن العاصى يستحق العذاب بنص الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطرى فى النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم تجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سببا خاصا بالله ليعذبهم ، فكأن الفطرة الطبيعية قد استيقظت فيهم ؛ لأنهم سيديرون المسألة فى نفوسهم .

وعلى مستوانا نحن البشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليعذب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى غيظ قلبه ، أو ليثأر منه ؛ لأنه قد آلمه فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المواقع . فإذا أدار المنافقون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعذابنا شيئا ، إن شكرنا وآمنا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقيها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فستكون إجابته اقرارا من المقابل . وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالفين . وكأنه سبحانه قد ائتمنهم على هذا الجواب ؛ لأن الجواب أمر فطرى لا مندوحة عنه . وحين يدير الكافر رأسه ليظن بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الظن أبدا .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » . وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شي من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شيء من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعتبر النفع والضرر عائدين على خلق الله لا على الله ـ سبحانه ـ .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالمسألة التى يريدها الحق ، لا يريدها لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الخلق موجود وبكل صفات الكمال له ، وبصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يزيد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنقص المخيط إذا أدخل البحر . . »[1] .

---

(١) رواه مسلم وأبو عوانه وابن حبان والحاكم عن أبى ذر .

إذن فالطاعة بالنسبة لله والمعصية بالنسبة لله ، إنما لشيء يعود على خلق الله .
ولننظر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذى خلق خلقا ثم حمى الخلق من الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوق مثله فهو طائع لله ، ويحبه الله لأنه أحسن إلى صنعة الله .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » فإن تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل الله بعذابكم شيئا . أى فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفراده مع بعضهم بعضاً ، وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء ونماء وتعايش . ونعلم أن لكل إنسان سمة وموهبة ، وهذه الموهبة يريدها المجتمع .

فمن الجائز أن يكون لإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها بناء ، وصاحب الأرض ليس مفترضا فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم البناء ورسومه ، وليس مفترضا فيه أن يتقن حرفة البناء ليبنى البيت ، وكذلك ليس مفروضا فيه أن يتعلم حرفة الطلاء والكهرباء وغيرهما .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلباب أن يتعلم جز الصوف من الغنم أو غزل القطن وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياكته من بعد ذلك ، لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فلكل إنسان عمل ينفع الناس به حتى يتحقق الاستطراق النفعى ، ولأن كلا منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمى فى الحياة . لا أن يكون العراك هو أساس كل شيء ؛ لأن العراك يضعف القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعاندة ، ولذلك قال : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . أما إن لم تشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود على الله بشيء .

ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر : هو إسداء ثناء إلى المنعم ممن نالته نعمتهُ ، فتوجيه الشكر يعنى أن تقول لمن أسدى لك معروفا : « كثر خيرك » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذى يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون منظما ، ولم يقل له أحد أى شيء عن أى دين أو خالق . ألا تهفو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراف إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتى رسول ، فالرسول يقول للإنسان : أنت تبحث عن القوة التى صنعت لك كل هذا الكون الذى يحيط بك ، إن اسمها الله ، ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولا ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالى ، والإيمان عرفان تفصيلى . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله واهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لنضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت اشتريت لابنك بعضا من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد ان استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتى باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن فأنت تأتى لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليملأ وقت فراغه ، وهذا يعنى أن الضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، وتضعها فى مكانها وقت أن تذاكر ، فكل شيء هنا فى هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعنى إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأى شيء غيرها فى المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شيء فى المنزل فلا بد من أن يكسر شيئا ، فلا مجال للعب فى التليفزيون أو فى الساعة أو الثلاجة أو الغسالة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة .

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يُجد به . وأشياء الجد لا توجد إلا عند طلبها فقط ؛ فالغسالة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا نستخدمها إلا لحظة أن نرغب فى معرفة الوقت . والثلاجة لا نفتحها إلا ساعة

تريد أن تستخرج شيئا تأكله أو تشربه ، والوالد يأتى للابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التى يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التى لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعمالها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرقب الوالد ابنه ، ويجده منفذا للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظا عليها . وإن لم يُعَلِّم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه .

وحين يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويسعد به . وعندما تخرج لعبة جديدة فى السوق فالأب الراضى عن ابنه يشترى له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأمونا ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضا كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن . وينشأ عن هذا الرضاء أن يشترى الأب لعبا جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث فى العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخلوقان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى الذى أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله ، فالله شاكر وعليم ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة . فالله شاكر بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة فى مجالها فلا تتعدى نعمة جادة على نعمة هازلة ، ولا نعمة هازلة على نعمة جادة ، فالله يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات للكل حتى الكافر . ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهى أشياء تسعد البشر .

إذن فمعنى أن الله شاكر . . أى أنه سبحانه وتعالى راض . ويثيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكليا ، مثل الطفل الذى يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفى الأب من أمام عينى الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذى لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكر ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمى آذان المجتمع الإيمانى من « قالات السوء » . . أى من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذى لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به ، ونجد الطفل الذى نشأ فى بيت مهذب لا ينطق ألفاظا قبيحة ، وبعد ذلك تجىء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت فى بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هى بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما ، بمعنى أن الطفل الإنجليزى لو نشأ فى بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلا عربيا ووضعناه فى بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى المجتمع الإيمانى من قالات السوء التى تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء فى آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذى نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت فى الحق مثلا فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يبتدىء إنسان آخر بسباب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبابا . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى الأذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟. لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربى يقول : « من استُغضِب ولم يغضب فهو حمار » ؛ لأن الذى يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه ـ سبحانه ـ يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظُلِم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتفور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر ؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به فى حدوده المنفثة عن غيظ القلوب ؛ لأنى لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء »[1] .

أى أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجيد على النفس الفاعلة ؛ تماماً كما يفك إنسان صماماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يحتاط الناس فى تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذى وقع عليه لاستشرى الظلم فى عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد فى فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ؛ لأن الذى ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا فى الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم ، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفى الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيمانى . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسانُ الطموحَ الإيمانى فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق فى يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسرا وإكراها عليه ؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة فى يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ؛ لأن المبادىء

(١) رواه البيهقى فى الشعب ، والترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله (توقد) . ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألاّ تجهر بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزى ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه فى الخلق ، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى إنساناً خيراً منه فى شىء . وعندما يرى الظَّالمُ أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر فى نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمانى : « ادفع بالتى هى أحسن » جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً ؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحيته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكل . وهكذا ينمى الحق الأريحية الإيمانية فى النفس البشرية ؛ لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتى هى أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل فى سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتى هى أحسن .

قد يكون الذى دفع بالتى هى أحسن قد قال بلهجة من التعالى : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً وليًّا حميًا . لكن إن دفع حقيقة بالتى هى أحسن تواضعاً وسماحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله فى إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشرى المعتدى أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشرى ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشراء الفساد . ويُصعب الحق المسألة فى رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنسانا ضرب إنساناً آخر صفعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفى أى مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن أعتدى بمثل ما اعتدى به على ؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ؛ وبعد أن كنت المعتدَى عليه صرت المعتدِى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التى تنتاب الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع . والعملية النزوعية هى رد الفعل لما تدركه ، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هى :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منع العمل النزوعى ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التى تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه ؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً فى بدنه فأنت تعاونه وتساعده وإن كان عدواً لك . وتتناسى عدواته ؛ فما بالنا بالمصاب فى قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الاحسان إليه كمرحلة أكثر علواً فى الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ ، ومن فينا غير راغب فى حب الله ؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامى يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منى أن أحسن إلى من أساء إلى ؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم ؛ فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شىء مرئى له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو يسىء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدَى عليه . إذن فالإساءة من الآخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضى المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن . وهو السميع العليم بكل شىء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعنى أن المسألة تحتمل الجهر وتحتمل الإخفاء ، فقال : « إن تبدو خيراً » أى إن تظهر الخير ، أو تخفى ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هى المزية الإيمانية ، لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولايزال ؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضى وعن الحاضر وعن المستقبل ؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاض فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذى سخر لك قوى الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بوساطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل فى الاستنباط العقدى عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفتة ليعلم القوة التى سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه - مثلاً - أن هذا البيت بناه الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء ؟» ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس ؟» ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما فى كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟.

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء التافه أو المهم نسبياً فى حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربى الذى اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء فى هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أى صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يبتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفيء ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التى لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفيء ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلا يسيرًا ، والشمس تنير كوناً ووجوداً ، ألا تحتاج الشمس إلى من يفكر فى تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين وبعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هناك من يجلس على كرسى من شجر الجميز . وآخر على كرسي مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريفى أو البدوى يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستخدمها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى فى استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولما ازداد تحضرا استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولما ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » . ولما ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذى يستخدمه ، فنورها يغنى عن أى نور . وفى الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء فى منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التى لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى ـ إذن ـ مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسله ؟ كيف عرفوا ـ إذن ـ أن القوة التى سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتى بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبلغ هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد ـ إذن ـ يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيمانا بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسل : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلى ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإيمان ببلاغ جاء به رسول ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سُبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ولا نجد من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير فى الوجود ، فلو لم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع ـ على سبيل المثال ـ أن يقول لابن من أبنائه : انظر أأشرقت الشمس أم لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها . والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق فى قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقى بالإحصاء الاستقرائى ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و« أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هى الأسماء ، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا فى كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هى « كذا » ، ومن يطعها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نظل تائهين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التى تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة فى نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هى : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فماذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهجا لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئا لمن عبدها ، فإله بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أى قوة غير الله هى عبادة تحمل تكذيبها ، والإيمان بالله لا ينفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الإلهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشرى بوساطة خلق آخر خلقته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء فى صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب فى وجود ضوء فى أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكنا ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ فى الليل فهو يخاف أن يسير فى منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشىء ، لذلك يوقد مصباحاً صغيراً فى قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « الوناسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعدهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق

سبحانه وتعالى الإيمان بالرسل كلهم فى صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولها فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسل كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذى يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا فى الوسائل والمسائل التى تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفى الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايب غير موجودة فى الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات فى كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث فى أمريكا لنراه فى اللحظة نفسها فى مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة فى المجتمع الإنسانى كله ، فتظهر السيئة فى أمريكا أو ألمانيا لنجدها فى مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتى الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتى الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجمع كله ، وهو خير الرسل ، وأمته خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمى الحق كفرهم بالنبي الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبى من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أعدته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصى . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسل . وجاء الرسل فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التى نحن بصددها الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر ـ كما نعلم ـ يقتضى شيئا تستره ، والشىء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هى : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » هم الحمقى ؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فماذا - إذن - يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكان القائمون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون فى كل أمر ، فى القضاء وفى الهندسة وفى كل شيء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية فى الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التى مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم - كما نعلم - المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل فى كل معلومات الأرض هى من هبة السماء . لماذا إذن أخرج البشر وسنُّوا قوانين من وضعهم ؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين فى كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التى كانت تعطى للآلهة ، فيعيش فى وضع مرفَّه هو وأهله ويزداد سمنة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتى إليه أحد فى مسألة فهو يحاول أن يقول الرأى الذى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلغى هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه ؛ ليظل - كرجل كهنوت - على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أى استبدلوا بآيات الله ثمنا قليلا من متاع الدنيا . فأخذوا الشيء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث فى تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هى ما كان يحكم به الكهنة . والذى جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى فى قضية بحكم ، ثم يقضى فى مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هى التى جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسلهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل فى كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبى الخاتم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التى كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس فى الإيمان « بين بين » ، فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآية نجدها فى معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهى فى كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتى الخبر فى الآية التالية :

﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾

و« الكافرون حقاً » مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالذى لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلغه . أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد . « أولئك هم الكافرون حقاً » .

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم فى النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنّة عرضت علىّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت »[1]

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتى المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان فى الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن فى النار . فيأتى المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن فى الجنة التى سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق :

﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ، وأحمد .

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقى .

والمجىء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منها فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتى بالمقابل للكافرين بالله ورسله :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » فى اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » فى

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » . يقول الحق فى هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حُكْمُه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ ﴾

هذا خطأ منهم فى السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون فى مكة أن يجدوا فى القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترافهم بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيرا قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذى نزل ؟ إذن . فالآفة ـ عندهم ـ أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعْدٌ عن الحق وتخبط . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سألهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجدوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخبط .

إذن فالمسألة كلها تنحصر فى رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلابيبهم فى شىء ، انتقلوا إلى شىء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وماداموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق فى الآية نجدهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم ؛ لذلك يقول الحق فى موقع آخر :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق ـ إذن ـ قسم الأمور فى الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون فى مسألة الوحى وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إنى نزّلت ، بل قال : « أنزل علىّ » .

ويقال فى رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحى على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحى لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُنَزِّلُ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصى . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألوك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم بمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثر عليهم مسألة طلبهم لنزول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شىء يأتى من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية فى سورة البقرة :

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أى أنهم يضعون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . وبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم فى آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهلك وإمّا بنار تحرق وإما بريح تدمر « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدرِك بالمُدْرَك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشيء المدْرَك وحيِّزته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشيء المُدْرَك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهى العين محيطة بالله . وحين يحيط المُدرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنسانا ، ولكن لا يستقيم أبدا ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَـٰرَ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومادام الله إلها قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها ففكره لم يقدر عليها . إذن فكل شيء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدركة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا ينقلب مقدوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفى بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن جاوز الحق بهم البحر وعَبره بهم تيسيرا عليهم وتأييداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ؛ لأن المنطق الطبيعى أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحى ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا فى البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً !!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذى آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا

﴿ مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤ ﴾

إذن اجتراؤهم فى البداية كان فى طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهى اتخاذهم العجل إلها . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وينفذوا المطلوب منهم ، وإما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل اقتناعاتهم نتيجة للأمر المادى ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقلنا ادخلوا الباب سجدا » . أى أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادى أيضاً . وكان هذا الباب الذى أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا فى الشام . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوى من « سبت » و« يسبت » أى سكن وهدأ . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أى جعل النوم سكنا لكم وقطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » أى نهاهم الله أن يصطادوا فى يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهى تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » أى أن الأيام التى يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتى لهم الأسماك ، ولذلك يحتالون ويصنعون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بنى إسرائيل . وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا وردُّوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسبحانه يَقْدر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التى قد يكون من الصعب أن تلين لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لنتعلم أن الله لا يمل حتى تملوا أيها البشر . فسبحانه يقول من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التى تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التى أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا ـ تعليلاً لذلك ـ أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أى أن قلوبهم مغلفة مغطاة أى جُعل عليها غلافٌ ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونقول : أهى القلوب خُلقت غلفاً . . أى أن القلوب خلقت مختوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جل وعلا الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق الأعلى ؛ فمقر العقائد مختوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصَّهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقنى الله هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحيثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفى ذلك رد على أى إنسان يقول : « إن الله لا يهدينى » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدى من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال الأكبر على ذلك إبليس الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فبما نقضهم » لأن الفهم السطحى لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائدا على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاغتها مصنوعة ، ولا نملك اللسان العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى الفصيح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش فى زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتلأت آذاننا باللحن ، وصرنا نُعلّم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم . واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ؛ وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فبما نقضهم » ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف فى اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء .

والمتحدّى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فبما نقضهم » هى فى الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و« ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَاجَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « مِن » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول واحد : « ما عندى مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدْرا من المال القليل الذى لا يستأهل أن يسميه مالاً . ولكن إذا قال واحد : « ما عندى من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أى شىء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم » أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب فى ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقض العهد والميثاق له صور متعددة فـ (ما) هنا استفهامية جاءت للتعجيب أى على أيّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولم يقل : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمرا أضربنا عنه . فنحن نقول : جاءنى زيد بل عمرو . أى أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءنى زيد » واستدرك لنفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجىء زيد وأكد مجىء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . كان المقتضى فى الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها ﴾ .

وهكذا نرى عظمة القرآن الذى يأتى بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه ونتدبر كل كلمة منه .

الحق - إذن - يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وبقتلهم للأنبياء بغير حق ؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد . والأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفى آية أخرى قال عنهم :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هى لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤه عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو - كما عرفنا من قبل - « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذى خبأه فى نفسه ، فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذى يَرْغَبُ فى إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول إن هناك كلمة فى القرآن مكررة لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذى لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسل ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فألوان الكفر شتى . والكفر فى الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم فى هذه الآية فالحق يشرحه : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « وبكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال : « فبما نقضهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفى ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأعمال المذكورة لكى يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يترصد لعبيده ، ولا يتصيد ويحتال ليوقعهم فى الكفر ولكن يحنن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » وهنا نجد أنه سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ؛ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون ضمن الأسباب التي فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذي صوره الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهي البتول ؟ .

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شيء : كاذبة ، سارقة ، أو دميمة ، لكن الاتهام في العرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ، وكفرهم بعيسى الذي جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا في المادية حتى إنهم قالوا : (أرنا الله جهرة) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبي لا يعرفون أسبابه : في التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن في لون القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق الشجر في بعض البيئات ، والسلوى طائر يشبه السُّماني ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعونه ولا يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضن علينا .

﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم ـ إذن ـ لا يثقون بما في يد الله ، ويريدون الأمر المادي ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفتة قسرية ، ويأتي بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدي ، والإنسان يأتي إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتي الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كماديين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟ . لقد نقض أمامهم الأساس التقليدى المادى لمجىء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مُسَبِّباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبِّبُ الأسباب وخالقها وهو القادر - وحده - على ايجاد الشىء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشىء من وجود الشيئين ، هذه هى الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشىء من عدم وجود الشيئين وهذه هى الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الأول وعدم وجود الشىء الثانى ، وهذه هى الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الثانى مع عدم وجود الشىء الأول ، وهذه هى الصورة الرابعة .

تلك هى الصور الأربع لوجود شىء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق - وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل ما فى الكون - على نحو واحد ؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبِّب هو المشروط فى الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هى القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينها تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدار أسباب تُوجَد ، بل مسَبِّب يريد أن يُوجِد ، وأراد الحق

أن يكون مجيء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بنى اسرائيل لعلهم يخرجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذى يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم فى استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضى الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا انتظروا إلى أن يجيء عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلاً على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ؛ لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذى فى المهد :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة مريم)

وانبهروا انبهاراً فتت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانهيار ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفى توراتهم أن من يزن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد : (إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبياً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد : « إنى عبدالله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تنسى . وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان فى عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه ؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم ـ الطاهرة بأمر الله ـ بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضى مريم ناصعاً ، عاشت فى المحراب متبتلة لمن خلقها ، لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ؛ لأنه جرح مريم فى عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بنى إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبى المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبى القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناتهم بكيفية مجىء النبى القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التى تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت بـ« كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سراً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدرى ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هى السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهى نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهى التى بُشرت به ـ إيناساً لها ـ عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذى يأتيها بالطعام ودخل عليها المحراب فوجد عندها الرزق وسألها :

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها فى هذا القول نبهت زكريا إلى قضية كانت فى بؤرة شعوره ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت بـ «كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف فى الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقر ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتيا ؛ أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنيا لكثير من قضايا العلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتيا . ويثبت العلم الحديث أن العظام هى آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التى فى جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين فى المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال فى المثل

العربي : سنة أذابت الشحم ، وسنة أفنت اللحم ، وسنة محت العظم .

فكأن البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هي التي جاءت على لسان سيدنا زكريا : (قال رب إني وهن العظم مني) . فآخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذي يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يغذي المخ ، وهو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الجسم ، وتعمل كل جارحة في خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره في خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شيء يتم تعويضه .

ولذلك يحاولون - الآن - تعريف الموت طبياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان في أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده في الجذور . وإن لم تجد الجذور مياها تذيب بها العناصر في الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا مجيء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكأن مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقت بها مريم وتمت تجربتها في سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعنى أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هى هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا فى هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطا أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام فى مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بنى إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجىء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان فى مريم التى اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً فى رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه فى النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى فى الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهى بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبيّن من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحواريين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات فى كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى باب فى باب ، وفى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة وكوّة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القومُ « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحي أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشي ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآننا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث فى هذا الأمر لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك فى أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه فى زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات فى تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ ـ مبدأ وجود بشر فى السماء ـ قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لا يزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون فى المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأ ، سواء صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك فى هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآنى :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى

﴿ بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ① ﴾

(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً مّن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »[1] .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل في خواطرنا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و« رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضي الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضي الجمع فقط كقولنا : « جاءني زيد وعمرو » ، هذا يعني أن زيداً جاء مع عمرو . أو أن زيداً جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ« الواو » لا تقتضي الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءني زيد فعمرو » فزيد هو الذي جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضي الترتيب ، أما « الواو » فتأتي لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إني متوفيك ورافعك إليّ » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفي قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل في القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدم جداً في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

الموكب الرسالى وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب فى الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض فى البنية ، ويموتِ حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلىّ وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أىُّ نقضٍ لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعنى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن - كما عرفنا من قبل - نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق فى كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال : « وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هى اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين ـ كما نعلم ـ هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هى : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هى جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النار وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ، لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

و« إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علىّ كظهر أمى » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . و« إن » فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا الآن عنها هى « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت .. فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمَّر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمَّر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمَّر . ذلك أن كلمة « معمَّر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيها ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود فى مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون فى ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجبُ أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام فى هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله فى خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون فى هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجيبة خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدقون العجيبة فى مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون فى نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجاً به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى ثم ينزل إلى الأرض وهو حى ليس عجيبة .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف فى المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحى لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث ـ الأب والابن وروح القدس ـ ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشرًا وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير فى قوله: « إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود فى « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أنى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى ـ عليه السلام ـ بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ . لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتتردد فى الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شىء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبَه ؟ لا ، لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فيسمع صوتَ الحق فى تلك اللحظة :

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله فى الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا فى الإسلام .

وتستمر الحيثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق فى قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟. الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبنى إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلَّل ؛ فالمحرم قليل ، وبقية ما لم يذكره الله إنما يدخل فى نطاق الحلال .

مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(سورة الأنعام)

يورد الحق هنا المحرمات وهى أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التى لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة فى مجالها .

فإذا قال إنسان : حرم الله هذا الشىء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . ـ ولله المثل الأعلى ـ نرى المسئول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لوناً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟ . لقد جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجترأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذى أسرف على نفسه فى تناول محرمات كالخمر ـ مثلاً ـ يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ كبدك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه فى تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقك . وعطلت فى جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهى المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائهما ، ولكنها محرمة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللته لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالى من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرفت على نفسك فى أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمنا ما أحل لك .

وعندما نرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التى هى حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف فى استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان فى الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا تريدون المال ؟. أتريدون المال لذات المال ؛ أم لهدف آخر ؟. صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ؛ لأنه يُشترى به الأشياء التى ينتفع بها الإنسان ، وهى الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب فى مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء فى تلك الحالة أغلى من الذهب . والذى يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟. سبحانه يمحق ذلك المال ويُذهبه فى كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتى أجله فعليه ألا يبيح لنفسه أى شىء

حرمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القائل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان - إذن - هو الذى يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أُحلت لهم . ومن الذى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشيء أو حكم الشيء ؟ . لقد نقل حكم الشيء ، فجعل الشيء الحرام شيئاً حلالاً . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله ؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور تجعلهم في ناحية الضلال وفى جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحابَ وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحملوا أوزار إضلال غيرهم .

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فيتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق فى تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل لمال الناس بالباطل ؛ وكذلك السرقة ، والغش فى السلع ، كل ذلك أخذ مال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قدّر إيمانه ، ومقعد من النار إن قدّر كفره ، ولا مجال للظن بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنين)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده فى الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذى أعده للكافر ؛ فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعدٌ فى الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه ، وهو مهين أيضا أى أن فى قدرته قهر أى إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على الجلَد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ . ألم يوجد فى أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقله ، ويبحث فى القضايا والسمات التى جاءت مبشرةٌ به صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين فى العلم فيقول :

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

﴿ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذى سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذى أدار مسألة الإيمان برسول الله فى رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت .

فقال لرسول الله : إنى أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه ؛ كذلك الراسخون فى العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ فى العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائى فى اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق: « بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوبى سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتى من قول الحق : « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بـ« كسر الإعراب » ؛ لأن الإعراب يقتضى حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التى نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنتبه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربي لحناً في اللغة فهو يفزع . وكلنا يعرف قصة العربي الذى سمع خليفة من الخلفاء يخطب ، فلحن الخليفة لحنة فصرّ الأعرابي أذنيه ، أى جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصبهما ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنة أخرى ، فهب الأعرابي واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابي : أشهد أنك وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن يقول : « أنت لا تستحق أن تكون فى هذه المكانة » .

وعندما تأتى آية فى الكتاب الذى يتحدى الفصحاء وفيها كسر فى الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ فى كسر الإعراب الذى يلفت به الحق كل نفس إلى استحضار الوعى بهذه القضية التى يجب أن يقف الذهن عندها : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العماد الأساسى فى أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن يقولها المسلم مرة واحدة فى العمر ، والصوم شهر فى العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسى للدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام ـ كما نعلم ـ خمسة وهى واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : « والمقيمين الصلاة » . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يودُّون الله شهراً فى السنة بالصيام ، أو يودُّون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يودون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يودُّ المؤمن ربَّه كل يوم خمس مرات ، هى ـ إذن ـ إعلان دائم للولاء



لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول: « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نزكى بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ؛ والإنسان حين يصلى يُزكى بالوقت . والإنسان حين يصلى بصوم عن كل المحللات له ؛ ففى الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام فى كل صلاة فكأنه فى حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيمين الصلاة » إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح .- فهى منصوبة على الاختصاص- ويخص به الحق المقيمين الصلاة ؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء فى أى حال من أحوال المسلم ولا فى أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان - كما نعلم - بين قوسين : القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثانى : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التى نصير إليها وهى اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاءً لهؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ؛ لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليُبيّن صدق القرآن فى أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء فى التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

﴿ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتى بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إننى » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد فى موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفى موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتنزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يُجلى مواقع الصفات من الكون الذى نعيش فيه . والكون الذى نعيش فيه يمتلىء بالكائنات التى تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لتهيىء للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتى إلى الكون ليجد نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذى طرأ على كون الله .

هذا الكون الذى صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شىء فى مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحق ، يقول سبحانه : « إنا » أو « نحن » . وعندما يأتى الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إنى أنا الله » . ولا تأتى فى هذه الحالة « إنا » ولا تأتى « نحن » .

والحق هنا يقول : « إنَّا أوحينا إليك » أى أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً فى

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضى علماً وحكمة وقدرة ورحمة ؛ لذلك فالوحى يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

هو الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا ، لأن الماء إنما يتبخر دون أن يدرى الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ؛ لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ويأتى من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون فى نعمه بالعقول التى خلقها لهم ، فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر ورى وذلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآنى حين يأتى بـ « إنى » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتى بـ « إنّا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهاريةً ورحمانيةً ؛ لذلك لا بد من ضميرالتعظيم الذى يقول فيه النحويون : إن « نحن » و« نا » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذى لمحوا جلال الله فى ذاته وجماله فى صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة .٠. تعالى جلالاً أن يُحاط بذاته
إذا قال « إنى » ذاك وحدة قدسه .٠. وإن قال « إنّا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتى بنون التعظيم لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ؛ ولكنّ هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة.فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضنّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكأنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركّباً من موجود في مواده . فأخذوا من مواد خلقها الله فركّبوا وأوجدوا . والإنسان الذى صنع كوب الماء لم ينشىء الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » فى الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود فى بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذى يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذى يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التى تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله ؛ أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ؛ فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لتستقر ثابتة فى الأذهان - يجمد الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً فى حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعا معاً وينشئا أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بسرّ الحياة فى كل شيء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء فى الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم فى اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أتستطيع أن تجعل فى أذنك آلة تقول « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتذوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لى بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد بالحياة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شيء تفعل ولا بأى شيء تنفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع ، لذلك لا يأمرك الحق بألا تسمع أى شيء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تتسمّع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يصم أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يتسمّع بألاّ يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسيروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفى عنا ، وكل شيء فى الكون وإن كان ظاهره أنه « يفعل » ، لكنه فى الحقيقة هو مقهور لما ينفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شيء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة

الفاعلة . ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطي قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول لضعيف : خذ قدراً من قوتي لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعال إلى أعطك من مطلق قدرتي قدراً من القوة لتفعل .

إذن القوة في المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطي أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتي آخر قويّ ليحمله عنه ، والقوى بفعله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشيء الثقيل .

والله لا يعدي أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطي قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غني وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، وبقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا في « إنا » .

وحين يتكلم الحق قائلا : « أوحينا » فهو سبحانه يأتي بصيغة الجمع . وما الوحي ؟ قال العلماء الوحي : إعلام بخفاء ؛ لأن وسائل الإعلام شتى ، ووسائل الإعلام هي التي تنقل قولاً يقوله المبلِّغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائي . وهذه إعلامات ليست بخفاء . بل بوضوح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعني أنه قد أعلم ، ولكن بطريق خفي . وحين تطلق كلمة « وحي » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحي . لكن من الذي أوحى في خفاء ؟ ومن الذي أوحى إليه في خفاء ؟ وما الذي أوحى به في خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهي الجماد :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾

(سورة الزلزلة)

أي أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتتحدث عندئذ

ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقدر العمر الافتراضى لما نصنع لينتهى فى وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجماد وهى الأرض .

ويترك لنا سبحانه فى صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ فى الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس فى الوقت المحدد ، كأن الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : فى الوقت المحدد ستنفجرين بحكم تكوينى لك . ويوحى الحق إلى جنس الحيوان :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله فى تكوينها الغرزى ما يؤدى إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزى والتكوين الاختيارى ؛ فالتكوين الغرزى يسير بنظام آلى لا يعدل عنه ، أما التكوين الاختيارى فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلى المسمى العقل الإلكترونى ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلى لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلى .

ويختلف الوضع فى العقل البشرى الذى يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلى بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعى فيما يجب أن يُستر وفيما لا يجب ستره ، بل إن العقل البشرى قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلى المسمى بعقل إليكترونى لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلى بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقى الإنسان فى الفكر .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التى

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البديلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم قهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتنمو بالتسخير الغرسى الذى وضعه الله فيها ، وتمتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص - بتسخير الله لها - بعض العناصر المحددة فى التربة ، وينتفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقل دراسات نمو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية - كما نعرفها - هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطراقاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى غاب الله عن بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهى أن النبات ينتقى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

(سورة الأعلى)

فسبحانه الذى قدر فهدى كل شىء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نبات بخاصية تكوين غريزى تختلف عن النبات الآخر ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه تختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعى . ونقول : لماذا لا تقول الانتخاب الإلهى وتستريح ؟ .

إذن فالوحى هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً فى تكوين الشىء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يدق جرس المنبه فى الميعاد المحدد . والوحى إلى الحيوان يتحدد فى قوله الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكى الذى رصد حياته لدراسة النحل فى أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان فى الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان فى الخلايا التى عثر عليها فى الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله فى الشجر العالى الذى لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التى جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبى ، وخرج بالنتيجة نفسها التى جاء بها القرآن . وفى كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحى بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحي إليها . لكن الأمر قد استقر فى ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحي لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان يجده الإنسان فى نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذى يصدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟! لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كقضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيحاء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاحمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون . وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحى للحواريين . يقول الله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحى للملائكة كقول الحق :

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحى ينتظم ويشمل ـ إذن ـ كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفى

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحواريين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينبهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحى هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحى من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحى إلى الجماد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الوحى فإننا نقول :

الوحى فى اللغة إعلام بخفاء من أىّ ـ سواء أكان من الله أم من الشياطين ـ ولأىّ ما ـ سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان ـ وفى أىّ ـ سواء فى خير أو شر ـ .

وكلمة « وحى » تصلح لأى معنى من هذه المعانى بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هى بالمعنى الشرعى لا تطلق إلا على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوى الدعاء ، وهناك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هى الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .

وفى هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ . أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلى بغير وضوء ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل علىٌّ عمر : ما يغضبك يا أمير المؤمنين ؟. قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا . فقال على ـ كرم الله وجهه ـ : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصلى بغير وضوء على النبى صلى الله عليه وسلم ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل لأفرق بين المعانى الشرعية والمعانى اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحى الاصطلاحى والمعنى اللغوى ، المعنى اللغوى للوحى هو : إعلام بخفاء من أىّ لأىّ بأى . والوحى بمعناه الشرعى : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحى نأخذها بالمعنى اللغوى .

وقوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصددها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و« أوحينا » هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هى صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك يأتى الحق بنورانيِّين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فالمسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحى ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحى من ملك تحدث له هِزّة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحى :

(حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم)[1].

وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجه خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من المَلَك .

لكن أتظل هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحى يَفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل فى الحركة حتى إذا جاءه الوحى وهو على دابة فهى تئط وتئن ، وإن جاءه الوحى وهو جالس وفخذه على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجل ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول فى أثناء الوحى ؛ لأن تغييراً كيماوياً يحدث فى بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذى يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

---

(١) رواه البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين .

لقد كان للوحى صلصلة كصلصلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحى قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحى يفتر عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحى بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب . وعندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وجفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلاّ فى هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحى يفتر ، حتى تبقى حلاوة ما يوحَى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يُوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادى البشرى ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير فى الشوك والوحل ولا يبالى . إذن ففتور الوحى كان لتربية الشوق فى نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحى ، ولينتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن ما سيأتى لك من بعد ذلك سيسرك . ويقول الحق بعدها :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وحين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد - كما يقولون - قد جفاه ، لا ، بل يعده ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الضحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهى محل الحركة

والكدح والجهد والجد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : إنكم إن نظرتم فى آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتور الوحى هو سكون ليعاود محمد نشاطه فى حركة الوحى الجديدة ، هو الحق ـ سبحانه ـ يقسم : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » أيجىء الليل بعد النهار ضن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وأنزل سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حينما سأل اليهود النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلىّ كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتم فى وحى الله لموسى ؟ أشككتم فى وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتم فى مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذى تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأنت يا محمد لست بدعاً فى هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ويمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لآدم من قبل ، لكنّ هناك فارق بين الوحى لآدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لآدم وقال له : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمَن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ وإرسال الهدى لآدم هو مجىء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح فى هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد

طرأ على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم » . لماذا قال الحق : « والنبيين من بعده » أى من بعد نوح ؟، ولماذا قال : « وأوحينا إلى إبراهيم » وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ، وكأن الحق يقول : حين يسألك اليهود - يا محمد - أن تنزل عليهم كتابا من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلىَّ كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ؛ فلست بدعا من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتابا فى قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر مبين ، كما قال :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمنكِر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً فى حق وإنما هى لجاج فى باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ونلحظ أنه جل وعلا ذكر الوحى عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسمَ كتابِه « الزبور » ولم يأت فى الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تُجمع عليه كل الشرائع ، وهو تمجيد الله والثناء عليه فلم توجد فى الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام فى الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويَعْتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البئر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينهال التراب من جوانبها عليه فتطمر البئر ؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة . وفى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البئر » تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطىء الناس فى بعض الأحيان فى فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله فى الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان

بهم تفصيلا فحسب ، فكما علمونا فى الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفى سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن خمسة وعشرون رسولاً ذكرهم الله ، لكن الآية التى تسبق الآية التى نحن بصددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل فى سورة الأنعام وبعضهم فى سورة هود وبعضهم فى سورة الشعراء . ويقول الحق :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الخمسة والعشرين رسولاً ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أممهم لها كثافة أو حيز واسع أو لرسلهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً فى انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز فى السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولاً إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلى أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث فى أسرار الكون سيبتكرون وسائل الالتقاء ؛ ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشىء يحدث فى الشرق فيعلمه الغرب فى اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح فى العالم كله داءات واحدة ؛ لذلك كان ولابد أن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل فى الأحداث للرسول ، بل تأتى الأحداث فى السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أزلاً أن خلقه سيبتكرون فناً اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتقان فن القص ،

ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتى الحق ليوضح لنا أن القص الخاص بالرسل وبغيرهم فى القرآن قصص واقعى ، حقيقى ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أى أن نسير مع القدم كما تَذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء فى القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقه ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدحم فى بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرق بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه فى بؤرة الشعور حتى لا يُدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتى واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فنحن فى القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذى يروى لنا ما يعلمنا . وسبحانه علم أزلاً ما سيدور فى كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن أحسن القصص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت داءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم ـ موكولٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كُل المجتمعات والرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

إذن فكلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التي كانت مع كل الرسل . والتاريخ - كما نعلم - هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرَّخ له ، ثم نأتي بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعني أننا جعلنا الشخص هو محور الكلام ؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أرخنا للحدث ، نجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما نأتي لنتكلم عن حدث الهجرة ؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروى كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هي المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروى سيرة من السير ، مثل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبي صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروى كيف دارت الأحداث في حياته .

إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هي المحور ونلتقط الأحداث التي مرت عليهم ؛ لأن الرسالات حين تأتي الناسَ بمنهج السماء ؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظري يريد الحق أن يعلمه لخلقه بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمي ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملي ؛ لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم - أيضا - بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا في محور « افعل » و« لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاوموا ذلك . ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل . والقصد من العلم به هو العمل به ، أى توظيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوّع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . وتجيء الأحكام دائماً فى طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هى قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة فلان . فالقصص يعطينا الجانب العملى المطلوب للمنهج ، ولذلك قصّ لنا الحق قصص الرسل فى القرآن . ويبلغنا الحق بالنسب الإيمانى ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسَخِر قومُه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهى بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويقول الحق :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ؛ ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد :

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَآءِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن - إذن - أمام لقطة قصصية فى قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبى هو الذى يكون من نسبه . ومن لا يتبع النبى فليس من نسبة ؛ لذلك قال الحق : (يا نوح إنه ليس من أهلك) . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسى :

(سلمان منا أهل البيت)[1] .

ولم يقل : إن سلمان عربى ، أو إنه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك فى قصة ابن نوح : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) .

وخاض فى معنى « ليس من أهلك » بعض الخائضين باللغو وقالوا : إن أم ابن نوح قد فعلت السوء ، ولهؤلاء نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حيثية الحكم :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إذن فنسبة الأبناء للآباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو إنجاب ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق

(١) رواه الحاكم فى المستدرك . والطبرانى فى الكبير عن عمرو بن عوف .

سبحانه منزه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك ـ معاذالله ـ فما ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البنوة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولننظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقذوا أنفسكم من النار حتى انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقذي نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها)[1] .

ويضرب الله المثل في الزوجات ؛ فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ؛ لكن لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر زوجه وامرأته على عقيدة ؛ فهي تملك حرية الاعتقاد ؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ؛ كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

هذه اللقطات تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . فالابن هو العمل الصالح ، والحيثية في ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج في أذهان الناس . ويأتي الله بالمثل في

---

(١) رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأدب والترمذي في التفسير والنسائي في الوصايا .

المصطفَيْنَ الأخيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذى يبتليه - سبحانه - فى أول حياته بالإحراق فى النار . كان إبراهيم شاباً ممتلىء بالأمل فى الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق نجاة إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه فى قلب النار . لم تمطر السماء لتطفىء النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملاً لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تمطر السماء ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

(روى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى . فقال الله : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)[1] .

وفى هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق فى القصص القرآنى المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس ؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا فى حياتنا .

وقد ابتلى الحق إبراهيم فى أول حياته فى نفسه ، وابتلاه فى أخريات حياته فى ابنه ، ونجح إبراهيم فى الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شىء ، وحين يتقدم فى السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله فى ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيموت وعليك بالصبر . ولم يقل له : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر ؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفث فى القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكا يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى

(١) تفسير القرطبى وذكر نحوه ابن كثير فى تفسيره والزمخشرى فى الكشاف .

أذبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها فى المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هى مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له ؟ .

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امتثالا لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أى أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآتى من السماء ؛ والشأن فى حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد مماته ، لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان فى الزمان الأبقى والزمان الأخلد فى الدار الآخرة ؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال فى التسليم لله . . ففى البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف فى التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان فى الاختبار ، فقال الحق :

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد القضاء على نفوسهم هم الذين لا يرضون به . وأتحدى أى إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه المرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده !! أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟)[1] .

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معيةالله لاستحى أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لى » .

وقول الحق : (فلما أسلما وتله للجبين) هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تحن ولم تأت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُفْد إسماعيل فقط بذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق :

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وها هى ذى لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآنى مع سيدنا موسى ؛ لنتبين ماذا يصنع المنهج الإيمانى فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة فى وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبى هريرة رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر.

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاتين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينهما من حوار ؟. وكيف كانت رؤيته لهما أولاً :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القصص)

وفى قول المرأتين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » قدر من المبادىء فخروجهما من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنهما فى ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أنثى يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى أنهما ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة فى حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزاحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى ؟. (فسقى لهما) .

تلك الهمة الإيمانية التى وُجدت فى موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟.

كأن الهمة الإيمانية التى وصَفتها تلك اللقطة القصصية توقظ مسئولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأةً قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمته وينال من مروءته . ولو انتشرت بيننا تلك الهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة فى الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من الستر ، فتقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كأن المرأة لا يحل لها أن تتحرك فى الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلا وعنده ابنتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيستدعى موسى ويقول له :

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة القصص)

وفى مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومُحَرَّماً على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنتعلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق ليجعله رسولاً ، ولنر صفاء النفس الإيمانية وهى تتلقى مهمة الرسالة ؛ إن موسى يرغب فى أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً ؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون :

﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح فى دعوته لأن لسانه ثقيل لرتة ولثغة وتردد فى النطق من أثر الجمرة التى أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل فى أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأكْفاء ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية فى القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للأمة المحمدية دقة المنهج الإيمانى ، فمادام قد أرسل لنا منهجاً لنعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه فى حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود فى قصص الرسل الذين عَلِموا المنهج فطبقوه فى ذواتهم أولاً ؛ لأن الآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه .

وفى زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الدينى فى المدارس لا يأتى بثمار طيبة فى سلوك

الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الدينى ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق فى المجال الهندسى ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه فى الحياة بأن ترشده فى السلوك اليومى : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل فى حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الدينى ، ولا يفعل الأشياء المنهى عنها . والصعب فى التعليم الدينى هو التطبيق العملى . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملى من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رائجة فى المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصلى أمامه أو يجد من يصلى ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن المنكر ، إذن ففشل التعليم الدينى لا يأتى من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملى للسلوك الدينى .

ونعود للقصص القرآنى . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظرى من الدين ، وطبَّقهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

هذا هو معنى قوله الحق : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبى . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبى ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأى : لو نظرنا إلى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى أيضاً مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما ـ النبى والرسول ـ مرسل
من عندالله ، لكنْ يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا
التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة فى الرسالة السابقة عليه ، وبين أ
يأتى إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة ، فالأنبياء ق
أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لك
الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد
مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكون
الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتى إ
فى الأمم التى لها سجل فى المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بنى إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء
صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأ
لتشفى الناس مما بهم من داءات ؛ فعندما نقول عن إنسان إنّه أكثر الناس تردداً ع
الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة
وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم .

إذن فالرسول والنبى كلاهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سماو
ليبلغه ويطبقه ، والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً ؛ ف
الموحى إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذيل الحق الآية : « وكلم الله موس
تكليماً » ، ولاشك أن موسى كان من هؤلاء النبيين الذين شملهم قوله الحق : «
أوحينا » . ولسائل أن يسأل فيقول : ولماذا خص الله موسى بقوله : « وكلم ا
موسى تكليماً » ؟ .

ونقول : الوحى الذى يوحى الله به لأنبيائه هو الوحى الاصطلاحى الشر
الذى نتكلم عنه دون الوحى اللغوى الذى سبق أن أفضنا فيه . والحق سبح
وتعالى قد بين الطريقة التى يخاطب بها أنبياءه المصطفين لأداء رسالتهم إلى خلقه
فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ؛ إما أن تكون بالوحى ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحى ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحى خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل فى إطار الوحى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .

أى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقذفا فى القلب ، أو يكلمهُ « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحى بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقين ، أولاً : بالطريق الذى أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذى بدأ به موسى بالوادى المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ . لأن مطلق الوحى بأى وسيلة سماه الله كلاماً . إذن فالنفخ فى الرُّوع كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحى كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحى فى صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

والخفاء فى الوحى إما أن يكون خفاء فى الأسلوب ، أى لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام فى رُوع الرسول وقلبه وهو يؤدى مؤدى الكلام أى الدلالة على ما فى نفس المتكلم الذى يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو
يرسل الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : « وكلم الله موسى
تكليماً » إنما ينبهنا إلى أن الوحى لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق فى قوله :
وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ؛ لأن
لله قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليما » .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن ؟ . ونقول : إن كل
صف لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذه بالنسبة لله فى إطار : (ليس كمثله شىء) فإن
لت : إن لله وجوداً وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن
لنا : إن لله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن
ه قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن لله
ستواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسى ، فاستواء الله ليس كاستواء
لإنسان . إذن فلابد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثلها فى البشر فى
طار قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى) .

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ،
ل نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » وكذلك وجه الله . ومادمنا نأخذ صفات الله
ى إطار « ليس كمثله شىء » فلا داعى للمعركة الطاحنة بين العلماء فى الصفات وفى
أويل الصفات ، ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤوّل الصفات وعالم لا يؤول ؛
' داعى أن يقول عالم : إن يد الله هى قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول :
' . إن لله يداً ويسكت . ونقول للعالم الذى لا يؤول : قل : إن لله يداً وهى
ناسب قوله : « ليس كمثله شىء » . وإذا كنا نحن قد عرفنا فى عالمنا أن الأشياء
فتلف مواجيدها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثيل
ه .

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عمدة قرية ما ، فيقدم له ألوان

طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العمدة فى قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان فى البشر يوجد الشىء الواحد وهو ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق ؟! « ليس كمثله شىء » .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً فى قصة الوادى عندما آنس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدأه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحى على طريقة مجىء الوحى للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شتى ألوان الوحى . فقد جاء الوحى لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحى لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحى لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحى إلهاماً هو الحديث القدسى ، وكذلك التشريع النبوى الذى تركه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثال الوحى من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل فى نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعى

للخوض فى أمر لم يخبرنا الله عن كيفيته ، والأدب مع الله يقتضى ذلك . قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحى إلا بإرسال رسول ، فكل وحى القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ فى الرُّوع . إنما جاء بالنفخ فى الروع الحديث القدسى ؛ لأن النفخ فى الروع قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كيماوى فى نفس رسول الله فلا يشك أبدًا فى أنه جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحى بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس ؛ وبعد ذلك يتفصد جبين الرسول عرقاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهى تئط وتئن ويثقل عليها وتكاد أن يمس بطنها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض فخذ الصحابى ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد قالوا من قبل استنادا إلى ظاهر قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون فى أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبالعقل يعلم الإنسان مطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدينى إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا الكون وتدبره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل ثواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة فى الإيمان بقوة عُليا فوق ذلك الكون وهى التى خلقته وتدبره وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التى أرسلت والشرائع التى يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرأيين .

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟. إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم فى النسبية ؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟. إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتضىء وندير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدّع أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم مَن أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما ينير به حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلاشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، وتحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر ونغيره مثلما نفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صانع يناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟. إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنّه يهتدى إلى القوة التى تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة فى « افعل » ، و« لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسىء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحجة ـ إذن ـ تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو فى الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثانى الخاص بالرسل هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسما وصفة ومطلوباً وجزاء ، هكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .

أقول ذلك حتى لا يتمادى الذى يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحجة فى الأشياء التى لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هى أمُّ العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب المعملية أن الفلاسفة يدخلون فى متاهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبى لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة على حالهم يبحثون فى النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقى مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث الجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار الغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .

والمثال الذى أضربه دائماً وأكرره حتى يستقر فى الأذهان : لنفترض أننا نجلس فى حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً فى أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف فى هذا الأمر . لكن عندما ندخل فى تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثانٍ يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسادس يقول : « نذير » ، يحدث ذلك لأننا دخلنا إلى متاهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو

أردتم راحة أنفسكم لأمتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارقاً بالباب ، ثم تتركون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصفتى كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور فى التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها ؟. وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودى الذى يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجىء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير مَن خلق الكون بهذه الدقة ، وما هى مطلوبات هذه القوة ؟

ويحسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ أمام سؤال من أحدهم :

ـ أعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟.

فأجاب الإمام علىّ وكان باب العلم : لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق عندى من ربى ، ولو عرفت محمداً بربى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى بربى وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا علىّ المسألة . . فالعقل الفطرى يؤمن بقوة مبهمة وراء هذا الكون هى التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تجىء الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل فى الحجة ودور الرسول فى الحجة ، عليهم ألا يتوهوا فى متاهات نحن فى غنى عنها ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة فى ثلاث وعشرين سنة ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدى أمته إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خُلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتى من بعد . والنذارة هى إخبار بأمر مسيء يأتى من بعد . والعزيز سبحانه لا يُغلب . والحكيم سبحانه وضع كل شيء فى موضعه ، لماذا ؟. لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة وناراً وحساباً ، فإياكم أن تظنوا أن الذى كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه ، والله عزيز وغنىٌ عن خلقه جميعاً .

ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنص ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التى لا يصح الخروج عنها . وحين يقول الحق : « وكان الله عزيزاً حكيماً » فعزته وحكمته هى التى أتاحت لنا أن نعرف منهجه .   ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ

بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

وساعة نسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصومك يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً .

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم ـ وهو العليم ـ ما يصلح للبشر من قوانين . وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ « افعل » و« لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إن العبث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان بـ « افعل »

ولا « تفعل » وإن أردتم أن تشرِّعوا ، فلتشرعوا فى ضوء منهج الله ، وإن حدث أي عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها في صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما فى اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتبليغه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهوداً ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عندنا من الله . وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إنّ كُفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكُفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعدّ ؛ لقد ضل فى نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره ؛ لذلك لا يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلّهم .

وكيف يكون الصدّ عن سبيل الله ؟ . بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهُدى

من أن تصل إلى آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(من الآية ٢٦ سورة فصلت)

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » أى اصنعوا ضجة تشوّش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم يُغْلَبُون عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » . كان يكفى أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدى « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أى إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر فى كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذى يضل قصارى ضلاله أن ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة الُمضل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .

والضلال المعروف فى الماديات البشرية هو ـ على سبيل المثال ـ أن يسير الإنسان إلى طريق فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة ـ أى صحراء ـ ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

﴿ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم « إن الذين كفروا وظلموا » . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى لهم متاعاً ولا سعادة فى حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذى يأتى به الله إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟ . كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفى حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند فى النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

فبعد أن وصف لنا ـ بإيجاز محكم ـ سلسلة المعارك التى نشأت بين الرسول واليهود مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هوذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ، ليصفى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول منبهاً كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التى سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ، البرهان الذى يرجح ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل .

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَلٍ وعلى أديان ونحل شتى ، فجاء البرهان

بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقدية شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيمانى » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا ما رأيتم جميعاً حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم فأخبر بها إخبار صدق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن يزيدوا فى الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد يسافر خيال أحدهم فى شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذى لا يتغير فى الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا ملايين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنته له وأغرته به اختلفت الرواية ؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم فيه من أى لون ، سواء فى العقديات أو فى العباديات أو فى الأخلاق أو فى السلوك . ستجدون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً فى هذا الحق :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل وادٍ يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه التراب والقش والأشياء التى لا لزوم لها ،وهو ما نسميه « الريم » وهو الزَّبَد الرابى . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذى نصنع منه الحلى أو أدوات المتاع ، وعندما نضع هذه المعادن فى النار ، نجد الزَّبَد يفور على سطح هذه المعادن

عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث . ويوضح الحق لنا كيف يضرب الحق والباطل :

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما اختلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث وينحيها عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزَّبَد الذى يذهب جفاء مرميا به ومطروحا ، وسيظل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحساباً . ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا ينفصل عن العمل .

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » وسبحانه غنى ، وسيظل كَونُه الثابت ـ بنظرية القهر والتسخير ـ هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سوى سخط الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أى شىء .

ونقول لك : لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً مما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشىء الذى لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم نر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم فى الأفلاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شىء فى الكون منتظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التى يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهى منسجمة مع نفسها ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .

ولذلك قال الحق :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر الفاسد إنما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ، لذلك نقول : أشكي الناس أزمة ضوء ؟ . لا ؛ لأن الشمس ليست في متناولنا ، كذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من الأرض ، فإما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه بعضهم ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشيء في الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول الخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا (١٧١) ﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب: « لا تغلوا في دينكم » والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال في الحكم ، لأن كل شيء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب في هذا

المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو فى الكُرْه ، وغالى النصارى فى الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ؛ وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر فى نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوة وإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالخوارج كفّروا علياً ، والمسرفون بالتشيع قالوا : إنه نبى ، وبعضهم زاد فى الإسراف فجعله إلها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ ـ كرم الله وجهه ـ :

« إن فيك من عيسى مثلا . أبغضته اليهود حتى بهتوا أمُّهُ ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ : « ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محبٌ يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا إنى لست بنبيّ ولا يوحى إلىّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً أن المحب الذى يغالى فى حبه ليس مع علىّ وكذلك الكاره المبغض ؛ فالذى يحب عليا بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا فى عيسى وأمه البهتان العظيم .

---

١ ـ رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، فعيسى عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التي جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسسها بشر ، ومادام الحق قد نسبه إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . فعيسى روح من الحق ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟ . هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة « كن » التي قال عنها سبحانه :

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و« كن » . والشبهة عند النصارى مردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ؛ وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

(من الآية ١٣ سورة الجاثية)

فهل هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟ . لا . فإذا كانت الشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب منطقياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ؛ لأن آدم جاء من غير ذكورة ولا أنوثة ؛ فلا أب له ولا أم له ؛ لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى الوسع :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف فى الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن» ، و« النفخ فيه من الروح » ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لآدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خُلق ؛ لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذرا من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن - إذن - أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعَلِمْنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ، وحدثنا بذلك فى آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل فى هذا تضاد ؟ . أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإثنان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يختمر ، يصير حماً مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه فى خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التى جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذى يشبه التمثال الذى نراه ، ولكن تنقصه الحركة والحياة ، فيأتى النفخ فى الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودى . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من بعد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة الإنسان الكيماوية لكنها لا تصير إنساناً ؛ لأن الأمر ينقص الإذْن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، ويترك لنا سبحانه فى الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نقيض الحياة وهو الموت ، الذى يحدث فيه أولاً خروج الروح ، ومن بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هى مراحل الموت التى تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يَرِم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر فى الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا بالأمر المشهدى ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقه فى إخبارنا بالحياة وكيف بدأت ؛ لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أى شيء إنما يتم على عكس طريقة بنائه . وآخر أمر دخل فى الإنسان هو الروح ، ولذلك فهى أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة وهى الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التي يخرج منها الزرع الذي يقتات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هي نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصدق في أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنساني . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقارناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر في تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهي العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته تقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكجسين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هي أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهي العناصر نفسها الموجودة في تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة.ويسأل أهل الذكر في تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن في بالهم إقامة الدليل على صدق الله في القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فسبحانه ـ إذن ـ أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والقدر ، ورواه مسلم في الإيمان ورواه أحمد ، والدارمي في السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسماحة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما في مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذى خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل مجيء عيسى على الصورة التي جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟. لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ، ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة في رحم حواء ؛ وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هى التى تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التى فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفى الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدته حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله فى القالب ، وفيه شيء من نفخ الله فى الروح ؛ ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فينا به جزء من القالب الذى صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذى أضربه دائماً ليستقر فى أذهان الناشئة ؛ لو جئنا بسنتيمتر مكعب من سائل ملونٍ مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءا ضئيلاً من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير فى البرميل جزء من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءا من السنتيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم ـ إلى أن تقوم الساعة ـ فيه جُزَىْء ـ من آدم عليه السلام .

ونلحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين فى الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون فى نقاش حول هذه المسألة يقولون:إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ويصير المسيح مثلنا . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسي يقول :

(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)[1] .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية المعملية نجد أن هذا القول صدق وحق ؛ لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

---

(١) رواه ابن عدىّ عن ابن مسعود . ورواه مسلمٌ فى العتق .

تأتى فيه إضافيات ؟. كالقول « بالأب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وُجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجتمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الأب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث ؛ لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتتحون القرآن بثلاث صفات هى الله والرحمن والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله و الرحمن والرحيم » .

وما الذى يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟. ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟. لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن لله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالى عشرين قرناً فقط ؟. ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط ـ وهى عمر المسيح ـ لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟. ولماذا يحرم الله ـ إذن ـ بقية الأزمان من بدء الخليقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟.

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟. إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبدا ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون: « إله واحد » ، ومرة أخرى يقولونّ: « إله أحد » . وواحد لا تساوى « أحد » والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه « الكل » وشيئاً اسمه « الجزء » وشيئاً اسمه « الكلى » وشيئاً اسمه « الجزئى » .

« فالكل » يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد ومحمد وعلىّ ، و« الكل » يُطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسى نجده مكوناً من أشياء ؛ كالخشب والغراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسى ـ إذن ـ « كُلّ » لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسمار ؛ لذلك فالكرسى « كُل » لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أى شىء من مكونات الكرسى اسم « كُل » . فلا نقول: « المسمار كرسى » أو « الخشب كرسى » ؛ لأن الكرسى يُطلق على مجموع الخشب والمسامير والغراء والطلاء فى شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة « إنسان » وهى كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة « كُلِّى » .

ويصح أن نطلق على أى كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلىٌّ إنسان . « فالكل » له أجزاء ، ولـ« كلى » جزئيات ، ويكون الكل شيئا واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسى واحد . ولكن لهذا الكرسى أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى: انه « كل » أو « كلى » ؟. لا نقول على اسم الحق « كل » أو « كلى » ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كليا لأنه واحدٌ ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى « كل » أو « جزء » أو « كلى » أو « جزئى » ، فلو كان كُلِّياً لكان ـ كما قلنا ـ له أفراد ولو كان « كُلّاً » لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يَرُدُّ القرآن على أى قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق :

﴿ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق: « انتهوا » أي اقضوا على كلمات الباطل ، و« خيراً لكم » أي تمسكوا [بك]لمات الحق ، وفي قوله: « انتهوا خيراً لكم » تخلية وإبعاد لكلمات الباطل ، نأخذ [ذ]لك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق ونأخذها من قوله ـ سبحانه ـ : [(]خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أي أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : [«]سبحانه أن يكون له ولد » ، وساعة نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه [ل]ذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتي في الأمور العجيبة التي يقف فيها العقل ، [ع]لى الرغم من وجود كفار في هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله في [هذ]ا العالم ، وعلى الرغم من وجود من ينعتون البشر بألفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً [وا]حداً لم يجترىء على أن يقول لمخلوق كلمة: « سبحانك » ،ولذلك نقول لله عز وجل [«]سبحانك أيضاً في سبحانك » .كذلك لم نجد أحداً من أي ملة أو عقيدة أو دين قد [س]مى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى [هذ]ا الاسم لمسمى أي مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحين الكافرين [س]مى ابناً له « الله » ؟.

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمّى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فماذا عن الذى جاء بعدها بزمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شىء ؛ وكان عندنا فى القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى فى دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ فى ذلك ، لكن لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أى منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرئوا وتتبعوا المدائح التى قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله فى أمرٍ للإنسان اختيار فيه ، ولا يجرؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض » و« الولد » كما نعلم يكون مما فى السموات أو مما فى الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجلى الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجلى على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل : « سبحان الذى أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذى أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطاء علوى من الله ، فكأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تناهى فى العبودية لله نال تناهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء فى النفى ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الخفر أن يقف أمامى ولا العمدة .

إذن فالملائكة فى الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر والأصل فى اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحسّات ، ثم تنتقل من المحسّات إلى المعنويات ، لأن إلف الإنسان فى أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحسّ ، كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئا » فالذى يأتى من بعدها إنما يأتى وسيلة للعلم ، وهى حواس السمع والإبصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال ذلك عندما ندرس فى الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره قهراً وعلانية ، وهو غير السرقة التى يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجرى الخاطف بعيداً ، أما الغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها ـ الغصب ، والسرقة ، والخطف ـ هي أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسيّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمّيَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المحسّات إلى المعنويات . وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .
و« يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النَّكْف » عملية حسّية تتمثل في أن يزيل الإنسان دمعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة في البيت وجاء له ظرف نفسي جعله يبكي ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النَّكْف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعني أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاءه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسيّ إلى أي مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير في طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس في مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهي عبودية ليست لمن يَسْتَذِل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذي يأخذ ولكنها للذي يعطي . والذي يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ؛ كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثانى الذى يتحدث عن المستنكفين والمستكبرين مقدم على شطر الآية الأول ؟. ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبرو ليستكمل ما جاء بشأنهم فى الآية السابقة ويبين كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن الذين آمنوا وعملو الصالحات ؟ .

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلا الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتى أولاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد . « والضد يظهر حسنه الضد » .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟. لقد عرفنا من قبل أن العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسن

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)(١) .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استنكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتى بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هى البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب . والرقاق ، ومسلم فى المنافقين ، وابن ماجه فى الزهد والدارمى فى الرقاق ، وأحمد .

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعيسى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبى الخاتم فقد تجلت معجزته فى أنها عين منهجه ، إنها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حسى ، لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر فى مشيته أو أن يخطىء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيه . إذن النور الموجود فى القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله فى الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قديماً كان الرجل عندما يقع فى هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل فى الاعتصام ، أى يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه سبباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذى يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فإياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمى الإنسان . فعندما تأتيه أمور فى ظاهرها شر ، فمادام مجريها عليك هو الله فهى خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أصل علم الإنسان فى كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمرا أنّه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيىء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفى حياته أشياء كان يظنها خيرا ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التى تقع على الإنسان فحكمتها تمشى على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إننى أدعو الله بكذا ولا يستجيب لى . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هى الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألِىَ فى هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لى فيه ؟ فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك ولله حكمة فى ذلك .

وحظى من الدنيا سواء لأننى ... رضيت بحكم الله فى العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على النجا ... وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . وماداموا قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرها وبيّنها قوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم)[1] .

أى يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذى أخذه عن الله وظّفه فى خدمة غيره ،

(١) أبو نعيم فى الحلية ، اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ورواه السيوطى فى الدرّ المنثور والقرطبى فى التفسير ، والفوائد المجموعة للشوكانى .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[١] .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ « يسألونك » . كأن الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يثبتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجد أشياء فى

(١) رواه أحمد والنسائى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنّها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون فى حكم . والسؤال يكون فى حكم وفى غير حكم . وهم يطلبون الفتوى فى الكلالة ، ودقة القرآن فى إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذى تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قال :

(مرضت مرضا فأتانى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وهما ماشيان فوجدانى أغمى علىّ ، فتوضأ النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صبَّ وَضوءه علىّ فأفقت فإذا النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى ؟ كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث »[1] .

وفى رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ، لأن الكلالة فى الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذى ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله فى الكبر ؛ لذا سمى بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أى التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أى من الآباء ، أو من أدنى أى من الأبناء .

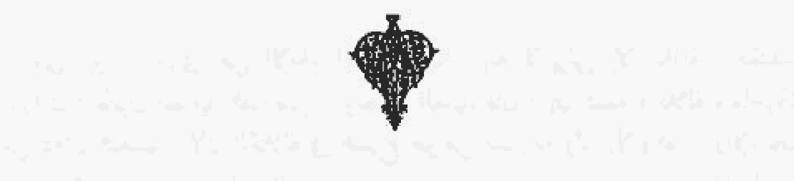
---

١ ـ أخرجه البخارى .

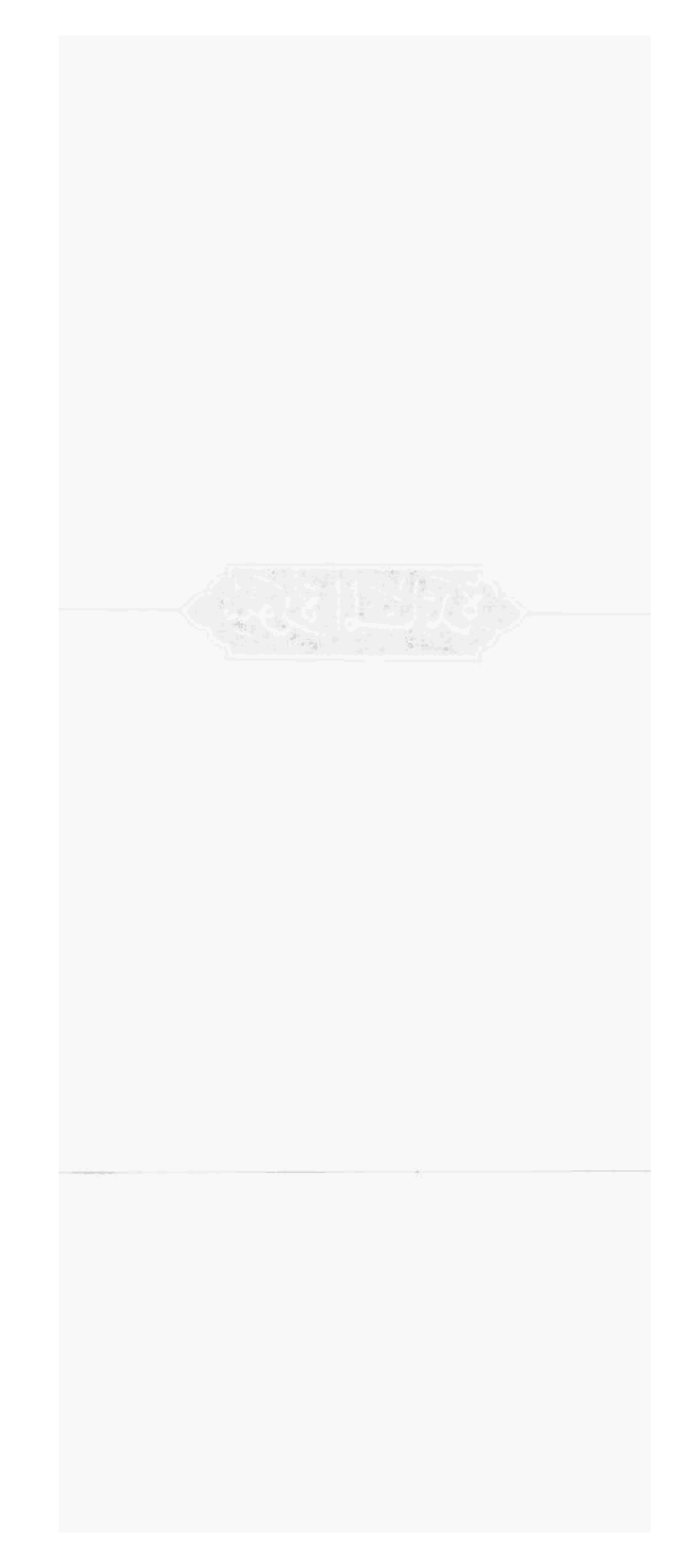
« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هى أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهى ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هوذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا فى سورة النساء .




سُورَةُ المَائِدَةِ



نستقبل الآن سورة المائدة التي تلي سورة النساء في الترتيب المصحفي . ونعلم أن القرآن له ترتيبان ؛ ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهي بآخر آية نزلت فيه ؟

ونقول : نزل القرآن لا كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ، ورسالته صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم في جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنها جامعة ومانعة فلن يأتي بعد الرسول رسول ؛ لذلك ينفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، وبمنهج يغطي كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة .

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة في أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان في شبه انعزال لعدم وجود الآلات التي تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشري في أن يجعل العالم كله وَحدة بحيث إن ظهر داء في الشرق فهو ينتقل إلى الغرب في الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، ليستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : منهج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبي الإسلام هي القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طبيعة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذي قصّ علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها .

والذين يقولون إن الإعجاز كان للبلاغة والفصاحة وللمنطق وللبيان وأمة العرب أمة بيان نقول : لقد فاقت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة وفصاحة وأعجزهم وأفحمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا نرى أن الله قد أراد أن يكون فى القرآن جانب يظل معجزاً لكل الأقوام ، وهى المعجزات التى لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهى المعجزات العقلية ، بمعنى أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته الأمية ، وهو الأمى ل يُعرف له نشاط فى علم ولا نشاط فى ثقافة ؛ ويأتى بأشياء تتحقق بعد مضى القرون ويعترف بها الذين لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله .

لقد حاول بعضهم أن يرفعوا محمداً إلى مرتبة الألوهية ؛ ذلك أنه قال بأشياء منذ أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقولها إلا عالم بما يكون فى كونه ، ولكنهم عرفوا أن رسول الله أقرّ ببشريته . وينزل بالمنهج مواكبا للأحداث ، وينزل بالمعجزة فى مسائل الكونيات التى تشترك فيها كل الأمم والتى لا تختص بلغة دون لغة .

نزل المنهج ليحكم العالم من أمة أمية ، لم ترق إلى وضع وسنّ قانون أو دستور ولم تتعود على ذلك . فقد كانت أمة من الرُحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، ولكل بطن قانون ، ولكل أسرة فى كل بطن قانون . وجاء الرسول مبعوثا من عند الله إلى الأمة الأمية لينشىء لها منهجاً يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فزع قوم من قضية من قضايا مجتمعهم لا يجدون حلاً لها إلا حلاً لو نظرنا نحن إليه لوجدنا أنه إما أن يتطابق مع ما جاء به الإسلام ، وإمّا أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه .

وإذا كان القرآن فى الأحكام قد جاء حسب الأحداث التى وقعت ، فهذا من إرادة الحق للخير بمن نزل فيهم القرآن . ونجد فى القرآن أسئلة سيتعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التى تعرض لها رسول الله تُعتبر من الظواهر الصحية فى الإيمان ؛ لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء . أرادوا ـ كما قلنا ـ إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذى عشقوه ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين قال رسول الله فى شأنهم :

(إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُيّنت لهم آخر الأبد)[1] .

---

١ ـ تفسير الإمام ابن كثير .

أى لو لم يقولوا : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) . لما اهتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرّها الإسلام كما كانت فى الجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليزيل نظماً عاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اهتدوا إليه فالإسلام يشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص قرآنى لكل أمر كبير فى حياتهم ، وحين يجىء النص القرآنى بعد أن تتطلبه الأحداث ، يتمكن فى القلوب . وضربنا مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطرأ على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طويل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء لحالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذن فعندما يأتى الحل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الحل موجوداً فى القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجرى وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السماء لتنجدهم بالحل . ويأتى الحل عند الحادثة فلا يصير فى الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصحفيا .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويقرأ النبى هذه الآيات فى الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجلى عظمة الرسول حين يصل بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وعندما يقرأ الرسول فهو يقرأ الذى نزل عليه فى اليوم نفسه متصلا بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ؛ لأن الفرد العادى إذا تكلم فى موضوع ما لعشر دقائق ثم يسأله أى فرد من بعد ذلك بساعة : هل تسمح بإعادة ما كنت تقول منذ ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعانى ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحافظين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف فى الصلاة ليقرأ الآية التى نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ، بل بأمر رب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رتّب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه فى رمضان . ويأتى جبريل فى رمضان الأخير فى العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه القرآن مرتين .

إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التى نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشرى أن يرتب هذا الترتيب . بل رتبه الذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله ـ سبحانه ـ وتعالى جل شأنه .

وهكذا جاءت سورة المائدة بعد سورة النساء فى الترتيب المصحفى ، وعندما ننظر إلى « سورة المائدة » . نعلم أولاً ما معنى المائدة ؟ إنها الخوان عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دعا ربّه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الحواريون عليه بأن ينزلها الله فقال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾

(من الآية : ١١٤ سورة المائدة)

ويختار الحق المناسبة الجميلة فيبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ ﴾

البداية ـ إذن ـ عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول بهيمة الأنعام كطعام . وسورة المائدة ـ كما نعلم ـ جاءت في الترتيب المصحفي بعد سورة النساء التي تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصداق والوصية والدَّين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكأن الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما في سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها .

ونلحظ أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفي كلتيهما حديث عن الماديين من اليهود ، وسورة النساء والمائدة تواجه أيضاً المجتمع المدني بالمدينة بعد أن كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهية الواحدة والنبوات . وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجية والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكمية .

وها نحن أولاء أمام سورة المائدة التي يقول فيها الحق : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالعقود ، والحق يخاطب المؤمنين بالاسم الموصول ، ولم يقل : يا أيها المؤمنون ، ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ؛ ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينفذ المؤمن الأحكام التى جاء بها العقد الإيمانى . وحين يتوجه الحق بخطابه للذين آمنوا ، إنما يؤكد لنا أنه لا يقتحم على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرب للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخرّه للخلق .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن ينزل إليه التشريف بالتكليف ويكون القول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بالله إلهاً . والإله لابد له من صفات تناسب الألوهية ، كطلاقة القدرة والجاه والحكمة والقهر . وسبحانه لا يكلف مَن لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » ؛ لأن لكل إيمان تبعة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ونعرف أن اللغة بها أسرة ألفاظ ؛ فـ « أوفوا » على سبيل المثال فيها « وفى » . والمضارع هو « يفى » ، وفى أفعالها « أوفى » و« وَفَّى » ، حسب المراحل المختلفة قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإنجاز :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وإبراهيم الذى وفَّى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الابتلاء، فالتوفية هى الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى عليكم يا من آمنتم بالله أن تتموا العقود . والتمام إما أن ينطلق إلى الأفراد ويشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتفت إلى الكيفيات فلا تختل كيفية ، هذا هو التمام . وقد يأتى إنسان بكل فصول الكتاب ويقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنفيذ كل جزئية فى كتاب التكليف .

وسبحانه طلب منا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن نقيم الصلاة وأن نؤتى الزكاة وأن نصوم رمضان وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وقد يؤدى شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بأداء التكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدى كل جزئية بتمامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنّه يوفيها بلا تدليس .

والحق هنا يخاطب المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى أننا أمام « إيمان » و« عقد » . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وعلى كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ما له . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أى شيء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك نسمى ما يستقر فى مواجيد الناس ونفوسهم « عقيدة » . لأنها الأمر المعقود ، وليس الأمر الطارىء الذى يأتى اليوم وينتهى غداً . والشيء المعقود فى نظر الفقه هو الأمر الذى لا يطفو إلى العقل ليُبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت فى القلب . ويأمر سبحانه بالوفاء بالعقود . والعقود ـ كما نعلم ـ هى جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد سبحانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتى الإنسان ساعة التطبيق ويفر منها ، ثم نأتى إلى عهد الاستخلاف فى الأرض وبه استخلف فيها آدم وذريته من بعده ، وإياك أن تظن أنك الأصيل فى الكون حين تدوم لك الأسباب وتدين لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبذر البذور فى الأرض وتروى الأرض فاعلم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرْضَه لك .

وإياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال الفارس الذى روّض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . ونجد الفرس فى بعض الأحايين يجمح ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التى لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يذلل الله الخيل لنا لما استطعنا أن نركبها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضاً أن الحق سبحانه ذلل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ؛ ليضع عليه الأحمال الثقيلة ، ويأمره فيقوم . أما إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلها ، وهذا لفت من الحق للخلق لقدرته المطلقة ؛ فقد ذلل لهم الكبير ، وأفزعهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ومن التذليل يأتى وضوح بقية الكائنات للإنسان ؛ فالحمار عند الفلاح يحمل السماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً ، ويأتى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أن يستحم الحمار ، ويشترى له السرج ليركبه وهو ذاهب للقاء المأمور فى المركز ، ولم يعص الحمار فى الحالتين . إنه التذليل .

إياك أن تظن أن مهارتك وحدها أيها الإنسان هى التى ذللت لك الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لذلل الإنسان البرغوثَ الصغير الذى يهاجمه فى أى وقت ، وقد يفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل . وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء فى أى عمل « بسم الله الرحمن الرحيم » . وإياك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها . فالعمل إنما ينفعل لك لأنه سبحانه قد أخضعه لك . وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذى استخلفك وأخضع لك الكائنات المذللة .

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لآدم :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم . وعاهدوا الرسول فى الحديبية .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى آمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن العقد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً . ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه .

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله . وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمانى هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأوفى .

العقد إذن قد يكون بين العبد وربِّه ، أو بين العبد وخلق الله المساوين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أطلقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . . إنه الإيمان بالله .

إذن فقوله الحق : « أوفوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذى جعله الحق حراماً . ولا داعى - إذن - للاختلاف فى معنى « العقود »
والتساؤل : هل هى العقود التى بين العبد وربه ، أو بين العبد والناس ، أو بين
العبد ونفسه ، فكل ما نبع من العقد القمة هو عقد على المؤمن وإلزام عليه أن يوفى
به .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل
السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام . ونعرف أن الإنسان قد طرأ
على الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً . ثم خلق الإنسان فيه ، وهذا من
رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولا ، بل خلق له الشمس وأعد الكون قبل أن
يخلق الإنسان ، وحين طرأ الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجماد ومن النبات
ومن الحيوان .

وقمة المسخرات للإنسان هى الحيوان ؛ لأن الجماد والنبات يخدمان الحيوان ،
ويشترك الحيوان مع الإنسان فى أن له حياة ودماء وجوارح . وجاء الحق هنا بالإعلان
عن أعلى المنزلة فى خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام »
ويأمرنا بأن نوفى بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الثمن بخلق
الكون مسخراً لنا وقمة المخلوقات المسخرة هى الأنعام . كأن « أحلت لكم بهيمة
الأنعام » حيثية مقدمة من الحق . ونلحظ أنه جاء هنا بصيغة المبنى للمجهول فى
« أحلت » ؛ لأن الإيمان جعلنا طرفاً فى أن تكون بهيمة الأنعام حِلًا لنا .

ووقف العلماء عند « بهيمة الأنعام » . وفى اللغة العربية نجد صيغة « فعيل » التى
تأتى بمعنى « فاعل » وتأتى بمعنى « مفعول » ، مثلما نقول « الله رحيم » أى أنه راحم ؛
هو « فاعل » ، ونقول « فلان قتيل » أى مقتول أى مفعول به . و« بهيمة الأنعام »
هنا تأتى بأى معنى ، أهى بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ؟ ، و« بهيمة » إن نظرنا إلى أنها
مبهمة ؛ لأن أمورها مجهولة يصعب إدراكها علينا ولا نعرف حركتها أو إشاراتها أو
لغاتها التى تتفاهم بها فتكون فعيلة بمعنى مفعولة . وتصلح أن تكون فعيلة بمعنى
فاعل ؛ لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها . ونقول : هى محكومة بالتسخير .

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو العلف إلا بعد أن رآها وهى سائبة حرة تتجه إلى
العلف لتأكله ، إذن فهى التى علمت الإنسان صنف طعامها . فلا يقولن إنسان :

إنها بهيمة لا تفهم ، وليعرف أنها لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها .

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطق الطير ، فقد حزّ في نفس الهدهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلاّ لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وعاداتها ؛ ولذلك نجد هواة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أي شيء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ؛ لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريزة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغطي عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذي أحلها ، جعل التحليل لها في التسخير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يختنق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فنادوا الجزار . وكأنه ـ وهو الحيوان ـ يطلب الذبح لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخسارة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مذلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما مد رقبته .

والأنعام هي المذكورة في قوله الحق :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأنعام

إنها ثمانية أزواج ؛ ثم ألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الظباء وحمر الوحش . ولم يحرم إلا كل ذى ناب كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذ التحليل لانصرف بدون قيد ، ولأسأنا إلى أنفسنا بأكل الميتة والموقوذة والمتردية . ولكن الحق أنقذنا من ذلك وحرم علينا تلك الأشياء الضارة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن توفو بالعقود ؛ لأنه قدم لكم الكون بكل أجناسه وكل عناصره لخدمتكم . وأحلّ أقرب الأجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فيقول : « غير محلى الصيد وأنتم حُرمٌ إن الله يحكم ما يريد » ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكل الإنسان - وهو مُحْرِمٌ - بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد فى أثناء الإحرام ، وكذلك فى حمى الحرم . والحَرَم - كما نعلم - مركزه الكعبة ، وحول الكعبة المسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى الميقات المكانى ، فالميقات المكانى للحج والعمر لمن كان خارج الحرم (ذو الحليفة) وذلك للمتوجه من المدينة وهى (آبار على) ، والجحف وهى الآن (رابغ) للمتوجه من مصر والشام المغرب ، و(يَلَمْلَم) للمتوجه من تهامة ، و(قَرْن المنازل) للمتوجه من نجد اليمن ونجد الحجاز ، و(ذات عرق) للمتوجه من المشرق والعراق وغيره .

أما الميقات المكانى للحج لمن بمكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة المكانى لمن بالحرم فهو الخروج لأدنى الحل وهى الجعرانة ثم التنعيم (مسجد عائشة) ثم الحديبية .

والميقات الزمانى للحج شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، أما ميقات العمرة الزمانى فهو جميع السنة إلا إذا كان محرما بحج أو بعمرة أخرى أو كان ذلك قبل النفر لانشغاله بالرمى والمبيت فيمتنع الإحرام بها . والتنعيم والجعرانة والحديبية ، تلك هى حدود الحرم . والصيد فى حدود الحرم حرام ، فى كل زمان وعلى كل إنسان ، أما فى غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير المحرم من حقه الصيد .

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم للمنهج فيأتى لهم فى مكان ويقول لهم : الصيد محرم فى هذا المكان ، والطعام والشراب محرم فى هذا الزمان ؛ كصوم رمضان . وعدة الشهور عندنا كمسلمين اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرُم . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وفى الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمانى . وعندما يأتى الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يغير وضعه ويلبس لباساً خاصا بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل سواسية ؛ لأن الناس إنما يتميزون بهندامهم وهيئاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يحلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من النبات ؛ لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشحن أعماقه بالوجود مع المنعم لا مع النعمة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضع المسلم النعمة على جانب ليبقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد فى الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهابة . ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بداية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ؛ ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة .

ويحج المسلم فى حياته مرة واحد كأداء للفريضة ؛ وفى كل مرة تحج وتقصد بيت ربّك يوضح الله لك فيها : لا تنشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المنعم ، ويمحو سبحانه بالحج كل الذنوب . « غير محل الصيد وأنتم حُرُم » فإن أردناها محرمين فهى صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهى صحيحة ؛ لأن الصيد محرم فى منطقة الحرم للحاج أو لغيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التذييل منطقى يتفق فيه آخر الآية مع صدرها ؛ لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن ينفذوا حكم الله الذى

آمنوا به ، ومادام المؤمن قد آمن بالله إلهاً فليتجه إلى ما يريده الله من أحكام ليفعله لكن عمومية الآية قد تجعل واحداً يعزل عجز الآية عن صدرها ، رغبة في التشكيك في الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمن ومن لا يؤمن ، فكيف يقول: « يحكم ما يريد » ، بينما لا يؤمن الكل ؟ .

ونقول : لا تعزل عجز الآية عن صدرها ؛ لأن الله إنما يخاطب في هذه الآية من آمن به رباً ، ومن آمن بالإله يعمد ويقصد ويتجه إلى ما يريده الله من حكم ليطبقه . ولا يعتقدن أحد أنّ الكافرين خارجون عن إرادته سبحانه في قوله : « إن الله يحكم ما يريد » فالذى تمرد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله .

لكن المتمرد على حكم الله التكليفى الشرعى لا يجرؤ ولا يملك أن يكون منطقياً مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف . فليقل للضعف : لا ، أنا لن أضعف وأنا قوى . لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً . المتمرد يأخذه ملك الموت وهو غير مريض ، فماذا إذن يصنع تمرد المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان ـ كل إنسان ـ لحكم الله . وخضوع الإنسان لحكم الله في بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن لها ؛ لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت ـ على سبيل المثال ـ كحكم من الله ، أما المتمرد الذى لا يصلى ولا يؤدى أى أمر تكليفى ، ويتعرض للأغيار بما فيها الموت ، فهو يعانى من كل ذلك مشقّةً وَحِدَّة تفوق حدة استقبال المؤمن للأغيار أو الموت .

إذن فقوله الحق : « إن الله يحكم ما يريد » هو قضية عامة ؛ لأن الذى تمرد على حكمه سبحانه فيما له فيه اختيار ،كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، فيتمرد على حكم يجريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام الوضعية فإنها لا تقوى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ؛ لأن المتمرد لن يجرؤ على الرد على أمر الله . فلا يظنن ظان أن الله جعل للاختيار في العبد طلاقة ، لكنه جعل للاختيار في العبد تقييداً ، وللقدرة القادرة طلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ؛ فلن يجرؤ على التمرد في أشياء أخرى . إذن فالله يحكم ما يريد .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهى تأتى بعد آية أحلّت أشياء ، كأن الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمنع عنك ؛ أعطيتك أشياء وأمنعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛ فهو يعطى هذا الشيء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشيء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وقيد فى الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك . وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس ستطبق حكم الله بألا يسرقوا منك شيئاً ، وفى هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذى يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نهياً أمر به الله ، فلا تصب النهى عليك . ولكن صب النهى أيضا على كل الناس بالنسبة لك . وساعة يقول الحق: «ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أى لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هى معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر ، وذاك علم لانجلترا ، وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة فى مصر ـ على سبيل المثال ـ تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المَعْلَم الذى يدل على الشيء . وشعائر الله هى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية فى مناسك الحج هى الإحرام ، أى لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، كل هذه شعائر الله التى أمر ألا يحلها المؤمنون ، أى أمر ـ سبحانه ـ ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هى الضابط الإيمانى . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج فى رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس فى الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هى إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتى الأمر بألا يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيماً فى مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمانى لا بين الإنسان والمساوى له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل أجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءا منها . وبذلك يأمن النبات فى الحرم ، وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع فى حَرم رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعشة ورهبة إيمانية فى النفس البشرية . وتكون فترة الحج هى فترة الانضباط الإيمانى . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوانَ وكذلك النباتَ ، ويبقى الجماد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجماد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجماد فى الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالى ـ الإنسان ـ على النبات والحيوان يأتى إلى جماد فيعظمه ويوقره ، فالذى لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجماد مصوناً فى بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبّل الجماد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودى . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاغراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها أوامر الآمر الأعلى ، حتى لا يستقر فى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقق الانضباط الإيمانى ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل فى الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجماد يخدم الكل ؛ لكنَ لا أحد أفضل من أحد ، بل الجماد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدي
والاحترام ، ولا يظنن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل
كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن
تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى ب
سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى .
فالقوىّ القادر على القتال قد تهفو نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيه
الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأتى الحق
بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم
الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليذوق لذة الأمن والسلام
والطمأنينة ، فقد يعشق الإنسان القوى السلامَ من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إذ
نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذ
اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ،
فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو
الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل فعل من
الأفعال لابد له من زمان ولابد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان
ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن
واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؛ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله .
وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليحمى
عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه
قويهم لعله يرعوى ويرجع عن غيّه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن
المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يُؤَمِّن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل
سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر فى الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذى سيأتى بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدى إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهناك من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتى أناس كثيرون فى وادٍ غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أُهدى إليه ، فقد يشتاق إنسان صحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو فى الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهى جمع « قلادة » والقلادة هى ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذاهب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ؛ لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذى لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذى توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدى إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التى حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدى المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . ويضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادى ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس فى منى وعرفات بكثر
لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بألذ وأطيب الطعام ، والفقير يذهب إلى المذبح
ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه فى الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلا
وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتى بالحكم بطريقة لها منتهى
البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرا
يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرا
ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنَزِّل الحق
قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكن
الحكم قد صدر . ونتساءل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله ؟ . نعم
ففضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر .
والفضل من التجارة التى كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى فى أيامنا هذ
على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟ . إنه رضوان الله المتوهم فى معتقدهم .
فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلا
من ربهم ورضواناً » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ؛ لأن العبد المؤمن هو من
يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن
والكافر ـ وسبحانه ـ سخر الأسباب للكل ؛ هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس
تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية
فيتمثل فى « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » .
إذن فجناحا المنهج الإيمانى ـ افعل ولا تفعل ـ ليست فى بالهم . ومن بعد ذلك يقول
الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من
الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ، لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا فى صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامة على منهجه فى الأرض ، والقائم على منهج الله فى الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصَّغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامة على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القُوَّام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن - المسلمين - لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصى من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلمس رحمة الرب . وفى ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكتموا بغضكم ، ولكن أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحان لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال . لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذ قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام جبَّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول لقاتل أخيه :

عندما تراني نحّ وجهك عنى . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يحب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر : لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من قاتل أخيه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والعواطف لا يقنن لها بتشريع . ولكن اعلموا أن هذه العواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، فحين يمشى إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل فى العملية النزوعية فقط إلا فى مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلة الإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يغض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والنزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيماوى للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيلغ فى أعراض الناس ؛ لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل النزوع عن المواجيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تجيش عواطفه البشرية بالبغض وبالكره ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيمانى يمنع ذلك .

ويقول القرآن فى موضع آخر

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّ

مَعْرُوفًا ﴾ (من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذى يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الودّ فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركين به . أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالحق لم يمنع البغض . ولكنه منع النزوع المترتب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كما حدث فى صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هى التى تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزن « تفاعل » ، والتفاعل يأتى من اثنين ؛ مثلما نقول « تشارك » ؛ فهى تقتضى اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيداً . وكلاهما متساو . . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتى فاعلا مرة ومفعولا مرة ثانية ، والفاعل فى هذه الحالة فاعل ومفعول فى آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل فى الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتبكا فى قتال أى مفاعلة . وساعة يأتى اثنان فى فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فالمطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشاركا معاً فى المعاونة . ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون خصص لكل إنسان عملا يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها الإنسان فى حياكة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، و« تعاونوا » هى أن تأتى بشىء فيه تفاعل ما ، ومعنى الشىء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « مُعين » و« مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائما معينا ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ، والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج إليه أقضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صنعته يصنع نموذجا مجسدا لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة لبناء واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشىء الصالح بل نزيده صلاحا ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان » أى أنه يريد كوناً عامراً لا كوناً خرباً . والشيء الصالح فى ذاته يبق
على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم

والبر ، ما هو ؟ البر هو ما اطمأنت إليه نفسك ؛ والإثم ما حاك فى صدر
وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساعة يأتى إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يرا
غيرك وأنت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إثماً لأحببت أن يراك الناس وأن
تفعل ذلك . إذن قوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإ
والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لك
جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا لجمعياتكم نشاطاً يُنسب إلى غير دينكم . مثال ذل
الجمعيات المسماة بـ « الروتارى » أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيرى
ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون فى
الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلا
مسلمة . والخير كل الخير ألا نأخذ هذه الأسماء الأجنبية ونطلقها على جمعياتنا حت
لا يظنن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيرى
فليعمل من خلال الدين الإسلامى . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكو
كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطر
كل من يصيبه خير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه
وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل فى دي
الإسلام ما يغنينا جميعاً عن كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماع
للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحق
سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت

فعلى الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينس

عمل الخير إلى « الروتارى » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس لله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبنى الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . ونلتفت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراده الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليعجنه واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذى سخر بعضا من الممولين الذين فكروا فى خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحين وإنضاج الخبز ، وهى آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأتى من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفاً واحداً .

هذه هى مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التى علمت المهندس الذى صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر فى رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر فى « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و« لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويخرج الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرّم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهى من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضَمِن عمارة الكون وضَمِن منع الفساد فى الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويُسمّى الرائش والذى يحمل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عمارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لننظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استنزفت الناس بجمالها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتتن بهذا الجمال ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءته منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئا من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والقرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام وتجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للآخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بثمرات الإثم فى هذه الدنيا يجب أن يفطنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ؛ لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحى من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالاً موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم فى الكون ؛ حتى ولو كانت صورة سائق التاكسى الذى يدلس على رجل وامرأة فى طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التى ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التى ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شتى يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضرُّ به إنسانا بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانيا سليما لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف فى الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكان هذه المخالفات السابقة التى تحدث هى نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، ولهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيننا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ، فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعني : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ « اتقوا الله » تعني اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهي الدرع التي يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ « افعل » والامتثال لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذيل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إنّ ما يجعل الناس تتهاون في التعاون على البر ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار للمجتمع وعى إيماني لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيماني فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلاّ تهاون المجتمع في الجرائم الصغيرة . ولذلك يلفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ؛ لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتي العقاب في وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع في أن تتعاون على الإثم فعليك أن تخاف الله ؛ لأن عقابه شديد .

وكيف يأتي العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ؛ لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب في نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هي شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتي الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء في قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصا لما أحل من الأنعام . . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . وألحق الرسول بها الظباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا مايتلى عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادماً سيأتى ، ويبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول. على الرغم من أن الفاعل فى التحريم واضح وهو الله. ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك فى العقد الإيمانى مع ربّه فالزمه ـ سبحانه ـ والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرمها سبحانه كإله وشاركه فى ذلك العبد الذى آمن بالله إلهاً .

والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أى ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أى بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائناً آخر يمنع عنه النفس وفى هذا إزهاق للروح بنقض شىء فى البنية ؛ لأن التنفس أمر ضرورى ، وقد يزهق الإنسان

وحا آخر يضربه بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد ن قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب بنبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك رف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك قتل ، فى كليهما ذهاب للروح .

وفى الموت تذهب الروح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . الميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ نها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم دفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان فى الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من كلى والرئة ، وهناك دم نقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : م فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه ضاً النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرئة ، ولذلك يسمونه الدم سفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون سيه ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، لنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد طحال)[1] .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو رام . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بهما ، فليس

) رواه أحمد وابن ماجه والدارقطنى .

فى لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمى فى أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذى آمنا به إلها حكيما هو قائلها ، وهو يريد صيانة صنعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث - مثلا - يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة ، ومادام الله هو الذى خلقنا وآمنا به إلها ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله ؛ لأن الذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنت بى خذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبا على درجة علم عالية فى الجهاز الهضمى ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من عاليم فعليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلها فعليه ن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيبا ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا » ؟

والطبيب من البشر قد يخطىء ، وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى قدرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . وننفذ أوامر الأطباء ، لا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل أوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر الخطائين ، ولا يمكن - إذن - أن تعلو على الثقة فى رب السماء ؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه : « الله أكبر بسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق المنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيوانا ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا آكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة ، لكن آكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة كنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجماد حياة أيضاً ، لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فأنت تعاند بدقات

المطرقة ما فى تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدرى أن فيها حياة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا ـ حيوان أو جماد ـ على أنها مسبِّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذى حلل لنا أن نأكل من الذى له حس وحركة ، كالحيوان الذى يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذلل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنقة ، أي الحيوان الذى مات خنقاً ؛ لأن قوام الحياة ثلاثة ؛ طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذى خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوماً ؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك ـ أيها الإنسان ـ ظروف الأغيار ، فجعل فى جسمك مخزونا لزمن قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة فى الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتُك الضروريُّ لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن فى الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعا
أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قارنتها بسيا
صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فه
لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلد
إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وج
الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وس
أذهبت اللحم ، وسنة محت العظم » أى أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى م
دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة
وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة فى الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسا
إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالنَّفَس هو أه
ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد ، لا
أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهى م
الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرا
للمعانى ، تلتقى عند شىء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نَفَس ، نج
أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هى « النون والفاء والسين » ، النفس هو
اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها
والنَّفَس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس
ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك
إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك فى الدنيا إلا م
أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمى الأكل فى الميعا
« وجبة » ، ونسمى المسئولية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الوجيب » . ولذلك
عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منها معن
مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبي في محبتكم أسير

فأسير في الشطر الأول بمعنى أمشي ، وأسير في الشطر الثاني من البيت بمعنى مأسور ومقيد .

فالمنخنقة إذن هي التي منع عنها النفس ، ومادام منْع النفس أوصلها إلى الخنق فهي إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهي حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهي حرام ، ويحرم الحق الموقوذة ، وهي البهيمة التي يتم ضربها بأي شيء إلى أن تصل للموت ، فهي قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التي وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أي التي نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم » ، والذكاة هي الذبح الذي يسيل منه الدم وتأتي بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلا ما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهي حلال .

هذا هو رأي علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو مفتي الإيمان . وابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وهو حَبْرُ الأمة قال ـ أيضا ـ في قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحياناً قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلا ويتملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذي أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتي الأحجار في الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا في التحليل أو التحريم هي : أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك فى الذبيحة فهى حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأو وهى : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيما العقدى .

« وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السب إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذب الشرعى . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يحل ذَبْح بعظم بِسِنّ والذى ذبح على النصب ، أى المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فه حرام ، والكلام هنا عقدى ، والتحريم هنا بعارض عقدى .

و« النُصُب » من الألفاظ التى وردت مفرداً ووردت جمعاً . فـ « نصُب » هو جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حُمُر » ، وفى هذه الحالة يكون مفرده « نِصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طُنُب » وهو الحبل وجمع « أطناب » أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « نُصُب » هو « أَنْصَاب » .

والنُصُب هى حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائ تقرباً للآلهة . والتحريم هنا بسبب عقدى مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، ف أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى ذلل للإنسان هذا الحيوان القري من الإنسان فى الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القسمة ، وكانت القسمة ف بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلا هى التى أمرتنى » . والأزلام هى قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرن ربى » ومكتوب على البعض الآخر : « نهانى ربى » وبعض من هذه القداح غفل بغ كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخر السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحاً ، فإن قر عليه « أمرنى ربى » يسافر إلى المهمة التى يريدها ، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلا فه يعيد الكَرَّةَ ؛ فإنْ وجد « نهانى ربى » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيبا واحداً ؛ أما المكتوب عليه « التوأم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « الحِلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ؛ والمكتوب عليه « المُسْبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المُعلّى » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقى ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيح » وإمّا « السفيح » وإمّا « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيح » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقوله الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستسقام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتحرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعا الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن في سفر ، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات ، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها .

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أي واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله في بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(خلوا سبيلها فإنها مأمورة)[1] .

فعندما تميل الناقة وتقف عند أي بيت لن يقول أحد : إن النبي آثر فلاناً على فلان . جعلها الرسول في يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك الاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها عملية غير مناسبة وهي ظالمة ، ووردت هنا في سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات ؛ إنَّ ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعاني ـ كما علمنا من قبل ـ مأخوذة من المحسّات ؛ لأن إلف الإنسان في أول إدراكاته بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، وبعد ذلك تأتي الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلحة عندما ترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أي خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ؛ تماماً مثل الرطبة ، وفي هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ؛ فالذي يخرج عن منهج الله يكون فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فكأن دين الله كإطار يحمي الإنسان بالإيمان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ، وابن سعد في الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية فى الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك فى المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلما عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل فى أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التى مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون ـ أيضاً ـ حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يئسوا أن ينسى المسلمون حظا مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن فى الصدور وكتبوه فى السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلما حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن ييأسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يئسوا من أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى بحكم فى شىء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحى رسول الله أن يبلغ : أن الحكم الذى قلته لكم قد غيره الله لى . وهل يستنكف أن يعدل الله ؟ وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ؛ لذلك يئس الكافرون بألوانهم المختلفة من أن ينسى المؤمنون حظا مما ذكروا به ؛ لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا نهاية لها ، وظل القرآن مكتوباً فى السطور ومحفوظاً فى الصدور .

والحق يعلن عن يأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » يئسوا لأن المراحل التى مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين . لقد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن بعض كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعنى الزمان الذى مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفتحت مكة للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصار القرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد يأس الكافرين والمشركين أن يُنسى القرآن أو أن يُكتم القرآن ؛ لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو يقوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرئة المسلم الذى سرق وأن تلصق التهمة باليهودى البرىء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبى هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم . ويأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على اليهودى الذى لم يسرق ، إنها سماحة دين الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن يُنسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتهان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله . إذن فقد يئس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون فى دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التى ظهرت فى الأقوام السابقة .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » لقد يئسوا من أن يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سَيَغْلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشماتة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة فى انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا فى أسباب الخيبة التى دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شىء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين فى أحُد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوبين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الآمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع فى قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا فى الدين ، أو يكتموا الدين ، فهم لا يحرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشىء على كماله ، وكمال الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً، فإياكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت » فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتى من يقول : إن التشريع الإسلامى لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا وأريد أن أصوب لله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد ، وقال : « أتممت » فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غلّب رضاه على رضا ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو أغيار ، وقد تطرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد خففه من البداية . ومادمنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار ينتقل مرة من قوة إلى ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد يطرأ على النفس البشرية ، ومادام استبقاء الحياة يتطلب القوت ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب الضمور فى البطن ، هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المرابى إن لم يجد من يقرضه ليشترى دواء أو طعاماً أو شيئا يضطر إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابى ، لا على المقترض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما فى حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يمسك عليه رمقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير فى الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما فى حكمها إلّا قدراً يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر فى مخمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحا به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه فى الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحرث فالله يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إنى أدعو الله ولا يجيبنى . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو ـ على سبيل المثال ـ بأن تسكن فى قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر ـ إذن ـ هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج فى صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

وهذه هى المساندة فى المجال البشرى ، إذن فلا يردّ واحد أسبابَ الله من يده ويقول من بعد ذلك : يارب أعنى ؛ لأن الله فى تلك اللحظة يوضح للعبد : إنّ عندك أسبابى ومادامت أسبابى موجودة ، فلا تطلب من ذاتى إلا بعد أن تنفد أسبابى من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذى يردّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعى أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر سترَ الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحَلَّل غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هى كل الموجودات فى الكون ، فالموجودات فى الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة فى الأرض ؛ قدر فى هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .

والاستبقاء نوعان : استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالتنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والتناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة : البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثانى : أن يبقى نوع الحي وذلك بالتكاثر . وحتى تبقى الحياة ويتكاثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجناس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة .

وطمأننا سبحانه وتعالى على الرزق حينما قال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر فى الأرض أقواتها ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة فى الأرض ، لتقيت الإنسان لهذه الحياة ، ويُبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد العبد النعم التى وفرها له الحق يجدها لا تحصى . ولم يحاول الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحصى نعم الله فى الأرض ؛ لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدرة على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ؛ فلم يجرؤ أحد على أن يعدها . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهى للأمر المشكوك فيه . إذن فهى نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل : أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وبما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وبما أن المحرم محصور ؛ لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حينما تكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال فى آية :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾

(سورة إبراهيم)

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾

(سورة النحل)

وظاهر كلام الناس يقول : إنها عبارات تقال وتتكرر ، ولكننا نقول : يجب أن ننتبه إلى أن النعمة تحتاج إلى من يعطيها وهو المُنعِم ، ومن تعطى له وهو المنعم عليه . إذن فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنْعَم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة المنعم عليه فهو ظلوم كفار . لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق ؟

إنه سبحانه لو عاملنا بكفرنا وجحودنا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استدامة نعمة الله علينا فضل منه ورحمة لأنها تشملنا حتى ولو كنا ظالمين وكنا كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتى بهاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لن نقدر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلوم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له : لا تيأس ؛ فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تستحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسى .

لكن هناك مقومات تخدم المقوم الأساسى . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح وندرسه ، ونصنع من حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزاً . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض ـ وهو مقوم أساسى ـ إن القمح يحتاج إلى رى منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالذى خلقنا قدر لنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدر لنا كل هذه الأشياء ، فعلينا أن نسمع تعاليمه . وهو قد أوضح : إياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلق فأنا مُحِلّه لك ؛ لأنى قد أخلق خلقاً ليس من طبيعته أن

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيها تتناوله كالحرث والرى والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر فيك ولكن لها عمل آخر فى الكون . وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صممت هذه الآلة ـ على سبيل المثال ـ لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبنزين ، والبنزين أنواع ، ولو جئنا للآلة التى تدار ببنزين ووضعنا لها سولارا ، ما الذى يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا فى المجال البشرى فما بالنا بخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صنعته وهى الإنسان ووضع المواصفات التى تسير هذه الآلة ، وعلينا أن نخضع لتعاليمه حتى لا تفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ؛ لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التى من صناعتك تفسد .

وفى حياتنا آلاف الأمثلة .. فالذى صنع الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لنأخذ الضوء أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ فى هذه التوصيلات الكهربية ؛ نفاجأ بحدوث قطع فى الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطىء .

إذن فكل تكاثر وإنجاب من كل سالب وموجب أى ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صنعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تزوجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شىء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق فى الكون .

ولذلك تجد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، تجد ولى الزوجة وهو مبتسم منشرح يوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس فى المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذى يحدث فى قلب والدها ؟ إنه يغلى من الضيق والغضب والتوتر ومن الذى يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يدق الباب ويخطبها من أبيها ؛

فالأب يفرح ، فقد جاء فى الأثر : (جدع الحلال أنف الغيرة) .

ونجد الأب ينتقل من موقف الغيرة إلى موقف الفرح يوم زفاف ابنته ، وتذهب الأم صباح اليوم التالى للزفاف لترى حالة ابنتها ولتطمئن ، هل الابنة سعيدة أو لا إذن . فلا يقولن أحد:إن الله خلق أشياء فلماذا حرمها ؟، لأن الله خلق تلك الأشيا ولها عمل فيما أحل ، ومادام سبحانه قد جعل لهذه الأشياء عملاً فيما أحل . فليس لك دخل إلا بالحلال .

ولذلك يقول الحق رداً على تساؤل المؤمنين : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » أى أن كل طيب قد حلله الله ، وكل خبيث حرمه الله ، فلا تقولن هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حراما ، ولكن قل : هذا حلال فيجب أن يكون طيبا ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثا . وإيا أن تحكم أولا بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تبنى على ذلك التحريم والتحليل فأنت لا تعرف مثلما يعرف خالقك عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك حتى لا تقع فى دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة ؛ كهؤلاء الذين يتناولو المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن تحرص على فهم ما أحل الله فست طيبا ، وترفض ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا تظن أبداً أن كل طيب ظاهريا محا لك ؛ لأن هذا الشيء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثا .

وعليك أن تترك تحديد الطيب والخبيث لخالقك ، فهو أدرى بك وبالمناسب لك أمّا أنت فتعرف الشيء الطيب من تحليل الله له . وتعرف الخبيث من تحريم الله له والحكم هنا يكون للتكليف ، فالله هو الذى خلق ، والله هو الذى يعلم الصال للإنسان . فالمسألة إذن ليست العناصر ؛ ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، فه الذى قدر فهدى .

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى : أن الحق أحل للمؤمنين الطيبات وكل شي أحله الله يكون طيباً ، وكل شيء حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا تنظر أنت إلى الآر البشرية التى يقول بعضها على شيء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشيء خبي فيكون حراماً ، فأنت وغيرك من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائد

ولا مضرتها بالنسبة لك . والدليل : أن البشر يتدخلون فى بعض الأحيان فى تحريم أشياء بالنسبة لبعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض : أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من البشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحى ونستمع لأمر الخالق ؟! بل نتجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يا رب الشىء الفلانى ؟ وقد يخطىء الطبيب لكن الله لا يمكن أن يخطىء . فهو ربنا المأمون علينا ، فما أحله الله يكون الطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، فعلى سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطىء وفى غير موضوعه بقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عملى يأخذ كل وقتى . ولا فسحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما فى الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبنى التكليف عليه ؟ لا . عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟. فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذى علم وسع الإنسان فى العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله واعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألنا ما تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية لها ، وقدم الله الإجمال الذى سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المسئول عنه فى مسألة الصيد بالكلاب ، فجاء لهم بالبيان فى مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال : « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلينا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

لفهم عن النص ، فالحق يقول هنا : « أحل لكم الطيبات وما عَلَّمْتم من الجوارح » هل الكلاب والفهود والنمور التى تصطاد بواسطتها هى المحللة لنا لأننا علمناها لصيد ؟ لا . « أحل لكم الطيبات » هى قضية منتهية . وبعد ذلك فهنا كلام جديد هو : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم » .

إذن فالذى أُحل هو ما أمسكت ما علمت من الجوارح ، وليست الجوارح التى يعلمها الإنسان ، أى أن الحق أحل لنا الطيبات وأكل ما أمسكت علينا الكلاب التى علمناها للصيد . و« الجوارح » مفردها « جارح » ومعناها « كاسب » ، ولذلك تسمى أيدينا جوارح ، وعيوننا جوارح ، وآذاننا جوارح ؛ لأننا نكسب بها المدركات . فالعين جارحة تكسب المرئى ، والأذن جارحة تكسب المسموع . والأنف جارحة تكسب المشموم . واللمس جارحة لأننا نكسب بها الملموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

و« ما جرحتم » أى ما كسبتم ، إذن فالجارحة هى الكاسبة . وقوله الحق : « وما علمتم من الجوارح » مقصود به الحيوانات التى نعلمها كيف تصطاد لنا ، وسميت جوارح ، لأنها كاسبة لأصحابها الصيدَ ، فالإنسان يطلقها لتكسِب له الصيد ، أو أنها فى الغالب تجرح ما اصطادته . وكلا المعنيين يصح ويعبر .

والأصل فى ما عَلَّم الإنسان مَن الجوارح هو الكلاب ، وألحق بالكلاب غيرها مثل الفهود والنمور والصقور . والحق قال : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله » أى ما بذلتم من جهد فى تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان لا يطلق الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم - أولاً - بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك : عندما يقوم مدرب القرود بتدريب كل قرد على الألعاب المختلفة ، وكذلك مدرب « السيرك » الذى يقوم بتدريب الأسود والفيلة ، فهذا الفيل الضخم يقف بأربعة أرجل على اسطوانة قطرها متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما علمكم الله وألهمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طول البال وسعة الحيلة .

ونتنبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل ـ على سبيل المثال ـ لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها . وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذى درّبته وروّضته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته ونسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعنى الإنسان الذى يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أى الرجل الذى يقتنى الكلاب ؛ لكننا نقول : إن الإنسان قد يقتنى الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذى يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذى يدرب الخيل ؛ فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه فى جر العربات .

ولماذا ذكر الله « المكلبين » ولم يذكر مدربى الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشيء . و« مكلبين » تعنى المنقطعين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتى ؛ فالكلب يطيع الأمر . ويأتى بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها فى هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا زجرته انزجر ، وإذا استدعيته جاء ويأتى بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حدد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التى تؤدى هذه المهمة : « مما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيمانى ، فالتدريب العضلى هو عملية يعلمها المكلِّب للكلب ، أما الإطار الإيمانى فهو ذكر اسم الله على الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع فى دائرة « ماأهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

صاحب الكلب قد قال : « بسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد . وإن لم يذكر اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد ، فإن كان فى الصيد حياة فليذكه أى يذبحه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه . وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية .. إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » هذه هى القضية العامة ، ومن بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التى نعلمها الصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تذبح الصيد الذى اصطاده الكلب ، فذكر اسم الله مسألة أساسية فى تناول النعم ، لأننا نذكر المذلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .[1] .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله فى هذا المجال تعنى ألا يؤدى الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وعلى المؤمن أن يتقى الله فى تنفيذ أوامره بنية خالصة ودقة سلوك ؛ لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى ، فمهما طالت دنياك فهى منتهية . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد . وإياك أن تستطيل عمر الدنيا ؛ لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك . إذن مدة الحياة محدودة ، ومادام الموت قد جاء ، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[2] .

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان منا كم ساعة قد نامها ، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى حل الأكل من الذبيحة أو الصيد الذى لم يذكر اسم الله عليه واكتفى بالتسمية عند الأكل ، هذا إذا لم يكن الذبح أو الصيد قد أهل به لغير الله .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الموت وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والزبيدى فى اتحاف السادة المتقين .

﴿ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدرى كم مات إلا يوم البعث . أو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعندما يرتكب العبد المخالفات التى نهى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يجازى العبد فى الدنيا فى نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين . وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة فى الحساب فى الدنيا ويصح أن تكون فى الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع فى أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن ظناً خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة فى طابور طويل ليتلقى كل واحد حسابه . لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : كيف سيحاسب الله كل الناس فى وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر ؟ . فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد هو قادر على حسابهم فى وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابورا فى الرزق ، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسعى فى أرض الله لينال من فضله . ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله ؛ لأن الزمن إنما يُحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى زمن .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قُوّته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخالق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعانى .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق : « اليوم أحل لكم الطيبات » . وأعاده حق يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه محلل من الله .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية تناول المحللات ، وأسلوب التعامل مع الصيد . نأتى هنا لوقفة ، فسبحانه يقول : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا ؟ إن بعضهم يأكل الخنزير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم ، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسماء ارتباطا حقيقيا كالمسلمين ، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعا بالسماء ، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء .

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل فى الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك ؛ لأن الله يريد أن ينشىء شيئا من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره .

وضرب لنا ـ سبحانه ـ المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجىء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم ؛ كانت هناك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله .

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام . نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده ممن يكفرون بالله . ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والذين آمنوا معه مع الروم ؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يضربها الحق مثلا فى القرآن ليعطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عنده رائحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الآيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيغلبون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظميين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزن ـ القوة الإسلامية ـ لأن الفرس قد غلبت . فيأتى الحق بالخبر اليقين وهو ستَغْلِبُ الروم .

وبالله من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظميين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا قادما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين . فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستحد
بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجازف بهذا الحكم
وهو لا يعرف استعدادات كل قوة وحجم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر يأتى ك
موثق من الله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾

(سورة الرو

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبداً . وعندما سمع أبو ب
الصديق هذه الآية ، قال : لقد أقمت رهاناً بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين
وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمد مدة الرهان لأن الله قال : « فى بض
سنين » والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وس
لسيدنا أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فزايده فى الخطر وماده فى الأجل فجعلت مائة قلو
(ناقة) إلى تسع سنين . كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين ؛ لأن ا
سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت
الذين يؤمنون بكتاب وبرسول . ونحن هنا نجد الحق يحلل لنا مطاعمة أهل الكتا
حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء : « وطعام الذين أو
الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » .

وأوضح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ
قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن
يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾

(سورة الممتحنة

فسبحانه يريد أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نساوى بين ملحد مشرك ومؤمن بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى . فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالا فى منهج الإسلام . ويجب أن يتنبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لدينا . فلا يشرب المسلم خمراً ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل ؛ فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

والمحصنة لها معنيان : وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأمة ، وإما أن تكون المتزوجة ؛ لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تختلط اختلاطا غير شريف . وكانت الحرة قديما لا تفعل الفعل القبيح . وكان البغاء مقصورا على الإماء ؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل ، وهى مُهْدَرة الكرامة . ولذلك نجد أن هنْدا زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت : يا رسول الله أوَ تزنى الحرة ؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية ؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها .

والمحصنة أيضاً هى المتزوجة . ويساوى الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العفيفة ويشترط وضع المهر لكل واحدة منهن . وبعض العلماء يقول : عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى ، أما الزواج من كتابية فيجب أن يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك . فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود . ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً . والشرط أن يكون الرجل محصناً أى متعففاً .

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متخذى أخدان » أى صدائق لهم دون زواج ،

السفح هو الصب . والمرأة البغى هى من يسفح معها أى رجل ، والخدن هى الخليلة أو العشيقة دون زواج ، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى . وإياك أن تفكر فى أمر إقامة علاقة زواج متعة ، بل لا بد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج التأبيدى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الأخرة من الخاسرين » ؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلها وينفذها . فإن سترت شيئا من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق لا يضره أن يكفر الناس جميعا ؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال .

إذن فالعالم كله لا يضيف إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان . فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له ، وستر حكما منها فكأنه كفر بقضية الإيمان . وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول : « إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى » .

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر فلا . والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل . وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يلتزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الأخر . وهنا يوضح الحق للإنسان : إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التى تدل على أن العمل بطل وذهب ذهابا لا يعود . فالماشية حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى « الرِّبة » ، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت .

والعرب تسمى هذا الداء الحُباط . فالحَبَط إذن هو انتفاخ البطن فى الماشية التى تأكل أكلا غير مناسب لها . ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هى تموت فى الواقع .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله . والحق بدأ قضايا الإيمان فى هذه السورة بقوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيمانى يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عُقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ؛ هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتى نتيجة أن الإنسان أنهى عمله وختمه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب البهيمة لترعى شيئا لا يتناسب معها فينتفخ بطنها . فيخيل للرائى أن ذلك شبع وأن ذلك عافية ، ثم لا تلبث أن تنفق وتموت . كذلك عمل الذى يكفر بالإيمان ، يظن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشىء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ؛ فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ونعلم أن السراب هو شىء من انعكاسات الضوء يخدع الرائى السائر فى الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجده ماء ، هكذا يكون عمل الذى يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أى أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء لله حتى يأخذ منه أجراً ؟. لا . لم يعمل لله ، ولذلك نجد أن بعض السطحيين فى الفهم يقولون : كيف لا يجزى الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التى تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم فى الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله فى بالهم ، كان فى بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود فى الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ووضعت فيهم

المؤلفات لتمدحهم . هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون بتقدمهم فى العلوم ؛ مسخرون للإنسان المؤمن ؛ فالمؤمن يستفيد من الكهرباء ، وينتفع بها المسلمون ليقرأوا القرآن والعلم والذكر . ويستفيد المسلم من الطائرات ليذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، وينتفع بها كذلك فى شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكونوا أذلة وعالة على غيرهم . والحق يسخر علم الكفار للمؤمنين ، ولا يثاب الكفار على هذا العمل من الله . ولذلك يقول الحق عن أعمالهم مرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وها هوذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذى يستر الإيمان بعضه أو كله ، هو إنسان حابط العمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ، لأن النجاح فى الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . ومادام قد عمل لغير الله فى الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين فى الآخرة .

وقوله الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ويغرر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة والجاه والثروة نتيجة اختراعاتهم ؛ فكل ذلك أمور فانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، فإما أن يفوتهم النعيم وإما أن يفوتوا النعيم . والحساب الختامي يكون فى الآخرة ، فالكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب فى ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو خاسر فى الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً وافياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، يوضح : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن آخذ بأيديكم بعد أن بينت لكم فضل هذه النعم عليكم ؛ لتلتقوا بصاحب كل هذه النعم . هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لنلقى المنعم . وحتى تلقى أيها المسلم الإله المنعم ـ سبحانه ـ فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ؛ لأنها ليست مسألة طارئة ؛ فلا بد من الإعداد الروحى والإعداد البدنى والإعداد المكانى والإعداد الزمانى .

إن الإعداد البدنى يكون بالطهارة . والإعداد الزمانى هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكانى هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهى بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيىء النفس البشرية للوقوف بين يدى من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك نقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء الإيمانى للخالق الممد المنعم ؛ فهو الذى خلق من عدم وأمد من عدم . وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ ليقطع على الإنسان سبيل الغفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلقى الله فى الأوقات التى بين الصلوات ؛ وأراد أن يعلن استدامة الإيمان وهو يقوم بأى عمل غير الصلاة فليذكر الله ؛ لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة . والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أن أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة . لنقل له : افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تنتفع بحركة متحرك واحد

الحياة ، ولا تتناول أى طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يقدمه لك إنسان هو من
مل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة . ولنقل أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟.
ه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك من زرع القطن وآخر حلج هذا القطن
الث حوله إلى غزل ورابع نسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب . ولتنظر إلى
خلّف كل واحد من آلات . وإياك أن تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب
دمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ؛ لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به
هو واجب . ولذلك فَتَعَلُّم المهارات المفيدة للحياة هو فرض كفاية ؛ والفرض
واجب على الإنسان : أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلف به الفرد ولابد
، يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحدٌ نيابة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفاية : وهو
لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل منا يريد الطعام .

لذلك لا بد من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بد من زراعة
قمح ولا بد من إقامة المطاحن ولا بد من إقامة الأفران . ولا بد من مهندسين
يصممون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء
صلاة ؛ وأن يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة . إذن فكل ذلك أمر واجب ، وهو
ض كفاية . أى أنه فرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يقم به
ضنا يكون الإثم على الجميع .

ومثال آخر هو الصلاة على الميت هى فرض كفاية ، فمن يصلى على الميت فهو
دى عنا ، وإن لم يصل أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، هكذا تتسع
عة الإثم . وكل الأعمال التى لا يتم الواجب إلا بها فهى واجب ، ولذلك فهى
ض كفاية ، إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به البعض
لإثم على الجميع .

وما موقف ولى الأمر فى هذا ؟. على ولى الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية
ى أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التى نقول عنها : إنها واجبات دينية .
ين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد خبزاً ؛ يضعف ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل لينتج أو يجد ادخاراً يكفيه أن يحج . إذن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما حثنا على أداء الصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ ، لنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : « وذروا البيع » وحين يذر الإنسان البيع ، فهو يذر الشراء من باب أولى ؛ لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة . والخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كاره لأن يشترى ؛ لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه ، أما البائع فيريد أن يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالبا ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسب . فكسب الزارع ـ على سبيل المثال ـ يأتيه بعد شهور من الزراعة . وكسب الموظف يأتيه أول الشهر . لكن البائع يحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أن نذر البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة ، وماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ .

ها هوذا الحق يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقولن أحد أنا منقطع طوال حياتى للصلاة . فلن يستطيع أحد أن يذهب إلى الصلاة ما لم يكن يملك مقومات حياته . ومقومات الحياة تقتضى أن يضرب الإنسان فى الأرض . ولا بد أن يبتغى الإنسان من فضل الله . إذن ، فالسعى فى الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ويريد الحق سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإنكاحاً عن الصلاة . فيأتى الحق سبحانه وتعالى بشروط الوضوء استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

حكام تحليل الأطعمة وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام النكاح ، وذلك لنعرف ن مسئوليات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن نعزل عملاً ونقول:هذا عمل عبدى وذاك عمل غير تعبدى .

والمؤلفون عندما يضعون الكتب فى الفقه ويخصصون أقساماً فى هذه الكتب لعبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصنيفى تأليفى ، لكن كل ا يطلبه الكون لينصلح فهو عبادة لخالق هذا الكون ، بدليل أنه قال : « فاسعوا إلى كر الله وذروا البيع » وهذا أمر . ويتلوه أمر آخر : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى لأرض » .

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن ينفذ لأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان فى أى من الأمرين فهو مذنب ؛ لذلك يخبرنا سبحانه ـ من بعد الحديث عن النعم التى أنعم بها علينا ـ بما أحل لنا من بهيمة لأنعام ، وبما قص علينا من الزواج من المحصنات ؛ ها هوذا يدخلنا إلى رحابه لاستعداد للصلاة لأنه واهب كل النعم . ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل احد منا نفسه لها .

وهذا الإعداد يؤهل المسلم ليلقى الحق فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ

فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية فى الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هى السنن التى تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شىء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تماما من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب وغسل الوجه معروف تماما للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى لحييه وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ، هذا فى الطول، وفى العرض يشمل الوجه ما بين شحمتى الأذنين . ولا أحد يختلف فى

تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك م
كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف فى مدلول الوجه لد
الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأ
بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم نتمضمض ونستنشق .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التى هى من السنن : إنها لم تأ
اعتباطا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، و
تغير أى وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخ
الماء بيديك ستطمئن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأن
تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له
وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذى تستعمله فى الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قب
أن تبدأ فى عمل المطلوب من أركان الوضوء التى يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا عل
الأركان لحكمة هى أن توفر للإنسان الثقة فى الماء الذى يتوضأ منه . وبعد ذلك
يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولا وما بي
شحمتى الأذنين عرضا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وميز الحق هنا الأيد
بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أى أنه زاد غاية لم توجد ف
الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق فى اللغة ويراد ب
الكف ، مثال ذلك فى حكم الحق على السارق والسارقة :

﴿ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد ب
إلى الكتف . فلليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل
بـ « إلى المرافق » لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق
ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد
لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق » .

إذن فساعة يريد الحق شيئا محددا ، فهو يأتى بالأسلوب الذى يحدده تحديدا يقط

الاجتهاد فى هذا الشىء . وكلمة « إلى » تحدد لنا الغاية ، كما أن « من » تحدد الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق فى الغسل أم لا ؟ إنّ « إلى » قد تدخل الغاية ومرة أخرى لا تدخل الغاية .

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ولم يدخله ؟ لا أحد يعقل ذلك . إن « إلى » هنا تقتضى أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة فيه . ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل فى الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل فى الصوم لصار فى الصيام وصالٌ أى نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع « إلى » تجد الغاية تدخل مرة ، وتجدها لا تدخل مرة أخرى . واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل فى الغسل أو لا ؟ وصار فى عموم الاتفاق أن يدخل المرفق فى الغسل احتياطيا ؛ لأن أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من أين وإلى أين . ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلى فى البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلى إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالنقص ، فنتوجه إلى الكعبة وهى البناء العالى فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى ان الاحتياط هنا يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طفنا حتى م
وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام .

إذن فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة يكون بالزيادة . وفى مجال الوضوء يكو
غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون الغاية بها مرة داخلة ، وم
تكون الغاية بها غير داخلة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلو
هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح . كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه ع
اطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل اليدين إلى المرافق ، وتم تحديد الغا
لأن الحق يريد الغسل لليدين على لون يقطع الجدل والاجتهاد فيه . ولو قال الحق
« امسحوا رءوسكم » مثلما قال : « اغسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف . لك
لو قال : « امسحوا بعض رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض
يحدد . ولو قال : « امسحوا ربع رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوج
خلاف لأن تحديد الربع عسير وشاق .

لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الأ
أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وه
الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم
ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم » .

إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعان كثيرة . قال ابن مالك فى الألفية :

بالباء استعن وعد عوض الصق
ومثل « مع » و« من » و« عن » بها انط

ومقصود بها أن نعطى الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعا
مثل : كتبت بالقلم ، ولتعدية الفعل اللازم نحو : ذهبت بالمريض إلى الطبيب
وللتعويض مثل : اشتريت القلم بعشرين جنيها ، والالتصاق نحو : مرر
بخالد ، وتأتى بمعنى « مع » مثل : بعتك البيت بأثاثه أى مع أثاثه ، وبمعنى « من
مثل : شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى : « س
سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، وتأتى أيضا للظرفية نحو : ذهبت إ

فلان بالليل أى فى الليل ، وتكون للسببية نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : « فسبح بحمد ربك » أى سبح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يقتضى الإلصاق ، والآلة الماسحة هى اليد . وهناك من يقول: نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ربع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محددة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومادام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتمل معانى كثيرة ، لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح .

والأمر هنا أن يتفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخَطِّىءَ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمى لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ؛ كحركة الجوارح ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالموت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا ؛ ففى أشياء يقول لك : « افعل كذا » أو « لاتفعل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أدائها . وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يَصُب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ؛ هذا الرسول الذى أوكل إليه الحق إيضاح كل ما غمض من أمور الدين ؛ فقال له الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

(سورة الأحزاب)

هذه المعركة كانت قاسية ، حرك الحق فيها الريح وتفرق فيها أعداء الإسلام ، صرف الحق الأحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من فروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون . لكن قبل أن يخلعوا ملابس الحرب جاء بريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ : نعم : فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد يهم فمزلزل بهم . فـ (أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤذنا فأذن فى ناس : « لا يصلين أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قُريظة فأدرك بَعْضَهُم العصرُ فى طريق ، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلى لم يُردْ منا ذلك كر للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يُعَنِّف أحدًا منهم »[1] .

هى مسألة كبرى إذن . والتزاما بأمر النبوة خرج الصحابة إلى مواقع بنى قريظة . ادت الشمس تغرب وهم فى الطريق ؛ وانقسموا إلى قسمين ؛ قسم قال : ستغيب شمس ولم نصل العصر فلنصله قبل أن تغيب الشمس . وقال القسم الثانى : لقد رنا النبى ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ، ولن نصليه إلا هناك وإن غابت شمس . وصلى القسم الأول ولم يصل القسم الثانى .

وعندما ذهبوا إلى المشرع وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم ب على أى جانب منهم شيئا ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك فطنة النبوة ، فالنبى لى الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث يتطلب زمانا ويتطلب مكانا ، لذين صلوا نظروا إلى عنصرية الزمن ، وخافوا أن تغيب الشمس قبل ذلك . لذين لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا فى مواقع ى قريظة . وأقر رسول الله الأمرين معا .

إن هذا يدلنا على أن هناك أشياء يتركها الحق قصدا دون تحديد قاطع لأنه يحبها ى أى لون ، مثال ذلك أن فعل من يمسح ربع رأسه فى الوضوء جائز ، وفعل من سح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالباء الصالحة لأى وجه من وجوه مسح الرأس ،

---

[1]) رواه البخارى فى صلاة الخوف وفى المغازى .

وكذلك شأن الخلافات فى الأمور الاجتهادية . وإذا كانت القاعدة الشرعية تقول : « لا اجتهاد مع النص » فهذا لا يكون إلا مع النص الذى لا يحتمل الاجتهاد .

وليس كل التشريع هكذا ؛ لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحينما كلف الله عبده الإنسان بتكليفات ، إنما كلفه بما يتناسب وتكوينه ، وكما أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مقهور عليها . فهناك الأحكام التى لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه المجتهد هو حق وصواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحتمل الحق والصواب . وكل ما وصل إليه طرف من الاجتهاد حق لأن النبى صلى الله عليه وسلم صوّب من صلى العصر قبل أن يصل إلى أرض بنى قريظة ، وصوب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى مواقع بنى قريظة . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتبر فعل كل فريق منهما صوابا .

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس : « وأرجلكم » . وكان سياق النص يقتضى كسر اللام فى « أرجلكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين . وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعنى أن الرجلين لا تدخلان فى حيز المسح ؛ إنما تدخلان فى حيز الغسل .

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه ، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها . ولم يأت الحق بالممسوح فى جانب والمغسول فى جانب ليدل على أن الترتيب فى هذه الأركان أمر تعبدى وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا ، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين : « وأرجلكم إلى الكعبين » . والرجل تطلق على القدم ، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ . ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين .

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف ، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه « يد » أيضا ، والمرفق فى اليد هو الحد الوسط ، و« الكعبين » هو الحد الأول فى الساق ؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة . إذن . ترتيب المسألة فى اليدين كف وساعد وعضد ؛ والمرفق فى وسط اليد ، وفى الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان . هى ـ إذن ـ مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية .

ويبين الحق لنا أنه إذا أراد أمراً بدقة فهو يحدده بلا تدخل أو خلاف . أما إذا جاء مر غير واضح فهو إذْنٌ منه سبحانه أن نجتهد فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار فى ض ما تعبدنا الله به ، وكله داخل فى مرادات الله ؛ لأن إيراد النص ـ شاملا ـ لكل فهومات هو إذْنٌ بهذا المفهوم وإذْنٌ بذلك المفهوم .

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى كعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا » . إنّ الوضوء شرع لغير الجنب . أى أنه لمن يُحْدِثُ دثا أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذى ، وبين إخراج يمتع ، فإنزال المنى أو حدوث الجماع يقتضى الطهارة بالاغتسال . ونعلم أن إنسان حين يستمتع بطعام ؛ أو يستمتع برائحة ، أو بأى شىء هو محدود بوسيلة استمتاع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدرك لذته . وهى سألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يدل على أن جميع ذرات تكوين الإنسانى مشتركة فيها . ومادام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل إنسان كل جسمه :

« وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من غائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم يديكم » .

وقد يقول قائل : أليست « لامستم النساء » كالجنابة ؟

ونقول : إن الذى يجىء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه ، لأن الحق نب لعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً ، لذلك لن يكلفه بشىء قد لا يجده ، فقد يجد الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن كلف حتى فى حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، هنا سمح سبحانه للمريض أن يصلى جالسا ، أو مستلقيا أو يصلى بالإيماء برأسه ، أو لى بأهداب عينيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على ه ؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان مادام فيه عقل .

إننا نعرف أن الصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب ستدامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة فى العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضا ، ويطعم غيره ، أو يؤديه فى أوقات أخرى إن كان مريضا مرضا مؤقتا أو على سفر . وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحى ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبى التكليف بالصلاة » . بل استدعى الله النبى صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل - ولله المثل الأعلى - حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسيه ، فالموضوع قد يأخذ دوره فى الأوراق اليومية التى تتنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مُهمًّا فهو يتصل بالقائد التنفيذى للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية فى الأهمية فالرئيس يستدعى القائد التنفيذى للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات فما بالنا - إذن - بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء ليكلفه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجىء إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحى من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدى هذا الفرض خمس مرات فى اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهى استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر فى حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ؛ ولا يمل الله حتى يمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تخطيطا ، فتقولوا : هذا للعمل والضرب فى الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم فى الأرض لتبتغوا من فضل الله ، إياكم أن تنسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم فى كل حركة يقصدها الإنسان لعمارة هذا الوجود ، وقد أراد الحق منا بوجودنا أن نعبده وحده لا شريك له :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية فى الفقه بحركة الحياة كلها . ونجد مثالا لذلك حينما تكلمنا فى سورة البقرة عن الأسرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ذلك أمر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام فى شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينقلنا من بعد الكلام فى تنظيم الأسرة إلى أمر نقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

إذن فقد أخرجنا من كلام فى نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متهاسكة متحدة فلا تقول : « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام فى الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة ينبهنا : إذا ذهبت إلى الصلاة فربما هدَّأت الصلاة من ثيرة غضبك وحماسك ونزلت عليك سكينة تعينك ألا تنسى الفضل بينك وبين زوجك .

فى هذه السورة - سورة المائدة - صنع الحق معنا مثلما صنع فى سورة البقرة ؛ فبعد أن تكلم فى أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية . طهارة أبعاض ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم فى أشياء وترك للاجتهاد مدخلا فى أشياء ، أحكمها فى ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينها تكلم عن الرءوس لم يقل : « امسحوا رءوسكم » ولا : « امسحوا ربع رءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رءوسكم » مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم فى « الباء » ما تتيحه اللغة من « الباء » . إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأبعاض يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة .

ونلتفت إلى الكلام الذى تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم فى النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتابيات ، وفى هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيماوية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشىء ، والجنابة لها شىء آخر ؛ فعن الطعام ينشأ الأخبثان ، وعن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض فى الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلى فى الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هى الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إذن فعندنا تَطَهُّر بالماء وعندنا تَطَهُّر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ؛ أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة فى مكان غويط وهو الوطىء المنخفض من الأرض ، وكانت العرب قديماً تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا فى ستر ، رجالاً أو نساءً ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكى يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء ـ الذى يكون محصوراً ـ خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل فى متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللمس والملامسة ؛ فاللمس لا يقتضى المفاعلة ، أما الملامسة فتقتضى المفاعلة . واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفى حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيدا » و« الصعيد » هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الآجُرّ) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ؛ لأن صنعة الإنسان قد دخلته .

والأركان المفروضة فى طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهى طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفى حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعدادا للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك فى الطهارة من الجنابة . ونلحظ أنه سبحانه جاء بالمسح فى الوضوء على بعض من الرأس كإيناس متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج ؛ فالإنسان الذى لن يجد ماء سيقع فى الحرج بالتأكيد ؛ لأنه يريد أن يصلى ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقى على نفسه بشرب الماء ؟ . ولا يريد الله أن يُعْنت خلقه ولا أن يوقعهم فى الحرج ، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفى كبديل للماء . « ولكن يريد ليطهركم » .

وإياك أن تفهم أن الطهارة هى للتنظيف ؛ لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط ، فلماذا إذن نمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسى بـ« الكولونيا » . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه ـ وهو الله سبحانه ـ وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحا ليستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذى يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإنسان فى قربه منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« وليتم نعمته عليكم » والإنسان مغمور بنعم كثيرة . فهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له . ومع ذلك يشتاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بتمام النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه ؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله . وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهى نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذى أنعم على

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال فى المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن فقوله الحق : « وليتم نعمته عليكم » أى أنكم عشتم قبل ذلك مع نعمة المنعم ، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء ولكنى أريد أبى .

إن تمام النعمة ـ فى المستوى البشرى ـ أن يرى الإنسانُ المنعِمَ عليه وهو إنسان مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعى أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصلى فيلقى الله .

« وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر ، فهذا يعنى أنك إن فعلت ما آمرك به فستجد أمراً عظيماً . والأمر الطبيعى يقتضى أن تَشْكُر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلما قال الله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنّ السمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى تلمح آثارها فى نفسك مما يربى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى

وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وللإنسان أن يسأل : وما هو الذكر ؟. الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد فى تكوين الجهاز العصبى الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، ومخيلة .

ومن عجيب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان فى زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنسان ظرف من تداعى المعانى فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ؛ فلما تداعت المعانى تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذاالشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة - إذن - معناها أن يستدعى الإنسان المحفوظ ليصير فى بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثرمن عشرين عاماً . ونسى الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة فى حواشى الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان فى الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعانى فالحادثة تأتى فى بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت فى بؤرة الشعور من حواشى الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان . وهذه هى قوة الخالق جل وعلا .

وقد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام . ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيمسح الكلام الذى سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فساعة تأتى المسائل فى بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها . وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تتزحزح المسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهى تحفظ الخاطر الأول فى حواشى الحافظة . ولا يمسح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعى الخاطر القديم ، كان ذلك فى مقدوره ، وهذا هو الفارق بين تسجيل الخالق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعانى ، فالذى يخزن فى ذاكرة الإنسان ليس أجْرَاماً ، فلو كانت أجراماً لما وسعها المخ . ولهذا فالمعانى لا تتزاحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعى المعانى فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت المعانى ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها فى الذاكرة .

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال فى العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفريست » ، وجبال « الهمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود فى ذهن الإنسان معانى هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكائنات ، لذلك فلا تزاحم أبداً فى المعانى بل تظل موجودة ومختزنة فى الذاكرة وحاشية الشعور .

وإياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشىء من مرة واحدة : وآخرَ أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشىء مرتين ، وثالثاً يحفظ عن ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كآلة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شىء يضبب عدسة الصورة فهو يعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يأخذ لقطة لشىء ما لتستقر فى بؤرة الشعور وفى بؤرة الشعور شىء آخر ، فالشىء لا يستقر فى الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون اللقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع فى بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذى يدخل ساحة المدرسة التى يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يأتى له واحد من زملائه ويقول له : هل ذاكرت الموضوع الفلانى . فيقول الطالب : لا لم أستذكره . فيقول الصاحب : هذا الموضوع سيأتى منه سؤال فى الامتحان . فيخطف الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا الطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على الغداء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرصته ضيقة ، ويركز كل ذهنه ليستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يجيب عليه بأدق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جلس لأيام يحاول استذكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان خاليا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون الذهن شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيىء ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يضيع فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن انطباعات الإنسان فى نعم الله لا تُنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنر دقة الأداء القرآنى : « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فنعم الله كثيرة ،ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائما ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد .

وكلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » و« واثق » تقتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والفقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة) .

إذن فـ « واثقكم » تعنى التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » على وزن « فاعَلَ » ، ولا بد فى « فاعَلَ » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ؛ فنقول : « شارك زيد عمراً » ؛ وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عباده » أى أنه شاركهم فى هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أى ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذى هو ميثاق الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك هناك ميثاق العقل الذى نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الناس ، أى أخذ منهم عهداً على أن ينفذوا مطلوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً فى العقبة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربّك ما أحببت . فتكلم ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر[1] .

وحدث هذا ـ أيضا ـ عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فمعنى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيمانى فى عالم الذر ، وإما أن يكون العهد الإيمانى الذى جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول : سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهى مسألة التعاقد . ويتبع الحق ذلك بقوله : « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » . واتقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعلينا كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساوٍ مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل : وهل للنار أوامر ونواه ؟

ونقول : أحسن الفهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلنا من قبل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه فى الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . والنظرة السطحية تتساءل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

(١) رواه أحمد وذكر فى السيرة النبوية لابن هشام .

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجبار) صفة من صفات الجلال التى تقتضى معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضى أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ؛ لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرخى العِنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تَغْلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله عليم بذات الصدور » والتقوى - كما نعلم - لا تنشأ من الأفعال المحسة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا فى الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة . فالحقد ، الحسد ، التبييت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسات أيضا . وعمل القلوب له دخل فى تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

إنّ الحق - كما علمنا - حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بى إلها حكيما قادرا خذ منهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل فى دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضى بأن يسمع المؤمن التكليف ممن آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و« عباد » . فالعبيد هم المرغمون على القهر فى أى لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يدخلوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرداً يقول : « أنا لا أؤمن بإله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجريه الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فما الذى يحدث له ؟ أيجرؤ واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟!! لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجرى علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تقوله لنا « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجريه عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ؛ إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أمّا العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » . و« قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترف النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقبا فى باب بيته ؛ هذا الرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه فى الحياة ليس فى النجارة . وكذلك الهاوى الذى يخرج بالسنارة إلى البحر ؛ واصطاد سمكتين ؛ يقال له : « صائد » لكنه ليس صياداً ؛ لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ؛ أى مبالغ فى القيام بأمر الله . والقيام يقابله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلق ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقى هو المستريح على ظهره والحق يقول :

﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

أى اجعلوا الله دائما على بالكم ؛ فالإنسان يملك فى حالته الطبيعية نشاطا يمكنه أن يقوم ويقعد ؛ فإن قيل : « قام فلان بأمر القوم » أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شىء . وسبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط ؛ بل يريد أن نكون قوامين . ومادمنا قوامين فلن تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ؛ لله توجها . لا نفعا ؛ لأن أية حركة من أى عبد لا تفيد الله فى شىء ؛ فالله خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه ، ولم ينشىء خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقربا لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيمانى حركات ربانية متساندة متصاعدة . وإذا كانت حركات المجموع الإيمانى متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ؛ فالإنسان إذا ما كان قواما فهو قوام لنفسه وللآخرين .

والمراد أن نكون مداومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فأنت إن طولبت بالأمانة ، فقد طولب كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بغيرك ، وحين ينهاك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعاً بالانتهاء عن الخيانة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت.فلا يظنن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألاّ تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهرالحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداثاً تفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، و الذى يعمل لله يكون موصول النعيم ؛ فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت لفلان كذا وكذا وأنكرنى » . نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكفاك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فالمؤمن يجب أن يوضح حركة قيامه وينميها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضمرت وحملت قلوبهم الضغن والحقد لمن أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصنوع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقى صانع الجميل بعد ذلك قد تتخاذل نفسه وتذل ، ونرى فى بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يراه يكره وجوده فى مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك فى طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذى صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتضعضع ، وهو يريد أن يستكبر على الناس . إذن فالله يوضح : اعملوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شيء . واعلموا أن الله رقيب عليكم ولن يضيع عملٌ عنده .

وعندما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

أتستطيع أنت أيها الإنسان أن تصنع فى إنسان آخر ما يسوؤه أمامه ؟ . أنت تسيء إلى الآخر من وراء ظهره . فلماذا إذن يُسيء الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغيرك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا الحق كل الوجود وأعطانا كل مقومات الحياة ، ويوضح لكل واحد منا : يا عبدى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قوّاماً . . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذى لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون الفائض من

---

(١) رواه البخارى . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالإسلام والإحسان ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان .

عملك لغيرك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » يعلمنا الا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لأنه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه ـ سبحانه ـ يقول : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ويقول أيضا :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحين يكون الواحد منا قوّاماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة فى ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعدل من تحدثه نفسه أن ينحرف . وحين تكون قوّاماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم فى ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشرى ظلمه ويتفاقم شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم . لكن الظالم يجب من يدلس عليه ؛ فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة . وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد فى المجتمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكان الظالم ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهى من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهى من الألفاظ التى تستعمل فى الأمر وفى نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

« وقَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لها هو يقسط . والمصدر « قِسطا » ، ومرة يكون المصدر « قُسوطا » . والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقِسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً . أي جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتي بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التي تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا ننتبه إلى ما يلي : أن هناك فرقاً بين عَدْلٍ يأتي من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذي نستعمل له « أقسط » أي أزال الظلم ، فكأن جورا كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط ـ إذن ـ هو العدل الابتدائي . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قسوطا .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أي شهداء بالعدل . واللباقة في السامع هي التي توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلال السياق ، فالسامع للقرآن يُفْترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشيء والمشابه له من شيء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المقسطين » و« المقسطين » هي جمع « مُقسط » ؛ من : أقسط أي أزال الظلم والجور ، إذن فالذي يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدري . والمعنى المصدري لا يختلف باختلاف منطوقه ، فيقال : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، و« رجال عدل » ، و« نساء عدل » . إذن فإن أردنا بالكلمة المصدر فهي لا تتغير في المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

وهناك قول آخر :

﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وفى الريف المصرى نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار ، فيعاير قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام ، ويعاير قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام ؛ ومن كثرة الاستعمال وملامسة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل ، لذلك يعيد وزن الأحجار التى يستعملها فى الميزان كل فترة متقاربة من الزمن . ويقال : إنه يعاير الأوزان . وسمى القسطاس ؛ فالقسطاس هو الذى تعاير به الموازين ، فإذا صنع الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللمسة الواحدة . ولذلك يقول الحق : « ذلكم أقسط عند الله » ، « أقسط » هنا معناها « أعدل » . فموازين الله غير موازين البشر ، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف . ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع ، لكن الحق هو العادل الحق . وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل : « ذلكم أقسط عند الله » .

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدر حكماً ؛ وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر ، فأوضح الحق له الحكم الأقسط ، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة . ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشرى فى أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان عبداً لخديجة ـ رضى الله عنها ـ وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر اختطافه وبيعه كعبد وكيف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بابنهم . ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يبقى مع رسول الله ، وأراد رسول الله أن يكرم زيداً الذى فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ؛ فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب فى تلك الأيام . لكن الله يريد أن يلغى مسألة التبنى :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة التبنى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينزل القول الحق :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطيب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعلى منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافىء الله زيداً بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد فى الإسلام الذى يذكر فى القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه فى القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفى ذلك كل السلوى . إذن فـ « أقسط عند الله » جاءت فى محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن يكون قيامنا مبالغاً فيه ؛ أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ فى الدقة فى أداء العمل ، وأن نَعْدل فى المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ؛ لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإياكم أن تدخلوا الهوى فى مقاييس العدل . وهب أن المسألة تتعلق بعدوكم أو بخصومكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوبا .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التى حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلصقوا التهمة بيهودى وأن يبرىء نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخائنين مخاصما للبرآء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ؛ لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض فى إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعِداء والهوى يكون لصالح الخصوم ؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن ـ أى بغض ـ قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هى تقريع لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذا المسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه لأنه ليس مؤمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التى آمنت بها هى الحق ، وأنك تقيم الحق حتى فى أعدائك . وهكذا يقرع الخصمُ العقدى نفسَه ، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى أى تقوى ؟ أأقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فلعله

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أننى عدو له .

ولنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو مبيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يجب مسألته . وسار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بى ومع ذلك ما قبضت نعمتى عنه . وسألك الرجل لقمة أو مبيتَ ليلةٍ فلم تجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل واستوقفه ، فسأل الرجل سيدنا إبراهيم : ما الذى حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربى عاتبنى فى ذلك . فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وآمن الرجل .

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فالمعنى النفسى الذى يصيب خصمك أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن ، حين يراك آثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذى جعل الحق يعلو الهوى ويغلبه ويقهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضا من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذيل الحق الآية بقوله : «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» فهو ـ سبحانه ـ الخبير بما نعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يُقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حتى وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيرا من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عُرضت عليك قضية هى خصومة بين ابنك وابن جارك ؛ الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك ، لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك ـ وهو غير محق ـ ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعمَلوا أعمالاً

ظاهرها عدل وباطنها رياء ؛ لأننا نعلم أن لكل جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن فعلها أن تسمع ، والأنف أداؤه أن يشم ، ويجمع الجميع العمل . فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلا .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول محله اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾

وعندما نتأمل كلمة « وعد » نجدها تأتى ، وتأتى أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد » وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به ، تكون وَعَد للخير ، و« أَوْعَد » للشر . ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به ، فالاثنان متساويان ، فيصح أن تقول « وعدته بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » . لكن إن لم تذكر المتعلق ، فإن « وعد » تستعمل فى الخير . و« أوعد » تستعمل فى الشر . والشاعر يقول :

وإنّى إنْ أوعدتـه أو وعـدتـه
لَمُخْلِفُ إيعـادى ومُنْجِـزُ مـوعـدى

وحين يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إخلال به ؛ لأن الذى يخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ؛ فقد يأتى ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه فى

موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً ، لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده . أما وعد البشر فقد تأتى قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » سبحانه وتعالى يوضح أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصى فإن تابوا ، فلهم مغفرة ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فأنت قد تكون جالسا ويأتى واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة ، وفى اللحظة نفسها التى تمتد يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك ، أى اتجاهات سلوكك تغلب ؟. لا بد أنك سترد على من يضربك أولا . والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة . ونجده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تلفت القلب فهو يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار ، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة . فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة ؛ لذلك يقول الحق بداية : « لهم مغفرة » . والإنسان منا ساعة تأتى له الخواطر يفكر فى أشياء يطمح إليها ، وهناك أشياء يخاف منها . وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من المفسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

« لهم مغفرة وأجر عظيم » . وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمنى ، فأجر الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعانى يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون

النفس مستعدة ؛ لأن هناك تأميلا فى الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية بآية أخرى فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝١٠ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١ ﴾

والذكر ـ كما عرفنا ـ يعنى استحضار الشىء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرأ على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أنى لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفانى فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى :

« إذْ كيف أذكره إذْ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعنى « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المسألة ، لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته فى هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التى حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و« بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفى الآية تكون النعمة هى كف أيدى الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أى أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مرادا من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يبسطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ « إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا همّ قوم أن يبسطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففى ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شىء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال فى زمن مقطوع وسابق ، فهل يعنى الحق سبحانه وتعالى بحادثة بنى

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بنى النضير المعاونة فى الدية ، وكان النبى قد أرسل مسلماً فى سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبى ؛ مالٌ فذهب إلى بنى النضير كى يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحبا » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئا .

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهمّ » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد ، و« الهم » هو الشيء الذى يغلب على فكر الإنسان فى نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفى اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا فى هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذى لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذى لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أى عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أنه كان مشهوراً بأنه المفتى ؛ فهو يُستفتى فى الشيء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أى أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيذ من أن يوجد فى مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتى بهذا الكلام ؟. فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شيء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكنا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟.

فأجاب سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكأنه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسي والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ؛ والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » فى القرآن إلا أن نستعرض مواقعها فى كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين فى رسائلهم وفى لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يُفكر فى نفسه ، وإن كان التفكير فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى فهو محتمل . بل قد يكون التفكير فى الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ، لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يُجِلّون ويعظمون ـ أيضاً ـ سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن قد أرسل إليه، أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟ . لا ، لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فـ « همت به » أى صارت تحب أن تصنع العملية النزوعية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمُرَاوَد وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن ينزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنّه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شىء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الجنسى موجود تماماً ، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائما وإما أن يكون قاعدا وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائما . ونجد أن الراحات على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ؛ لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول : .

وما أدرى ولست إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنّه لم يكن هناك نساء قد فكرن فى أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟.

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (فى مجال العطاء) أما فى مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدى لاتطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى فى النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدى يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر فى التاريخ المحمدى مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدى للعمل . فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أى أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فماذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يبسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر - كما نعلم - هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

وإلى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرون على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولنلحظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولى ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته فى مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر تحمل الطعام لهم فى الغار وهى ترعى الغنم ، والأغنام تجد الحشائش فترعاها وتزيل الأثر الذى أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهى من الحيوان ، وكذلك فرس سراقة التى ساخت وغاصت قوائمها فى الأرض ، ثم الحمامة التى بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذى بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدى الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذى جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذى يهديه فى طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعانى تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعانى يستخدم هداية المادة ممثلة فى ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام فى دار الهجرة كان اليهود ـ برغم أنوفهم ـ ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبيا ظهر فى مكة ، قالوا : هذا هو النبى الذى توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وبايعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم[1] .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدم الحق ، والكفر يخدم الإيمان ، فها هو ذا عبدالله بن أريقط ـ وكان كافراً ـ يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجُعْل الذى رصدته قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدى كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هى القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التى حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان فى حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هو ذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[2] فخلا[3] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[4] ولم أجد منها شيئا ، فجعلت استنظره[5] إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مرويا عن ابن عباس.

(٢) فجلست : أى فتأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية فخاست أى خالفت ما كان معهودا منها من التمر

(٣) فخلا : أى تأخر السلف عاما .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع ثمر النخل.

(٥) أستنظره : أطلب منه أن يمهلنى .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءوني في نخلى فجعل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أُنظره ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جذ واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله »[1] .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيغمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلا من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشا . والذى عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقينى قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولا بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقا لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأهوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم فى الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التى حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، ونفض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هى كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحى ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلىّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه ـ وكان له ابن أسير لدى المسلمين ـ قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام »[1] .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك منى) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس »[2] .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذى يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر فى الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبى بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك منى ؟ لم يقل الرجل: « هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب فى كذب ، ولو كان مؤمناً بآلهته لقال أحد أسمائها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر فى كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التى لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هى التى زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفى معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت[3] عنك فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك ما صدفت عنك[4] . فقد رأى ابن أبى بكر والده ولم يقتله ، ولاشك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبى بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

(٢) البيهقى عن جابر وفى البداية (٤/٨٤) .

(٣) صدفت عنك : أعرضت عنك .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن أيوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينما يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب فى نفس أبى بكر . وكل من أبى بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبدالله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قفل معه فأدركتهم القائلة ـ شدة الحر فى وسط النهار ـ فى وادٍ كثير العضاه ـ شجر عظيم له شوك ـ فنزل رسول الله ، وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله . فها هو ذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1] .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلهمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وها نحن أولاء نرى الصحابة فى العهد الأول حينما اضطهدوا فى مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوى كريم ؟ لقد درس النبى أولاً الأرض التى تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبى أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة فى الجزيرة العربية عندما يأتى موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التى تحمى المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[2] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : من يمنعك منى . قال : لا أحد . وعند الواقدى أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذى بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده . وما أعظم المكافأة التى نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدى الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فالله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين لأنه ـ سبحانه ـ يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدى الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن فى لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شىء فى منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التى تحدث فى الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شىء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟. نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون فى معية الله . وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ؛ لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعنى فلأدخل قبلك فإن كانت حيّة أو شىء كانت لى قبلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟» فأخبره بالذى صَنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك »[1] .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يمرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

---

(١) أبو نعيم فى الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[1] .

وفى ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين فى معية الله ، ومادام المؤمن فى معية من لا تدركه الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟. نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر الأعلى .

وفى حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائله ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ، فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبث بمعية الله ؟. إذن فتقوى الله هى التى تجعل المؤمن فى معية ربه طوال الوقت . ومن يُرِدِ المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . ويذيل الحق الآية : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا:إننا بلا عَدَد أو عُدَّة . إنك مسئول أن تعد ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقى لله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمانى لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفىّ الدقيق الذى لا يُرى :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء فالمسألة تنتهى ولا تفلح عُدد أو عَدَد . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفعَّال للنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الذين يلحدون فى

(١) متفق عليه .

آيات الله فأنت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عاملٍ بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسبابِ ، أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يحبه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً للإيمان وتربية للأسوة وإنماء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك ـ يا محمد ـ شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

يُذَكِّر الحق هنا رسوله بالميثاق الذى أخذه من بنى إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء فى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » ولنر « التكتيك » الدينى الذى أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ؛ فاختار سبحانه اثنى عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لى نقيب ؟. وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلا للنزاع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذى يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يَدل على أن النقيب الصادق ينبغى أن يكون صاحب عينين فى منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالتنقيب ، أى معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه فى المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليعرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع فى حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأنّ على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعواملُ التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » فى كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقاب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق: « إنى معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظنن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقى على الله .. وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إنى معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إنى معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . و« لئن » تضم شرطاً وقسماً ، كأن الحق يقول : وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهى « إن » الشرطية .

والقسم ـ كما نعلم ـ يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول:« والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هى القسم . و« لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتى القسم فى جملة بمفرده فجوابه يأتى ، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة فجوابه يأتى أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط ؟ هل يأتى جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟. عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منهما ، هل هو القسم أو الشرط ؟؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ؛ فيأتى جوابه ، ويغنى عن جواب الثانى . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

ـ لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم .هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما فى حكمه ، فإن جاء والخبر أى المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أى فالراجح أن نأتى بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد . وابن مالك فى الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخرت فهو مُلْتَزَمْ
وإن تواليا وقَبْلُ ذو خبر
فالشرط رَجِّحْ مطلقا بلا حَذَرْ

والقسم قد تقدم فى هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه فى القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفى كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة فى باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهى لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هى أن تطيع مَن

تعبد فى كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهى هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن ننتشر فى الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأى إخلال بالأمرين ، إخلال بأمر تعبدى ؛ فأنت مأمور أن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركةً تكفيك ويَفِيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وآمنتم برسلى وعزرتموهم» أى أن ينعقد الإيمان فى القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرتموهم ونصرتموهم ، والعَزْر فى اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ؛ فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت فى حياتك إن كان لك حبيب أراده إنسان بسوء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تتمنى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن حبيبك . فالعزر هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شىء ، فمرة يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « نصرتموهم » ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « منعتموهم » . ونقول : كل المعانى هنا ملتقية ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإمّا أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضا أن يكون معنى « عزرتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى مَن تعول ، والباقى رُدّه على مَن لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون، ليس معناها مجرد أداء زكاة، بل تعنى أن يتحركوا فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس فى باله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ؛ فكأن إعطاء الضعيف كان فى باله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر فى المال غير الزكاة ؛ بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمانى بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذي يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نَظِرَةً إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضا حسنا » وهو الواهب لكل النعم وهو الولى لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضنى ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضا عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذى أوجدنا جميعا ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاً منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا . ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيتِ صاحبٍ له . واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالى للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة ؛ ولأن القرض دَيْنٌ ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمي المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك في الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يُكتب القرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحاثٌّ عليه . لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتي ظرف من الظروف ويتناسي القرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة في أي أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التي تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال في الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطي يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْئَمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفي ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمي الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابة : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كان رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزا للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

---

(١) رواه البخاري وأحمد من حديث أبي هريرة .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه . ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أى أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج من يَجِد ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضا حسنا » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظى يقتضى أن يقول : « أقرضتم الله إقراضا » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يقرض . وسبحانه يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة نوح)

و« أنبتكم » تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتا لا إنباتا.فمرة يأتى الله بالفعل ، ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ، لأنه يريد به الاسم . و« أنبت » يدل على معنى وينشىء الله لكم منها نباتا .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم » وفى ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيرا عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذى كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلا ، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها فى القرآن ونراها فى الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)

وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعانى ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول:وسط ، فهذا يقتضى أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل فى شيء وفى شيء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشترك اللفظى . . أى اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضى أن يكون الإنسان واقفاً فى نقطة هى مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها فى المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول:الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش فى البادية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق معبّداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاويتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى فى الوسط . ولذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يميناً فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يميناً أو يساراً واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذى يمشى عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف فى النار ؛ أى أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا

﴿ قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وساعة يقول الحق: « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء . فهل وفوا بهذا الميثاق ؟ . لا ، لقد نقضوا المواثيق فلعنهم الله . واللعن هو الطرد والإبعاد ، والحق فى ذلك يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله . لقد أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، فهناك من العلماء من قال : إنها زائدة ، وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » . ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله . ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء زائد ؛ لأن كل كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يحتم أن تكون فى هذا الموضع . فها هو ذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فى الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وفى الآية الثانية أورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وليس ذلك من قبيل التفنن فى العبارات ، فقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِن عزم الأمور » فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كارثة .

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . ومادام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدها الحق سبحانه وتعالى : إن ذلك لمن عزم الأمور » . ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وعندما يقوم النحاة بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخرة منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد . إنه التفاف طويل ، ولا يوجد حرف زائد ، فالإنسان يقول : ما عندى مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندى من مال » فـ « من » هنا تعنى أنه لا يملك أى مالٍ من بداية ما يقال له مال.ولذلك فـ «من » هنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تعنى لمعنى . إذن « ما جاءنا من بشير» أى لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وها هو ذا قول الحق :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكنا نقول : ما الأصل فى الاشتقاق ؟ . إن الأصل الذى نشتق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « ضرباً زيدا » أى « اضرب زيدا » . ومجىء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » .

مادام النقض مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز ان يأتى فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فبما نقضوا ميثاقهم لعنّاهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استفهامية للتعجيب . . أى فبأى نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقض للعهد .

وقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » . والنقض هو ضد الإبرام ؛ لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟؛ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطفو ليناقش من جديد فى الذهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بحله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد . وجاء اللعن لأنهم نقضوا الميثاق .

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ؛ لأنه لم يطبع على قلوبهم بداية ؛ فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم وطبع على القلوب فَمَا فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . و« قاسية » تعنى صُلبة . وفيها شدة . والصلابة مذمومة فى القلوب وليست مذمومة فى الدفاع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخُطاف ذمّاً فيه إنه أعوج . فالخُطّاف لا بد له من العوج ؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهمته ، إذن فعوج الخطاف استقامة له . وكذلك القسوة غير مذمومة شريطة أن تكون فى محلها ، أما إن جاءت فى غير محلها فهى مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ بسورة الزمر)

والقسوة مأخوذة من القَسِىّ وهو الصلب الشديد ، ونعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدراهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفى قد يُخرج واحداً منها ويقول : هذا زيف أو زائف لأنه قد سمع رنينها ، أهى صلبة فى الواقع أم لا ؟. وعندما تكون صلبة يقال لها : دراهم قاسية .

إنّ الذهب لين . والفضة لينة . فعندما نقول : إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أى ذَهَبٌ ليس به نسبة من المواد الأخرى التى تجعله قابلاً للتشكيل ، لأنه عندما يكون ذهباً صافياً على إطلاقه فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحلى ؛ لذلك يخلطه الصائغ بمعدن صُلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التى تتيح له

تشكيل الحلى منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار فى الذهب وكذلك الفضة . والمصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك الذهبية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أى صلبة . الصلابة ـ إذن ـ فيما يناسبها محمودة . وفيما لا يناسبها مذمومة كصلابة القلوب وقسوتها .

ويقول الحق : « يحرفون الكلم عن مواضعه » مثل ذلك نقلهم أمر الله الذى طلب منهم أن يقولوا: « حطة » فقالوا: « حنطة » « ونسوا حظاً مما ذكروا به » وكانت وسائل النسخ فى الكتب التى سبقت القرآن هى نسيان حظ مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم . فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلوا على ذكر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووا ألسنتهم به . وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هى أربعة ألوان من التغيير ، النسيان ، والكتم ، والتحريف ، ودسّ أشياء على أنها من عند الله وهى ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشىء الذى يأتى لهم بالحظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حظهم كبيراً ؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جنوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الحظ الجميل . وقد يراد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغْفِلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأتباعك ولمنهج الله الحق فى الأرض ستتوالى ، ولا أدل على ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إنهم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بنبى جاء من جنس آخر ليقتحم عليهم سلطتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة . و« خائنة » بمعنى « خيانة » مثلها مثل « قائلة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وفعلها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مبالغة كما نقول « راوٍ » و« راوية » ونحن نعنى رجلاً ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . والذى يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء لغوى عال .

ومن فرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله : « إلاّ قليلاً منهم » طبقا لقانون صيانة الاحتمال . فحين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق فيفكروا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدئوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام .

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكام الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

ندخل فى هذه الزمرة ؛ ونفكر فى أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر فى الإيمان . ومن فكر فى الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان فى نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك ستتعرض مستقبلا لخيانتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم ، فإذا فعل اليهود خائنة فلا بد أن ينتقموا منهم ، وتطبيقا للقاعدة الأساسية فى رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله ـ سبحانه ـ أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو هو كما نقول : فلان عفى على آثارى ، أى أن آثارك تكون واضحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر . والأمر بالعفو أى امسح الأثر لذنب فعلوه . والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أيظل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح يأتى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها ويأمر بالصفح أى أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنبا فى حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية : ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل فى قلبه بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلب المؤمن بشىء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة : فرصة مفتوحة لمن يريد أن يتمادى فى مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسانُ إلى من أساء إليه . وهذه المراحل الثلاث يوضحها قوله الحق :

﴿ وَالْكَـٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسىء أو المعتدى : أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذى يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك : لو علمت ما قدّمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذى يثأر ويأخذ الحق لمن أسيء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله فى صف الذى تحمل الإساءة .

إذن فإساءة العدو لك جعلت الله فى صفك وفى جانبك ، ألا يستحق ذلك المسيء أن نشكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله فى جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيمانى عن مرحلة :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئا فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ؛ والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه . ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما الذى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلا من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته فى الليل . ويضيف الحق مذكرا لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق »[١] .

ويضيف الحق فى استكمال صفات المحسنين :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ونلحظ أن الحق هنا لم يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم ، وذلك ليفسح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمن يزد فى العطاء فله رصيد عند الله . والحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ؛ لأن الإحسان إليهم يهيج فيهم غريزة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحقد من قلوبهم ، ويفتحون آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق :

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وُجد مُؤجج لها من عداوة فى المقابل . فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكم من الزمن يصير عدواً لك ؟ إنه اعتدى مرة وسَكَتَّ أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه . لا بد أنه يهدَىء من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث فى المعركة التى قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية ؛ لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهدأ الطرف المعتدى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان .

فهل هم التقطوه ليكون عدواً ؟ لا . لقد التقطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل فى أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامرى مثلاً ربته السماء بواسطة جبريل ، وولدته أمه منقطعا فى الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يطعمه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليربيه ، لكن موسى السامرى ـ الذى رباه جبريل ـ صار كافراً ، وموسى بن عمران الذى رباه فرعون أصبح رسولاً إلى بنى إسرائيل .
وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصادف فى بريق عناية
فقد كذب الراجى وخاب المؤمل
فموسى الذى رباه جبريل كافر
وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كأن آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، وتجىء العداوة من فرعون لموسى ، فيقول الحق :

﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الخيانات التى تحدث منهم ، لعل الوعى الإيمانى يستيقظ فيهم ، ويقولون : لم يعاملنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رءوفاً كريماً ، ولا يقفون فى وجه دعوته . لكن أيظل العفو والصفح هما كل التعليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد مر الأمر الإلهى بمرحليات متعددة ؛ فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبدها بالإحسان ، فإن لم يستعبدها الإحسان فلا بد أن يشمر النبى عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن

﴿ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفى هو :

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتى فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربى الجاهلى وخَبَرها قبل أن يأتى الإسلام ؛ فقد كان العربى يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر :

أناة فإن لم تغن قدم بعدها
وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه
من الحلم أن تستعمل الحزم دونه
إذا لم يسع بالحلم ما أنت عازمه

وقال الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ـن قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشر وأضحى وهو عريان
مشينا مشية الليث غَدَا والليث غضبان
بضرب فيه تأييم وتفجيع وإرنان
وطعن كفم الزق غَدَا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حيـ ـن لا ينجيك إحسان
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة إذعان

ومثل ما جرى للنبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع النصارى وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الذر وإما ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، فتفرقوا فى عداء ملحوظ فِرَقاً شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ ﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر حتى لا يقولن واحد منهم : لم يبلغنى عن رسولى شىء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وها هوذا رسول من الله يأتى حاملا لمنهج متكامل . ومجىء الرسول يمنحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق الإيمان . وهم قد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام . مثل الرجم والربا ، وقال بعض من بنى إسرائيل فى الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أى أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم ، ولكن لا ربا فى تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ؛ لأنه نبى انتظروه وهم فى كتبهم البشارة به . وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد فى الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ، لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتمانهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمة فى الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية فى الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صار فى حاجة إلى من ينير له الطريق . ونعرف أن النور هو ما نتبين به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قضية النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ؛ فالنور الحسى يبدد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو نقع فى هوة أو نكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بينة من أمره . والنور الحسى يمنع من تصادم الحركات فى المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبديد الطاقة يرهق الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس فى أثناء النهار تضىء الكون ، ثم يأتى القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها تهدى الناس فى ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صنع نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعانى والموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدى الإنسان سواء السبيل ، فإذا كان الكافر أو الملحد يتساوى مع المؤمن فى الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية فى الأرض ، ولم نجد أحداً يقول:أنا فى غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ونقول للكافرين والملاحدة : مادمتم قد انتفعتم بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن لله نوراً فى القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور بـ « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج ـ إذن ـ نور من الله . ولنقرأ :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا فى الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هى الطاقة التى توجد فى الجدار وهى غير النافذة ، إنها كوة فى الجدار يوضع فيها المصباح الزيتى أو « الكيروسيني » وتوجد فى المبانى البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمتراً ولا يزيد عمقها على خمسة عشر سنتيمتراً ؛ أما الحجرة فمساحتها تزيد أحياناً على ثلاثة أمتار فى الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة . وأى مصباح فى الكوة قادر على إنارة الحجرة . ولننتبه إلى أن هذا المصباح غير عادى ، فهو مصباح فى زجاجة . ونعرف أن المصباح الذى فى زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السُّناج « الهباب » الذى يُسوِّد ما حولها ، فالسُّناج أثر دخان السراج فى الحائط وغيره . وقد ينطفىء المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمى النار وتركز النور وتعكس الأشعة ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال .

﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة ؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح وتنشر الضوء فى كل المكان . والزجاجة التى يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية :

﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضىء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرى فى ضيائه ولمعانه . والمصباح يوقد من ماذا ؟ .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتقاء فى إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية :

﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أدق أنواع الاعتدال :

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله فى نور الكونيات المادية ، ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اهتدى الإنسان فى الماديات فينبغى أن يفطن إلى قدرة الحق فى هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال :

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعانى من يريد . وقد يهتدى الملحد بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعانى الغيبية المعنوية بالمعانى الحسية . ونحن على مقاديرنا نستضىء ، فالفقير أو البدائى يستضىء بمصباح غازى صغير ، والذى فى سعة من العيش قد يشترى مولداً كهربياً . وكل إنسان يستضىء بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس فى الصباح ما الذى يحدث ؟.

يطفىء الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نفعل فى الماديات نفعل فى المعنويات :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضوء « افعل ولا تفعل » أن الله قال بعد ذلك :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله : (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده . فهى بيوت لله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائما ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم النور ، وبين لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنتبهوا وتعدلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذى جاء أولا من ربكم هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج . والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبي وهو المنهج النوراني ؛ لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول في البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان في حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمرينا هندسيا فنأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر في المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هي العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التي لا دخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكمالها . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ في اعتباره النظر إلى الأمور التي للإنسان دخل فيها ولسوف يجدها تتعرض للفساد ؛ لأن الهوى في البشر له مدخل على هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكبا آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما لأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيما ليس لأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وضع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت فى حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات الموزونة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هى من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون .

إذن لا بد من البحث عمن صنع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من الضعف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذى قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذى خلق . إذن يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدعٍ ، ومع توالى الأزمنة وتطاولها لم يدع ذلك أحد .

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدح الذهن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مطلوب عقلى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجهد فى خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التى تخدم الإنسان هى الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جنس أدنى وهو الجماد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجماد ليس هو الشىء الجامد ، بل الهواء جماد والشمس جماد والتربة جماد ، وكل ذلك يمارس مهمته فى الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجماد وكذلك النبات يستفيد من الجماد ، والحيوان يستفيد من النبات والجماد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان .

أليس من اللائق والواجب - إذن - أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه المكانة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليل صدقِ

البلاغ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صَدَقُوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو المعجزة الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى وآمن أنه لا بد أن يكون موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذى يبلغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يقدم لنا المنهج .

إذن فمجىء الرسل أمر منطقى تحتمه الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق النور العقدى ، أنزل ـ سبحانه ـ المنهج ليحمى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالدين جاء من الله ليتدخل فى الأمور التى تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله النزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا تلتقى فيه أهواؤنا ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »[١] .

أى أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ؛ لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ، لا بد أن نصطدم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافات البشر سواء أكانت على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن الأشياء التى لا دخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا : إن المعسكر الشرقى السابق والمعسكر الغربى الحالى اختلفا بسياستين نظريتين ، هذا يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادى كى ندخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا . إنّها أهواء ، لذلك تصادما فى أكثر من موقع ، وانهزمت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

---

(١) أخرجه الديلمى .

عليها . لكن الأمور المادية المعملية . لم يختلفوا فيها . ونقول الكلمة المشهورة : « لا توجد كهرباء روسى ولا كهرباء أمريكانى » . « ولا توجد كيمياء روسى ولا كيمياء أمريكانى » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ، والخلاف فقط فيما تختلف وتصطدم فيه الأهواء .

فكأن الله ترك لنا ما فى الأرض لنتفاعل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة المعملية المادية لن تفرقكم بل ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر من التجارب المادية ولو تلصصها ، ولو سرقها ، أما الذى يضركم ويضر مجتمعكم فهو الاختلاف فى الأهواء . وليت الأمر اقتصر على الاتفاق فى الماديات والاختلاف فى الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التى خضعت لأهوائهم . فكأننا أفسدنا المسألة .. أخذنا ما اتفقنا فيه لنفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كى تستقيم الحياة ، ولا تستقيم الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يحسم فى مسائل الهوى ، ولذلك حتى فى الريف يقولون : « من يقطع إصبعه الشرع لن يسيل منه دم » ؛ لأن الذى يقول ذلك مؤمن ، أى أن الحكم حين يأتى من أعلى فلا غضاضة فى أن نكون محكومين بمن خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء فى مسألة الأهواء بالمنهج : افعل هذا ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستتفقون فيها غصبا عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر فى أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمهات المسائل التى يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريده الله كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحمل هو التجربة فى نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل التجربة ، فمسألة التبنى حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدعى واحد آخر أنه ابنه وهو ليس أباه ، أنهاها الله فى رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

وفى مسألة الماديات والأهواء يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصا ، فمر عليهم فقال : « ما لنخلكم » قالوا : قلت كذا وكذا قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] . إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم .

السماء - إذن - لا تتدخل فى المسائل التجريبية ؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة ، ورأينا رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيرا منه كى يثبت قضية هامة هى أن المسائل المادية المعملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا ندخلها فى شئوننا ، فلا نقول مثلاً : الأرض ليست كروية ، أو أن الأرض لا تدور . فما لهذا بهذا ؛ لأن الدين ليس له شأن بها أبداً ، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل وللبرهان وللنظرية ، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا ؛ فالأمر الذى نختلف فيه يقول فيه : افعل كذا ولا تفعل كذا بحسم ، والأمر الذى لم يتدخل فيه بـ« افعل ولا تفعل » أوضح لك : سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد فى الكون ، وخذوا راحتكم فيما لم يرد فيه « افعل ولا تفعل » ، وأريحوا أنفسكم واختلفوا فيه ؛ لأن الخلاف البشرى مسألة فى الفطرة والجبلة والخلقة .

وهنا يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« النور » أهو الكتاب أم غيره ؟. وفى آية أخرى يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهذا القول يدل على أن النور هنا هو « القرآن » وجمع بين أمرين ؛ برهان . . أى معجزة ، ونور ينير لنا سبيلنا .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية . « الله » هو قمة الإيمان و« رسوله » هو المبلغ عن الله ؛ لأنه جاء لنا بالنور . إلا أن أهل الشطح يقولون : النور مقصود به النبىّ صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه .

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل فى متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ، لأنه مأخوذ من المادة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور نبيك يا جابر .

فعن جابر بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنّة ولا نار ولا مَلَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى »[1] .

وحتى لا ندخل فى مسألة غيبية لا تستوى الأذهان فى استقبالها ونفتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول:من تجلى له أن رسول الله نور ، نور ، نور ، فليعرفها هو ويلزمها . وليس من المفروض أن يقنع بها أحداً كي لا ندخل فى متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر ـ رضى الله عنه ـ نسأل : أهو قال : أول خلق الله نبيك يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ . قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبى نفسه الذى هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التى لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول:النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولاشك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطدم ، وجاء محمد صلى الله عيه وسلم بالمنهج كى ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج نظامى ، والرسول منهج تطبيقى ، فإن أخذت النور كى لا نصطدم ، فالحق يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن فسنأخذ بالمنهج النظرى الذى هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« مبين » أى محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

(١) رواه عبدالرزاق بسنده عن جابر وذكر فى كتاب كشف الخفا .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهواؤكم ، وسُئل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فكم رغيفاً فى أردب الدقيق ؟. فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغيفا فى أردب القمح ؟. فقال له : كذا رغيف . فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب . فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله:« ما فرطنا فى الكتاب من شيء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربنا هو ـ سبحانه ـ جعل أناساً تتخصص فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انتبهوا إلى أن هذه فرصتكم لنصفى مسألة العقيدة فى الأرض وننهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبقى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

انظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجيء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ؛ لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن ينفعل للحدث .

ويقول الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنّه طبع المؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيّف نفسه التكييف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ؛ فاليهودية بالغت فى المادية ، والنصرانية بالغت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قال : « أنا لم أبعث مورثاً » ؛ لأنه جاء ليجدد الشحنة للطاقة الدينية ، وبرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام خصماً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقُوتِهم حينما كانوا فى التيه وأنزل ربنا عليهم المن والسلوى ، و« المن » كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء يتزل من السماء على شجر أو حجر ينعقد ويجف جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السُّمانى فقالوا :

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إننا نريد مما تخرجه الأرض من بقلها ، والذى دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأتى المن ، وقد لا نستطيع صيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبيات بعيدة عنهم فهم قد أسرفوا فى هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادى المتطرف فأنزل منهجية روحانية متمثلة فى منهج عيسي عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينية ليس فيها حكم مادي ، كي تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف دب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتى دين جديد يجمع المادية المتعقلة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التى لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتلقاة من السماء دون ابتداع دين يأتى بالاثنتين فى صلب دين واحد . فقال لنا :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه كلها قيم تعبدية . فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين فى آن واحد . ويتابع الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كأن الله ضرب فى التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم فى المادية سيأتى رسول ليعدل ميزان العقائد والتشريع ، فتكون أمته مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون وقوم محمد ركع سجد ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أى : مافقدتموه أنتم فى منهجكم سيوجد فى أمة محمد . ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثلهم فى التوراة ما فُقد عند اليهود ؛ ومثلهم فى الإنجيل ما فُقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنين . فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أى

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسماء رباطاً يجمع بين دين قيمي يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ومادام الله هو الذى يهدى فسبحانه منزه عن الأهواء المتعلقة بهم ، وهكذا نضمن أن الإسلام ليس له هوى . لأن آفة من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يحب فى ما يشرع ، فالمشرع يُشترط فيه ألا ينتفع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا فى الله لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه » إنَّ من اتبع رضوانه يهديه الله لسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة . وهل السلام طرق وسبل ؟. نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، وسلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسُبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن تنزه ربك أيها العبد فلا تعبد معه إلهاً آخر ، ولا تلصق به أحداً آخر . . أى لا تشرك به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى فى العقيدة ؛ جاء بين ناس تقول : لا يوجد إله ، وهذا نفى ؛ وناس تقول : آلهة متعددة ، الشرُّ له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس المادى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحين تخرج الروح يصبح الجثمان رمّة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول : أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟، وأين هى ؟. أهى فى أنفك أم فى أذنك أم فى بطنك أين هى ؟، وما شكلها ؟. وما لونها ؟. وما طعمها ؟. أنت لم تدركها وهى موجودة . إذن فمخلوق لله فيك لا تدركه فهل فى إمكانك أن تدرك خالقه ؟. إن هذا هو الضلال . فلو أُدرِك إلهٌ لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحديده ببصرك ، ومادام قد قدرت على تحديده يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا ينقلب القادر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً .

وحينما أراد الله أن يدلل على هذه الحكاية قال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

انظر فى نفسك تجد روحك التى تدير جسدك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهى موجودة فيك ، فإن تخلت عنك صرت رمة وجيفة ؟ فمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تردك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شىء فيه يحتاج إلى إله بمفرده ، فيأتى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما تقولون ، فيكون هناك مثلا . إله للشمس وإله للسماء وإله للأرض وإله للماء وإله للهواء ، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزا عن أن يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ولنشأ بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، ويحسم الحق الأمر فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التي تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتي الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله ، و« لا إله » نفت أنه لا آلهة أبداً . وبعدها قال : إلا الله ، وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربنا يريد أن يريحنا من « الخيْلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يشرعه لنا ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ؛ لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التي تريدها خادمة لك في شيء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق الخلق ، وليس لأحد ممن خلق - مهما أوتي من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أي دخل في عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهدي به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فيهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين : يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال في آية أخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزاءها إلا في الآخرة ؛ لأنه كلما فعلت أمراً وتلتفت وجدت آثاره في نفسك ، تصل تجد أمورك خفّت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة في غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأي شيء ، ويحيا

المؤمن فى سلام مع نفسه أبداً . إذن فسبل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ، سبل السلام مع الكون كله ، سبل السلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ، سبل السلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسبل ضلال .

وفى هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هى محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير . وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شىء يورثهم بغضاء وشحناء ، أو المراد أنه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعقوبية قالوا شيئاً ، والنصرانية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ؛ فجاء بالقمة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فمن يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل بمن جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد زعموا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شىء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لهؤلاء أن أحداً لا يستطيع أن يمنع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض . فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض . وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ؛ فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمته وقدرته لا يعجزه شىء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابل للفناء ككل البشر .

« ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسماء كنوع علوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُيّز فى طريقة خلقه بشىء لم يكن فى عامة الناس ؛ فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أخلقه يشترط علىّ أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يفتتن بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفتتن فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدار خلقه على

القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يُنْجِبُ منهما ، فهل هناك اكتمال أكثر من هذا ؟!

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فالمسألة ألا يُفرض على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هي إرادة مُكَوِّن لا عنصرية مُكَوَّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة . ولذلك لا بد أن يأتي القول : « والله على كل شيء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّٰؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيلمة الكذاب وادّعى النبوة ، وكان كل أهل مسيلمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبيرأبى خبيب، قال أنصاره : نحن الخبيبون أى نحن أتباع ابن الزبير الذى هو أبوخبيب، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزير ، الذى هو ابن الله ؛ ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذ لها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(سورة غافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكا ؟ . لا ، فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعا وأنصارا له ومن شيعته ملوكا لأنهم يعيشون فى كنف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة وفيها ماء يجرى ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا ينشغل بخدمة نفسه فى بيته ، وفى الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يحوجه للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالجليل عيسى فى هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون وبلسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أعمالا شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناءه ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » رداً عليهم : « فلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وستدخلون فى مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعذبة ، « ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » .

ويقول الحق تصفية للمسألة العقدية فى الأرض :

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى الله عليه وسلم ويبين لكم - يا أهل الكتاب - ما اختلفتم فيه أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فإنما جاء به ليناسب أقضية الحياة التى يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على زمن انقطعت فيه الرسالات ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها ستمائة سنة وقال البعض : خمسمائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟. أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟. وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس لهم :

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ (١٥)

(سورة يس)

وهنا قال الرسل :

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ (١٦)

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟. إن الأخبار دائماً تُلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالى الذهن من الخبر ، أُلقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد فى لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالى ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا . لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إنّ » المؤكدة ؛ فلما كذبوهم وقالوا لهم: «ماأنتم إلا بشر مثلنا وماأنزل الرحمن من شيء» وكان هذا لجاجا منهم فى الإنكار فماذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟. لا . إن الإنكار هنا يمعن فى اللجاجة والشدة ، فيأتى الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول فى حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثانى :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما نعلم فـ « إن » هنا مؤكِّدة ، واللام التي في أول قوله : « لمرسلون » لزيادة التأكيد . وحين تأتي كلمة تدور على معانٍ متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصلي ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هي الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أي ماء انقطعت برودته ، فالماء مشروط فيه البرودة حتى يروي العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أي ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أي ماء دافيء قليلاً ، أي ماء انقطعت عنه البرودة المرغبة فيه .

ويقال أيضاً في وصف المرأة : في جفنها فتور أي أنها تغض الطرف ولا تحملق بعينيها باجتراء . بل منخفضة النظرة . إذن فالفترة هي الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَتْ من الوحي ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد الغفلة ، ويطول عهد انطماس المنهج ، ويعيش أهل الخير في ظمأ وشوق لمجيء منهج جديد ، فكان من الواجب - مادام قد جاء رسول - أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن تلتمسوا ما جاء به من منهج ، وأن ترهفوا آذانكم إلى ما يجيء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم - إذن - بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتي زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا في منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليمارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتي لهم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بَشِّرْ الذي يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب في النجاح ، أي لابد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يبشر به . وكذلك النذارة لا بد لها من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتي بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . ومجيء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتعلل بقول: « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق على هذا الخير ، أيتركهم الخالق بدون هداية ؟ . لا . فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟.

إنه قادر على أن يعطى رزق القوت ورزق المبادىء والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم فى كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه فى هذه المرة يجعل المتكلم رسولهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وساعة تسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعنى « حين » كأن الحق يقول : اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعين الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له فى أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينما قال : « وإذ قال موسى لقومه » أى اذكر يا محمد ، أو أذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول الواحد منا لولد عاق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون ويتنبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكرالنعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهى .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والمراد بها النعم كلها، أو كأن كل نعمة على انفرادها خليقة وجديرة أن تُذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدّ النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهى نعم متعددة . إذن فالمراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدى إلى شكر المنعم ويؤدى أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصى من أنعم ، ويجعلنا نستحى أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهى نعم كثيرة تمتعوا بها ، ألم يفلق الحقُّ لهم البحرَ :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وبعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً . وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فانفجرت منه المياه :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكأن الماء صار صخرا . وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظللكم بالغمام ؟ ألم ينزل عليكم فى التيه المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذكر . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً » ، وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كأسوة سلوكية . ولم يغضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يهتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لا يضن عليه عائله بطبيب أو بطبيبين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائله شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفى ذلك امتنان ؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داءاتهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصيا ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصيا ؛ لما كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد داؤهم أرسل لهم نبيا .

ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال : « وجعلكم ملوكا » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما فى حوزته ؛ مالك لثوبه ، أو مالك اللقمة التى يأكلها ، أو مالك البيت الذى ينام فيه ، لكن المَلِك هو الذى يملك وَيملك مَن مَلك .

إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ويملك مَن مَلَك يكون مَلِكاً ، فرجل عنده رُعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التى يملكها ، وعنده أناس يخدمون فى المنزل وأناس يعملون فى المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأتمرون بأمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلف فى لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبى صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التى تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[1] .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد ممن حولهم ؛ ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط - سبحانه - نبى الله سيدنا سليمان وهو من بنى إسرائيل مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بنى إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بنى إسرائيل ، ومكن الله ليوسف فى الأرض وعاشوا فى تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القديم ، الذى سبق أوربا بقرون ، وأخذت منه أوربا العلوم والفنون ، فى حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

---

(١) أخرجه الترمذى .

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطانا . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذى صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها فى منتهى الدقة . وحين رآها الناس فى بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل فى نطاق قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى . واستترت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماميز ، وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماؤهم فى الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكأن الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن فى كل لغة شيئا اسمه « منطق الأعلام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء انجلترا فى وقت من الأوقات هو « تشرشل » هى كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعلام لا يتغير نطقها .

وكشف شامبليون عن الحروف التى لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم حروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرّض لعادٍ وتعرُّض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها فى سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف ـ فى الجزيرة العربية ـ ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهى التى يقول عنها الحق :

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التى بهرت الناس فى مختلف العصور .

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التي كان الناس أثناءها ينحتون البيوت في الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هي التي لم نرها حتى الآن ؛ ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب في تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التي مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذي الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم - أيضاً - عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بني إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من نصروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة في الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذي صار وزيراً للعزيز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون في سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة في أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن في أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام في مصر هي فترة ملوك الرعاة أي الهكسوس الذين غَزَوْا مصر وأخذوا الـمُلْك من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك ائتوني به) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن في زمن يوسف سمى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهى تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أيد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بنى إسرايل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » فى قصة بنى إسرائيل فى مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ، لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض ، فكيف يأتى القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلانى من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفتة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكأنه قال : ذوبوا فى الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن ، أى لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون فى الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث أأيدتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟ القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما ، أى تفريقهم وتشتيتهم ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالاً ولكنهم مفرقون فى البلاد. وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا، ولا يذوبون فى المواطنين أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ، فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات » وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلحظ هنا أن كلمة « الأرض المقدسة » فيها تحييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قَدَّس » أى طهّر ونزّه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القَدَس » أو « القادوس » وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُّوس » ، ويقال : «قُدِّس الله » أى نزه ، فالله ذات وليست كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود وذات الإنسان ممكنة الوجود ، لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ، ويطرأ عليها عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد . ولله حياة وللإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛ لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ،وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء فى أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا فى مسألة الإسراء:إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ ؛ فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟!

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سريت من مكة إلى بيت المقدس » حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِىَ بى . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل فى الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شىء يعترضون . ولكنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟ تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِىَ به بمعنى كامل . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل اقرنه

بفعل الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحا بقدح ؛ وإن كان رجلا ناضجا سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن .

إذن قدس الله فى كل شىء . والأرض المقدسة هى المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماما كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كونى أو كلام تشريعى ؟

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد. وما الفرق بين الكونى والتشريعى؟ إن الكونى يقع لأنه لا معارض فى الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصليا ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هى فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهى إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا ، وإن لم نطعه فالذى لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعا « أن يكون الحرم آمنا » .

«ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هي إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن في الأرض لبني إسرائيل أي في الأرض عموما ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعا ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أي أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويجيء بعد ذلك وعد الآخرة الذي جاء في أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينما قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى فى مقدسات الإسلام . وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون فى مكان بعهد من رسولى ، ولكنكم ستفسدون فى المكان الذى تعيشون فيه وسيتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عباداً له يجوسون خلال دياركم ويشردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ؛ ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك فى زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هى ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟ . إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسيا مجوسيا .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هى تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ

﴿ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟ . لا ، لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ؛ فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير . ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصودة هو الفساد الذى صنعوه بالأرض التى كانت فى حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » فمادام يوجد « عباد الله » خالصو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ؛ فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكأن الكرّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا تجعل يا الله الكرّة لبنى إسرائيل ؟ . تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . ومادمنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التى نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن فى مواجهة اليهود فى مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتى القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتى أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثانى مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟ . لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايا القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكَرَّة . ولكن القضية هى أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة .. اعتقادا وسلوكا .. قولا وعملا ننتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال فى العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً فى الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيرا . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى فى العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيته ويقول لليهود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرَّة يارب ؟.

لا . فها هو ذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ، ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التي شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سَيَكِلُ الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما في الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عباداً لله سنسوء وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هو ذا قوله الكريم :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد فى أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟ . لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة فى الامتداد الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل ، ولكن كان فى نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكاية فيهم . ولكن الحق جاء بالمرة الثانية هنا والمسجد فى نطاق سيطرة بنى إسرائيل :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادًا لِلّٰهِ ذوى البأس الشديد الذين ستدخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية فى ذلك الزمن تتبع ـ كما قلنا ـ الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحتى نتبر ما يُعْلُونه ـ أى نجعله خرابا ـ لا بد أن تمر مدة ليعلوا فى البنيان .

وعلينا أن نعد أنفسنا لنكون عباداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعدا تشريعياً ، فإذا عدنا عباداً لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتبيرا ، والحق سبحانه وتعالى فى آيات سورة المائدة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بلقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إدبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ؛ فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أدباره . والتولى على الأدبار يكون على لونين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصى الموبقات المهلكات . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأدبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ؟. أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟. كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيل بعدم الفِرار ليدخلوا الأرض فماذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟.

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟. وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟. ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً وتجسسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ؛ لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجدها أمراً معنوياً أُخذ من المحسات ؛ فالجبارة هي النخلة التي لا تطولها يد الإنسان إذا أراد أن يجني ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة في متناول يد الإنسان حين يجني ثمارها فهي دانية القطوف ، أما التي لا تطولها يد الإنسان لحظة الجني للثمار فهي جَبَّارة ؛ لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذي لا يقهر فسمي جباراً ، وقد يكون الجبار مُكرِهاً ولكن على الإصلاح ، وفي بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبراتي » .

أي أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعي . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن في هذا إصلاح لحياة الإنسان . و« الجَبَّار » اسم من أسماء الله ؛ لأنه سبحانه يَقْهَر ولا يُقهَر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا بالابتلاءات حتى يمحصنا وتستوي حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال في الحق لأنه يستعمل جبروته في الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يُقهَر . فعندما يكون في صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة في الخلق فهي مذمومة ؛ لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالمتجبر قد يصيبه قليل من الصداع فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك في حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من المغص ، فيجرى وهو ممسك بطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأبيدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كقولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأبيدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأبيد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه يمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ . لا ؛ لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلان منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾

وهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله ، بينما بنو إسرائيل ـ كمجموع ـ لم يفهوا عن الله

حق الفهم ؛ لأنهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلان . وهما كالب ، ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً مـن الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاهاً والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[1] .

فإذا كان الشأن فى المشى أن يتعب الذاهب والسائر ، فالله لا يريد أن يرهق بالمشى من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته ـ سبحانه ـ إلى العبد . فالرغبة الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظائم فضل الله أنه فعل ونسب إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعى إليه . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفترض أنك أردت أن تمسك سيفاً ، لماذا لا تحلل المسألة ؟ . السيف الذى تمسكه ، صنعته من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .

والحق قال :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذى أنزل الحديد ، وهو الذى علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأى عضلة يمسك الإنسان السيف ؟. وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟. وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟. على الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأى العضلات بدأ المشى .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً فى جهاز آلى ؛ يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربية من أجل تحريك ذراع آلي ، فكم إذن من عضلات فى الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه !!. فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هى الإمساك بالسيف أم حتى المشى لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبنى إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح ، فقالت الأم لابنها : سأدعو لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ، فخطف اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما فى كمّه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هى المبالغة التى صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منها أحسنا الفهم عن الله بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذى يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل ؛ لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالا لبنى إسرائيل: لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستنصركم :

﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ويختم الحق الآية بهذا التذييل : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى لا تتوقفوا عند حساب العدد فى مواجهة العدد ، والعُدة فى مواجهة العُدة ، ولكن احسبوا الأمر إيمانياً لأن الله معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان فى كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بنى إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على الله .

فماذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

كان خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفّر عليك جهدك فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالقة فيها . وإن كنت مصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاعدون . هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربّ موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المُزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله الله إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قالا لبنى إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهزموا هؤلاء الناس العمالقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالقة . إذن فأنا وأخى فى طرف وبقية القوم فى طرف آخر ، لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى فى هذا التعبير القرآنى يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتى تحتمل أن يرقَّ لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى : إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى الفاسقين ـ كما عرفنا ـ هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة عندما ترطّب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال فسقت الرطبة ؛ فكأن الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحرّمة عليهم » وانتهى الأمر لأنهم تأبّوا على أن يدخلوها ؟. ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبدا ماداموا فيها » لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفاً لـ « مُحرّمة » . أو هو حكم منفصل ؟.

تصح هذه ، وتصح تلك . والتيه هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب المسالك ومتعرج الطرقات ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن كم فرسخاً هى مساحة التيه ؟. حدّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ، لأنهم ساعة يمشون ويرهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفى هذا التيه إلى الأمد والوقت الذى حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون فى الأرض . وحين يؤدبُ الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافرا؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضنّ عليهم فى التيه بما لم يضنّ به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضرورى . وعندما يرتكب إنسانٌ مَا ذنباً كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى ، فهو يوفّر للسّجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حُرية الحركة فى المجتمع ، والسجين المذنب يظل فى السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة فى النقطة المهمة فى الحياة وهى أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم فى التيه ؟. لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المنّ والسّلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المنّ والسّلوى ليعيشوا كُسالى وغرقى فى التكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يُطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أساءوا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذى يأتيهم من منازلهم . ولكنّ هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً فى فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن فى فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرىّ ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب القاسى ، وعاقبهم ربهم على كفرهم أربعين سنة. كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه رَبٌّ ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَنّ والسَّلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا . ؟ تلك أسئلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ؛ فتلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها مُحَرَّمة عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحَرَّمة عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألاّ يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضّيق من هذا الدُّعاء وقال لنفسه : لماذا لم ادعُ لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أى فلا تحزن عليهم لأنهم أَوْلَى بالعذاب لفسقهم ومخالفاتهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وساعة يتلو الإنسان - أى يقرأ - فهو يتكلم بترتيب مارآه من صُور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكّونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتّب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ؛ إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فكلمة « نبأ » هى الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من بالحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أُنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهى عن الشر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقصّ فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسمّيه سبحانه « القصص الحق » :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

ويُسمّيه سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشرى ، وأن ابنى آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرّب كل منهما قرباناً . والقُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، و« قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفرانا » و« غَفَر غُفرانا». وهي صيغة مبالغة فى الحدث . وهل قدّم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قدّم قرباناً خاصّاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبّل من الآخر فمعنى ذلك أن كلاّ منهما قدّم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

و« القربان » مصدر . والمصادر فى التثنية وفى الجمع وفى التذكير والتأنيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » و« رجلان عدل » و« امرأتان عدل » و« رجال عدل » و« نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الآدمى ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتى إلا من ذكر وأنثى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والريح هى التى تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شىء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذّرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنوثته فى شىء واحد ؛ فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قدراً من الخيوط الرفيعة التى نسمّيها « الشّوشة » . وهذه هى حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما نمسك بكوز الذرة ونفتحه قد نجد بعضا من حبوبه ميتة وهى تلك التى لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطا من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذّرة التى لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شىء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شىء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلو لم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أخذوا بأسباب الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ، وهذه الاكتشافات تجدها مطمورة فى القرآن :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فكل ما يجدُّ ويحدث ويكتشف من شىء فيه موجب وسالب أى ذكورة وأنوثة ، يدخل فى نطاق :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ، أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذى أوجد كل شىء من لا شىء . وعندما جاء آدم وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض فى النمو . ولو أننا رجعنا بالأنسال فى العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء . مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قروناً أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى الخلق الأول الذى خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتى بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسانى فى العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهُما رجالاً كثيراً ونساء ، فإن عِلم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتى بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له فى النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التى لم تولد معه فى بطن واحدة .

وجاء ربّنا لنا بهذه القصة كى يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجى كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافى ، صحيح سيكون هذا الولد أخا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتى بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافى ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر فى البطن الثانى . والذكر للبطن الثانى للبنت فى البطن الآخر ، وهذا هو البُعد الإضافى الذى كان مُتاحاً فى ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال فى بداية طفولته الواهية .

ونلحظ مثل هذا الأمر فى الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثانى : إنى آخذ من الأرض التى أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثا أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرجَ الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكوُن ذرة جارى فيه شيء من البُعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأتى بالتقاوى ؟ كلما جئنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون فى هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العربى قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العربى البدوى الذى لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعليما ولا علماً، يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فتى لم تلده بنتُ عمٍ قريبة ... فيضوى وقد يضوى سليل الأقارب

كيف اهتدى هذا الشاعر لهذه ؟! وبعد ذلك يقول :

تجاوزت بنت العمِّ وهى حبيبة إلىَّ
مخافة أن يضوى علىَّ سليلها

أى هو يحبها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر فى هذه القضية :

أنصح من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربى الذى ليس فى أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد اهتدى إليها فى واقع الكون فوجد أن زواج القريبات يُنشىء نسلاً ضعيفاً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعظات الأولى التى ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بأخته ، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد ، نعم أخ وأخت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف ، ولذلك حينما جاءوا ليثبتوا قصة ابنى آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلا : « سِفْر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من « سفر التكوين » لأن التغيير فيه لا يهمهم . فقد كان التغيير فى المسائل التى تهمهم ، كمسألة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضا الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتيل فى الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يُميته أو يقتله ، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلّمه كيف يقتل ، مثلما سيأتى الغراب ويعلّمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

فهذا هو أول من توفى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلّمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

فقابيل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البُعد الإضاق ؛ لأن البُعد غير الإضاق غير ممكن فى هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبى إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أى بطن محرّمة على أخيها تحريماً أبديًّا ، وبعد ذلك نتوسع فى الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلا . هم قالوا نقرب قرباناً . . لماذا ؟ « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

لماذا يريدان أن يُقرّبا قُرباناً ؟ قالوا:ان أخت قابيل التى كانت فى بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقا لقواعد التباعُد فى الزوجية كان على هابيل أن يأخذ اخت قابيل ، وقابيل يأخذ أخت هابيل ، فحَسد قابيل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختى هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحى ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون فى صف التباعد. « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلنبحث عن « قُربان » فى القرآن . ننظر ما هو القُربان ؟ قد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى أكثر من موضع . قال :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم ردًّا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبالذى قُلتم » ما هو ؟ إنه القُربان الذى تأكله النار . إذن كان القُربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبّل من السماء ويكون صاحبه هو المُقرَّب ، والقُربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلوة ومن يتزوج الأخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرضى المهزوم ؟ لا ، بل حَسَده ، وهذا أول تأب على مُرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده زبْد ولبن وجبن ، وحيوانات للحم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شرار زرعه ، وهابيل قدّم خيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لأقتلنك » وسبحانه قال : « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقوله : « قال لأقتلنك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ؛ لأنه لم يحقق مُراده وغرضه .

« قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين » . وهل هذا الرّد مُناسب لقوله : « لأقتلنك » ؟ نعم ؛ لأن « لأقتلنك » بسبب أن قربانك قُبِل وقربانى لم يُقبَل . قال: فما دخلى أنا بهذه العملية ؟ الدخل فى العملية للقابل للقربان ، فأنا ليس لى دخل فيها ، وربّنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتقٍ ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأبيت عن حكاية الزواج بابنة البطن المخالف ، وهذا أول تمرّد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلُمنى فأنا لا دخل لى فى القربان المتقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتقٍ ؛ لأنك لم ترضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، و« بسط إليه » .

وتجد « بسط له » كان البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال : « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون بإلى إلاّ في الشر ، وشرحنا من قبل هذه المسألة في قوله الحق :

﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذي يبسط لك يعطيك نفعا والذي يبسط إليك يكون النفع له هو .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » . وبيّنت « لتقتلنى » مدلول « إلىّ » . والعلة لا عجز عن مقابلة قوّتك بقوة ، لا ، وإنما لأننى أخاف الله ، فليس في هذا تقصير في الدفاع عن نفسى لأننى أريد أن أُحنّنك تحنيناً يرجعك إلى صوابك . وساعة يأتى واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له : والله لن أقاتلك لأننى أخاف ربنا .

إذن فبينّ له أن خوفه من الله مسألة مُستقرة في الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يعرفها في نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدّم دفاعاً قويا ، لقد ردّ الأمر إلى الحقّ الأعلىٰ . فلا تقل كان هابيل سَلبيًا لا . إنه صعّد الأمر إلى الأقوىٰ .
ويقول الحق :

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

و« تبوء » أى ترجع من صفقة قتل بأن تحمل إثم تلك الفعلة وتنال عقوبتها .

وه إثمك » وكذلك الإثم الذى كان من أجله أنك أردت أن تقتلنى ؛ لأنك تأبيت على المنهج ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أثمت فى عدم قبولك التباعُد المطلوب فى الزوجية . إذن فأنت عندك إثمان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذى من أجله لم يَقبل الله قربانك ، والإثم الثانى : هو قتلى وأنا لا دخل لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جزاءه .

إن هابيل يقول: « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » لم يتمن أن يكون أخوه عاصياً. بل قال : إن كان يعصى بهذه يبوء بإثمى ويأخذ جزاءه ؛ فيكون قد تمنى وأراد له أن يعود إلى العقاب وبناله إن فعل وهو لا يريده أن يفعل .

« إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظُلم ، والذى لا يؤمن بالآخرة يصبح مُخترِقاً للظُلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل فى سورة « الكهف » حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين : الذى آتاه الله من كل شىء سببا فأتبع سببا ، وبعد ذلك بين لنا مُهمة من أوتى الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا فى رأى العين ، فحين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب فى الماء ، هى لا تغرب فى الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أُفقك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خيره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع . حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم . فليأخذ عقابه فى الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى قبل الآخرة لهم عذاب.ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ؛ ولو مُكّن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، وأراد الحق أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهى أمره بذلك ، وبعد ذلك يُردّ لمن ؟ يُردّ لله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعنى عذاب الدنيا،إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب منوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب فى الآخرة فهو بقوة القادر الأعلى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

تلك هى مهمة الله القوى المتين : إنّ الذى يظلم يضربه على يده ، والذى يحسن عمله يعطيه الحوافز .

والحق يقول هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ ﴾

ولا يقال : طوعت الشيء إلا إذا كان الشيء متأبيا على الفعل ، فلا تقل : أنا طوّعت الماء ، إنما تقول : طوّعت الحديد ، وقوله : « فطوّعت له نفسه قتل أخيه » فهل نفسه هي التي ستقتل وهي نفسه التي طوّعت ؟

ولننتبه هنا أن الإنسان فيه ملَكتان اثنتان ؛ ملكة فطرية تُحبّ الحق وتُحبّ الخير ، ومَلَكة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فطوّعت له نفسه قتْل أخيه » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيِّرة ، فكأن هناك تجاذبا وتصارعاً وتدافعاً ؛ لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذي يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فطوّعتَ له نفسه » إنه لايزال فيه بقيّة من آثار النُّبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولاتزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينحدر ، والشر في الأشرار يصعد . فقد تأتي لرجل طيب وتثير أعصابه فيقول : إن رأيته لأضربنه رصاصة أو أصفعه صفعتين ، أو أوبّخه ، والشرّير يقول : والله إن قابلته أبصق في وجهه ، أو أضربه صفعتين ، أو أضربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرّير يتصاعد ، ويجد العملية لا تكفي للغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنفّس عن غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك نلاحظ في سورة سيدنا « يوسف » :

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والعجيب أنهم جاءوا بالتعليل الذي ضدّهم ؛ كي يعرفك أن الهوى والغضب والحسد والحقد تقلب الموازين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهي التي جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا منا » نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العربي : مالك تُحب الولد الصغير ، قال : لأن أيامه أقصر الأيام معى ، البكر مكث معى طويلاً ، فأنا أعوض للصغير الأيام التى فاتته ببعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم : « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، مما يدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتى بالحُجّة التى ضده ويظن أنها معه ! وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

واتفقوا . فبدأوا بقولهم :

﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازلوا عن القتل والطرح فى الأرض وقال قائل منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كأن النفس مازال فيها خير ، فأولا قالوا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو « اطرحوه أرضاً » يطرحونه أرضاً فقد يأكله حيوان مفترس ، فقال واحد : نلقيه فى غيابة الجب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأخيار تتنازل .

« فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران فى قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسبًا وهناك خسارة ، و« مكسب » أى جاء رأس المال

بزيادة عليه ، و« الخسارة » أى أن رأس المال قد قلّ ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به فى الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الحلوة ويترك الأخرى ، ولما قدّما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَفَقد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ونعرف السوءة وهى ما تتكرّهه النفس . وهى من « ساء ، يسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « العَورة » سَوْءَة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غُراباً يبحث فى الأرض » . هل بعثه الله حتى يُرى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت ستنظر للوسيلة القريبة فيكون الغُراب ، وإن كنت ستنظر لوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصلة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعة تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان فى الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة فى الهلاك نأتى بتاء التأنيث ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ فى وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان علّام وفلان عَلّامة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و« ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف نُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادىٰ غير العاقل ؟ نعم ، يُنادىٰ ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصنى فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحنى بالموت !! إذن فالذى يراه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنّون الموت ؛ وكذلك قال قابيل : « يا ويلتى » .

وهل تأتيه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى: أن تأتى « ياويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبِّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها ، فيقول الحق حينما يشاء : توقفى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسبِّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خيفة .
ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الحق أيضاً في هذا الموقف :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أي أن الأسباب لا تعطى ، ورُدّت إلى المُسبِّب . (أتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبى من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها ؛ فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كَفلها ، وكان يجىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجىء بأن عندها رزقا من طعام وفاكهة . فسألها :

﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأتِ هُو به ، وهنا ردّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهى صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها ـ كما قلنا سابقا ـ ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب ، فسوف تلِد بدون رُجولة ، وهى مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هى وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكأن الحق ينبئها ضمناً بأن عليها أن تتذكر أنها هى التى قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتى لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول . وهى التى تُذكِّرُ سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذى ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته فى المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون فى حاشية الشعور ، وبين حكم يكون فى بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربّه من البداية ؟. كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتُشغل عن المُسبِّب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشره الحق بأنه سيأتى له بذرّية ، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُّرِّية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث فى الأسباب والمسببات . فهى إرادة الله . ويوضح الحق حيثيّات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ ؛ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث فى أمور أخرى غير العِرْض ، لكن عند مريم سيكون ذلك فى العرض وهو أقدس شىء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كأن عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقولها ـ إذن ـ إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسىّ شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « نَدَمٍ » و« نَدَمٍ » . وعلى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشترى بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله في انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ؛ فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟. لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟. أو ندم لأنه صار هُزْأة بين الناس ؟. وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيبته ؛لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

نجد الحق قال:إنه قد كتب على بني إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و« أَجْل » مِن أجل شرا عليهم يَأْجُله »،أي جنى جناية ؛ أي من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعني « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكَتْب خاص ببنى إسرائيل ؟. بعض العلماء قال:إن ابنى آدم ليس ابنى آدم مباشرة ؛ ولكنهما من ذُرّية آدم وهما من بنى إسرائيل . ونردّ : من هو إسرائيل أولاً الذى نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟. إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك إلى آدم ؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يُوارى سَوْءَة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمّ دفنه ، ومن غير المقبول ـ إذن ـ أن نقول:إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميّت إلى أن وصلت البشرّية إلى زمن بنى إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !

ولماذا جاء الحق هنا ببنى إسرائيل ؟. سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهى النفس التى تحمل رسالة النّبوة ، ولذلك كان التخصيص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى ؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يلفتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء ـ إذن ـ لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولّدت لدى بنى إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخيّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذى لا يقدر على صناعة الخير فتتولد فى نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير ، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بنى إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا بـ «من قبل» هذه لحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عداء مع اليهود ، وقد تهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبى .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السّم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أي إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت في الماضي ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكَّنوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق في تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيماني رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسدالواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى . فإن قتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز . فهذا إفسادٌ في الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة ، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثاني من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هي الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدي على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدي على كل الناس ، والذي يسعف إنساناً في مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفي التوقيع التكليفي يكون التطبيق العملي لتلك القاعدة ، فالذي يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيماني مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدَى عليه بمفرده ، لأن الذى يُجرِّىء أصحاب الشرّ هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مَالِى » .

و« الأنا مالية » هى التى تُجرِّىء أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ؛ وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

ـ أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهوذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوا جميعاً »[1] .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترىء على الباقين .

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره ، ومادام قد استَنّ مثل هذه السُّنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى .

---

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن ، ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوى يقول :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المُشرّع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ؛ لأن التجريم لأى فعل يعنى مجىء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجَد نُص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلاّ بنص ولا عُقوبة إلاّ بتجريم » . أى أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم ؟ لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك نجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُولِى الْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أىّ قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائى ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشرى قد فاتته اللمحة الفعّالة فى منع القتل الموجودة فى قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقى فيها

الروح التى تحرك المادة ، والمعنى الثانى : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد فى الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح فى ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقاب للفساد فى الأرض ؟. مدلول الأرض : أنها المنطقة التى استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد فى الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض . وأول مظروف فى الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد فى الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد فى أشياء أخرى : هى الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد فى هذه الكائنات يكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد فى الأرض وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى كالقلق والاضطراب والخوف . ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان : قسم تُفَزّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض ، أو أن تُفَزّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة ؛ يأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى فى حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كى ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط فى حالة العُدوان .

أما الذى يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء ؛ فهذه هى الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتى لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد فى الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه ، وإما بشىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكأن الفساد فى الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس :

« منْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض ؛ هو القتل الذى يستحق العقاب . أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فارقا بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدّاً من المُشرِّع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل فى الحرابة وقطع الطريق لا يشفع فى ذلك ولا يسقط الحد عن الذى فعل ذلك ؛لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسلنا بالبيّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المُتجاوز للحَد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته فى الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون فى قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس فى منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس .

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعدّاه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالاً فى رُعب ، وعندما يُفجع فى زائد ماله ، يفقد الرغبة فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة تنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة فى المجتمع السند والعون من الذى كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال فى التملُّك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : الرجل المُرابى الذى يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابى زيادة مِمّن لا يجد شيئا يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أول شيء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللّهَ وهو غيب ؟ . وأول حرب لله هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أَهُمْ الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله فى مُلكه أزلا ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا

ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء ؟. إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المُشرّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصّنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحاربون الرسول ؟.

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا فى يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته فى التشريع ، وهى السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر فى بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟. فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟. فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من اين أتيت بذلك ؟. ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟. هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة فى النقدين والتجارة مثلا .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟. وأيضا كيف عرفت الحج ؟. إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعهُ وأقرّه من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التى وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[1] .

وها هوذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدى الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا ، وهذا التفعيل فى قوله : (أن يقتلُوا أو يصلَّبُوا) جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الأرض » . وهل « أو » هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لف ونشر » ؟ واللف هو الطى . والنشر هو أن تبسط الشىء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن ـ ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى . .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى
راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض » ، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمُتمكن . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكُّن في موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا. ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءا من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجها إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضا له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقا فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يُحَوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضا ممنوع من الطيران فى جَوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لايزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مُدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ«ويعلم ما فى الأرحام» ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكيا أو غبياً ؛ شقياً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر « ما » فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فيها خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : « ويعلم ما فى الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطىء البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضا ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مَد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطىء ، إنهما لا تتعارضان ؛ فالقائل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى فى اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شىء حِسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر نُنزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رِشاء » وهو الحبل الذى نُنزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلا من الماء يتساقط من حواف الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النَفِى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء - كما نعلم - له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النَفْى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهى الشىء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تمييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا . وذلك مصداقا لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بعثرتهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى

حدث فى الكون . أوُجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الأخرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ؛ لأن الأمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مُجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ، لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تحييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام ؛ قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفي حصل في الإسلام كان نفي رسول الله الحَكَم بن أبي العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلّد مِشْيَة النبيّ باستهزاء ، وكان النبي صلّ الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يَتحدَّر من صَبَب . فقد كانت مشية النبي مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحكَمَ يقلد مِشيته في استهزاء والتفت النبي ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده في مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم في الطائف طوال حياة رسول الله صلّ الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبي بكر الصديق ، ذهب أهل الحَكَم إلى أبي بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضي الله عنه حَيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلّ الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم في الطائف كان يربي بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضي الله عنه أنجب يزيد الذي تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذي ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً في الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبدالله مع جياد ابن عبدالملك في مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ؛ فنهر ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخي كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً في العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا في اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبدالملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبدالملك لخالد : أتكلمنى فى عبدالله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد ـ معرضا بالوليد ـ : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبدالملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبدالله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالملك : اسكت يا هذا فلست فى العير ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتّبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول صلىّ الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحكَم يستهزىء بمشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجن يقوم مقام النفى ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسِد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع ان ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : « أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة « خزى » ترد فى اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هى « خَزِى ، يَخْزَى ، خَزاية وَخَزًى » بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فمادام قد افتضح أمر عبدٍ فهو يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوّتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزَّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وكُلُوا إلى طاقة الطاقات ؟ . ها هى ذى عدالة الحق تتجلّ ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقِدا . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

ومادام الإنسان قد تاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حق له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » فى نطاق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأولياء المُعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » . والقرآن يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة . لذلك يُقسّم المسائل إلى فصول كالتقنينات البشرية التى تُبوّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فُرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمرٍ توجيهى بالطاعة .

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة فى سورة البقرة :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتى إلى أمر الصلاة :

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سور البقرة)

وضع الله ـ إذن ـ الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وزحام أمور الزواج والوصية والطلاق ؛ هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . فقد كان إذا حَزَبَه أمرٌ واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتي بأمور الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في عجينة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التقتيل والتصليب والتقطيع والنفي . كان ذلك لتربية مهابة الرعب في النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد أخرجنا من جوٍّ صارمٍ وحديث في عقوباتٍ إلى تقوى الله . والتقوى - كما نعرف - أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذي يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذي يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً في معيّته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله » أي أن نتقي صفات الجلال ،

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أي نبحث عن الوُصْلة التي تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرّعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرّب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يُحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يُحب ربطات العُنق ؛ فيُهديه عدداً من ربطات العُنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجيدة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرّب إلى أى كائن بما يُحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟ . وما يُحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلّى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ صلاة

---

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى العين .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له الشّفاعة)[1] .

ولا نريد أن ندخل هنا فى مجال التوسل بالنبى أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى : هذّبوا هذا القول قليلاً ؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذى يتوسل إلى الله بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولىّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله ؟. طبعا لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء مُمكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً مُتسعاً ؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلّ الله عليه وسلم إلى الله ، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبك له هو الذى يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق .

والجماعة التى تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبى ؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عُمر ـ رضوان الله عليه ـ ؛ قال : كنا فى عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن التوسل بالنبى بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبى . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسّل بنبيك والآن نتوسّل إليك بالعباس؟أم قال:والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟.

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسُّل لا يكون بالنبى فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبى صلّ الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شىء ، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى . إذن فلنبعد

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسَّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسَّل سيدنا عمر بالعباس عَمّ النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت وكأنه قال : « يا ربُّ عمُّ نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسُّل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل فى متاهات .

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » ولنر الإيثار الإيمانى الذى يريد الحق أن يُربّيه فى النفس المؤمنة بتقوى الله التى تتمثل فى الابتعاد عن محارِمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله فى اتباع أوامرِه .

إن الدِّين لم يأتِكَ من أجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تُحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتّسع الهِمَّةُ الإيمانية ، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن لله نعيماً وجزاءً فى الآخرة هو خير مما يعيشه قدَّم دمه واستشهد ؛ لذلك قال صحابى جليل : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابي تمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التي تنتظره خير من الحياة التي يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة في أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرَبِّيَ من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه في أثناء القتال قد أفلت منه عَمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وتثبت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد ادّخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابي من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عَمرو بن العاص قد ادُّخره الله إلى نصرٍ آخر للإسلام .

إذن فالجهاد في سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذي آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتَّى إلا بإشاعة المنهج في العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد في سبيل الله كان عندها شيء من الإيثار الإيماني . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها في غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شيء .

إذن فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره في الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ؛ لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يجب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقي الناس على شرِّهم وبقي الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبذولاً لهم ويظل شرُّهم مبذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدّى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء في

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لا بد من حُسْنِ الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سُلوكاً طيباً ، والسُلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تُسَهِّل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً ، ونحوّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيىء للمقاتل فُرصة النصر . وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعدّ نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيّداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون لهدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » نأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقوله الحق : « وجاهدوا فى سبيله » يصنع أمة إيمانية مُتحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله فى الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التى تنتج ، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله فى الحرب سيعود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فهاذا عن موقفهم يوم القيامة ؟ . لقد أقمتم الجبروت بقوّتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضِنّ عليكم سُنَنُ الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُّنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحيّ ، فلو أن ما فى الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما فى الدنيا وتريدون أن تقدّموه فِدْيةً لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قِمّة الخِزْى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى جِدّ فى منتهى الجِدّ . وعلى الإنسان أن يقدِّر العقوبة قبل أن يستلذّ بالجريمة . والذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واسْتَدَلّ على التفاح بأن رأى تُفاحة عَطِبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدِّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلُّم صار سهلاً عليه ، ولو أهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدِّر للنتيجة التى تقوده إليها الصَّعْلَكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إننا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد في طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين في الدنيا وهم في نار الآخرة ، هم بطشوا في الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما في الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما في الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هي قمة الخزي التي يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وكلما مَسّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتي لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يُوحي اولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئس .

مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطْمع والانتهاء المُوئس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع ان يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)



كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيوّم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرِّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاّ منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزَهِّدُ الغير فى العمل .

إن فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفّروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تحثّنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب فى التوظّف فى وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

فى العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أى مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا فى رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ فى الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما فى بيتك شىء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ - أى قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتنى بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أى أَلْقِهِ - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتنى به)[1] .

إذن أشار النبى صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذى ينام عليه والقدح الذى يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تاجر فى شىء يملكه ، لا فى عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبى قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبِعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)[2] .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبى صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبى صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة)[3] .

---

(١) رواه أبو داود فى الزكاة ، وابن ماجه فى التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود فى الزكاة وابن ماجه فى التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدًا ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السَدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرَدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرَدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟ .

أولاً ما هى السَرِقة ؟ إنها أخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأَخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشىء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصِّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكَّل . وسبحانه هو المُشرِّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟. إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفد كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم ـ كما قلنا ـ يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السَّرقة فى عام الرَّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها بوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد .
وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟
قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا
عمر الحدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ،
لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردَّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد
السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذُل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ،
لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقَنّن
للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى
الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل
لم يُهيج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البادية . وينص
سبحانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى
فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ۱۷۸ سورة البقرة)

ولنر الحنانَ الموجود فى كلمة « أخيه » . ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره ، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به .

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . هذا ما انتهى إليه حَد السَّرقة فى تشريعات السماء ، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السَّارق يُستَرَق بسرقته ؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته . ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ۷۰ سورة يوسف)

و« السقاية » هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك ، وكان اسمها « صواع الملك » ، وأخذوها ليكيلوا بها . وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه ، ماذا حدث ؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض ، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء ، ولم يحاكمهم بشرع الملك :

﴿ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون ، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ .

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشىء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونُسِخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نُسخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى ؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيمُّن يجب أن يكون فى كل شىء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يُمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤَثّم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفى للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يطنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يجين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقّع العقاب ساعة الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطعت يساره ، فإن عاد قُطعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت. فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحرم من حَقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فأنت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنَّة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغريهم ويَغرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير ان يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ،ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معي مصروف الأمس » .

---

(١) رواه القضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعا ، وعزاه الديلمي ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من أصاب مالا من غير حله أذهبه الله فى مهالك وامور متبددة .

وكان الآخر يعطي ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفي شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة في مكتب يتبع وزارة الري بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتي بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسي . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التي تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفي شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معي خمسة قروش هي مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأني أحب الاعتماد على نفسي .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي ؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي ، وإن كنتم ترون أني أراكم فَلِمَ تجعلونني أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذي يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشيء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم في تقديره .

وكلمة « حكيم » لها في حياتنا قصة ، كنا ونحن في مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعري وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله في قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

(١) أورده ابن رجب في شرحه في كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تاريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَتْ فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمى عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا سأعدلها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمة ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فلكل شىء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شىء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشىء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

والسارق ظالم ، لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تُقبل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشىء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأتى لصاحب الشىء ويستحله ويقول له : كنت فى غفلة نفسى وفى زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشىء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشىء المسروق . كلص « الأتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشىء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به فى سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يخجل من رد الشىء المسروق فليقل : فُضُوح الدنيا أهون من فُضُوح الآخرة . وفى القرآن تأتى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كأن توبة الله مكتوبة أولا ، ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة ـ كما نعلم ـ ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » .

وَصِفَةُ المغفرة وصِفَةُ الرحمة كل فى مطلقها تَكُون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ؛ وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ؛ ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل : « الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبراً من المتكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المُخاطَب إقراراً من العبد . ولا يخرج الخَبَر مَخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثقٌ من أن جواب الاستفهام فى صالحه ؛ والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملنى » . فتقول : أنا أحسنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخَبَر منه فأنت تقول : ألم أُحسِن إليك ؟ وبذلك تستفهم منه ، والاستفهام يريد جوابا . فكأن المسئول حين يجيب عليه أن يدير ذهنه فى كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلىّ . ولو جاء ذلك من المتكلم لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المُخاطَب فهى إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الشرح)

إنه خَبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق : « أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون فى السؤال إيحاء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفى .

وفى وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطوق الآية ليس دعوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه مِلْك ـ بكسر الميم ـ لمالك . وهناك « مُلْك » ـ بضم الميم ـ لِمَلِكٍ هو الله . وفى الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المَلِك فى الأرض يملك القرار فى أملاك شعبه ، وهذا فى دنيا الأسباب ، أما فى الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فلا أحد له مُلكٌ يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلك السموات والأرض يُعذِّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد فى القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مقدّماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى :

(إن رَحمتى سبقت غَضبى)[1] .

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مقدماً على الغُفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو التفنّن فى الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السّياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمّن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقى .

---

(١) رواه البخارى فى التوحيد وبدء الخلق ، ورواه مسلم فى التوبة ورواه الترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى المقدمة .

ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْك السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب - بفتح الذال - : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على ردّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟.

نعرف أن التعذيب للسّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتسق .

إننى أقول دائماً : إياكم أن تُخدعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوّد أن يتأبى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرّد على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرّنت نفسك على التمردّ على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرُّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شىء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتى فى النِّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أى أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشىء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النِّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بِمُشخصاتِهم العَلَمِيَّة . (يا آدم) ، والمُشخِّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُسُل ناداهم الحق بالمُشَخِّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخصات الذات فيقول : (يا أيها الرسول) ، ويقول : (يا أيها النبى) .

حقًا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخصات الذات : « يا أيّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيُّها الرّسُول » أو : « يا أيُّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأخذُلك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليلِ أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبّى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أحَب أن يأتى عبده ـ وهو السيد ـ للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولتوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مختارا لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؛

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشىء ، لا فى الشىء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىّ والقيّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السَّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السُّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب ويَنْفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسِّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ« إلى » وإما أن تكون بـ« فى » . فإن كانت بـ« إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدء السرعة ، وإن كانت بـ« فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول في الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم في كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخلهم في الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون في مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان في الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعني أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجد من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى في الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتي بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل : « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدي المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدي المعنى ، أي أن صناعته هي التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أي ألِفوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟ . لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السمّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذي سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سمّاعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس - كما نعلم - يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحرِّفون الكَلم من بعد مواضعه » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزَّانى ـ أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم ـ ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدَّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزِّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء رسولُ الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نُسود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزِّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزِّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسي فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحَكِّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بيهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوّدُ وجوههما ونحمّمهما ونحملها ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »[1] .

إنهم يريدون الحكُم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النضير بنى قُريظة ، فكانت النضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذّليلة لم يُقيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الديَّة . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النَّضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلىٰ الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتَّسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكدة للمعنى .

---

(١) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ؛ أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ؛ لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . اينجح أم يرسُب ، أيكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسخّر ، وجانب آخر مُخيَّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أَغَيَّر الله سُنّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنّة الله أن تُنَفَّذ .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حقداً ومَرضا لأنّ قلبه ممتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنِيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفِّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا .
وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شيء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنهما فتنتان : المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئاً ينفضح . وعندما يبيّتون أى شىء فإن الله يخبر رسوله بما يبيّتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علماً لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئاً. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيداً لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ؛ وعندما تبحث فى القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفى ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لايشرح هل الجو مُكفهر أو صافٍ أو باردٌ .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا ننتقل من فهم معنى كلمة « جَوّ » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتى فى النِسب . ولا تأتى النِسب إلا بعد معرفة معانى الألفاظ . والنِسب تعنى أن ننسب شيئا إلى شىء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنّا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى فى النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ؛ هذا القول أفاد ؛ لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندى » .

إذن هناك نسب ، والنسب هى أن تنسب حكماً إلى شىء إما إيجابا وإما نفياً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلا ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذى يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل فى هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أعلى مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذى يعرف الشىء على غير وجهه الصحيح . أما الأمى فهو الذى لا يعرف شيئا ونجد صعوبة فى الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذى يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجهل - إذن - أن تعرف نسبة تعتقدها وهى غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمى ؛ لأن الأمى له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أفكاره الفكر الخاطىء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هى الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتنص الملبِّسون بعض النسب التى تأتى فى بعض من أسلوب القرآن ويقولون : فى القرآن كلام لو مَحَّصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ .

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أى أن الله يُكذِّب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هى ما يوافق اللسان ما فى القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكالون للسُّحت » أى أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السُّحت وكأنهم يرهقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّال صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما في الحدث ، وإما في تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكال » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذي يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة ـ إذن ـ إما أن تكون في الحدث وإما في تكرير الحدث .

« أكّالون للسُّحت » ومادة « سَحت » تعني « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استئصالاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع المبالغة في استئصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسُّحت استئصال مبالغ فيه لدرجة الجوْر على الأصل قليلاً . أي يستأصل الذي جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى في شرح الرِّبا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا في مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخل ويستأصل ويأكل ويكحت أصل المال . وظاهر الرِّبا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها نماء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألفٍ من الجنيهات ، والذي يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل ويتبقى له عشرة جنيهات .

هناك ـ إذن ـ رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف في المصائب والمهالك ويبارك لك فيما أعطاك .

والسُّحت هو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أُذنَهم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلما يأكل ليَنمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنمّو ـ إذن ـ معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكّالين للسُّحت ، فهم فى بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحْت حيثية من حيثيات الاستماع المصدِّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض آذانهم الكذب ؟ بل آذانهم تستدعى الكذب ، وألسنتهم تحترفه . وعيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاض التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُعد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن ينقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ؛ وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من حِل ، اعتدلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكوينى هو الذى جعل آكل الحرام سماعا للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكوينى الذى صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل السُّحت صار سماعا للكذب . أو سمع كذبا فصار أكّالاً للسُّحت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « آكل للسُّحت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحت ، فالواحد منهم أخذ حراما من أول الأمر ، وعندما صار أكالا وسمَّاعًا للكذب فى آن واحد ، اختلت ذرّات تكوينه ، ولم يعد فى أعماقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هى قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كونى أو لواقع منهجى تكليفى فهذا يصنع خللاً فى الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل فى ذلك جاء بالمثل فى أمرٍ حسى حتى نراه جميعا :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمَّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التى تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادى ، وتلك هى الأشياء التى تصنع الزَّبد ونقول عنه فى لغتنا العامية : « الرَّغاوى » .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

و« رابياً » أى عائماً وعاليا وطافيا فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين فى الماء والمضاد له وهو النار ، فالماء يأتى بزبد وغثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ فى كيره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتى تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد فى الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخَبَث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيظل الباطل كذلك ؟ يُطمئننا الحق أنه يحمى الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح تفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد ينتهى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليبقى صافياً . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العُلو ؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

ولماذا لا يُعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يَعَض الباطل الناس ويُتعبهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتعبهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندى من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكأن الألم يلفته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلاوة العافية .



إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكُفر ونشهد آثار الكفر فساداً فى المجتمع ، نتساءل : ما الذى يخلصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذى يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرر دائماً : كلمة الكُفر بذاتها هى الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكُفر هو السَّتْر ، ومادام الكفر هو السَّتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان فى الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم فى القضية التى جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة فى معرفة الحق ولا هم يلتمسون العدل . بل جاءوك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل السُّحت لنفوسهم . وقد طلبوا الحكم فى قضية الزِّنا وعندهم فى التوراة كان الرَّجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزِّنا فى التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزانى وركوبه حماراً فى الوضع العكسى بحيث يكون وجهه فى اتجاه الذيل وقفاه فى اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزانى وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكّالين للسُّحت . ولأن الذى سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق :

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

لا تعارض . والبعض يقول : إن فى قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضى بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآنى لأن المتكلم إله وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذى ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا » وإياك أن تجعل الضرر منهم مُرجِّحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذى أرسلك يحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم فى هذه الآية يأتى كالقوس فى البداية وفى النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أى بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أى أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جورٌ مُقنن ؛ إذن فـ « أقسط » أى أزال جورًا مقننًا وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعدلوا - إذن - فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا فى الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ، لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية ، والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذى وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولاً من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حَكَماً ؟ لا بد أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا فى أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا ـ والعياذ بالله ـ أنك قد توفر لهم أكل السُّحت وسماع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهى مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك فى أمر ليس فى التوراة لكان الأمر مقبولاً ، لكن أن يحكموك فى أمر له حكم فى التوراة ، ويعد ذلك يطلعك الله عليه

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن صوريا ليأتى بحكم التوراة . ويعترف ابن صوريا بوجود حكم الرَّجم فى التوراة . إذن هم رغبوا فى الاحتيال ، وأراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوناً فى الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسول أمّى ، لم يقرأ ولم يكتب ، فمن الذى أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من أرسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم مُخفّف فالحق أراد ذلك ليكون سَبباً من أسباب الخزى لهم .

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تيسيرهم . أعرضوا عن الحكم . ولو كانوا طالبين للحكم بادىء ذى بدء لقبلوا الحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

الهدى هو الطريق أو الدرب المُوَصِّل للغاية . وتأتى على الطريق أحقاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر فى سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع فى حفرة أو يصطدم بحجر .

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرته لكم حتى لا تصطدموا بشيء أو تأتى لكم عقبات ، وتمثّل ذلك فى المنهج الذى جاء به موكب الرُسل كلهم . وقديما كان العالم مفككا ، متناثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما تظل محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول ليعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية عند اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبصر الناس بأسرار كونه ليستنبطوا منها ما يقرب المسافات ويمنع المشقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق لينتقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد فى العالم أيضاً .

إذن لا بد أن يجيء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فيأتى صلّى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فإذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للداءات الموجودة فى البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزمن نفسه سيدنا لوط . وها هوذا سيدنا موسى كان موجودا . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرُسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معينا . وهكذا كانت الرسالات تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساعة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطقى أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتى

الحق بإسلام الأنبياء هنا ؟ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر منهج كل نبى .

إننا نجد الشعراء يتفننون فى هذا المعنى :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمدِ

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

فالقبيلة بالنسبة لأبى الصقر هى التى تنتسب إليه وليس هو الذى ينتسب إليها .

ويردف قائلا :

وكم أبٍ قد علا بابن ذُرَا شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف الإسلام بأن النبيين أسلموا قيادهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أى هو الانصياع لأوامر الله ، فكلما فكر نبى منهم فى أن هناك شراً سيأتى له بسبب دعوته ، أو أن يضطهده أحد ، أو يحلو لأحدٍ أن يسىء إليه فهو يسلم أمره لله ؛ لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما يحدث بعدها .

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وهم يحكمون بالتوراة بين الذين هادوا ، أى من يهود ، وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والربانى منسوب للرب ، أى أن كل تصرفاته منسوبة إلى الله . والأحبار هم العلماء حملة أوعية العلم ، لكن هل ينفذونه أو لا ينفذونه فهذا شىء آخر . صحيح أن كل عالم وعاة

علم ، لكن قد ينتفع هو بعلمه ، وقد لا ينتفع ، لكنه ينقل علمه إلى من ينتفع به . ولذلك يقول أحد العلماء :

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي
واجْنِ الثمار وخلِّ العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه فى تصرفاته عكس ما يقول ، لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول من يمتثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

« والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » وعرفنا أن التوراة فيها نور وهدى ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التى طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة . وقال الحق : « استحفظوا » ولم يقل : « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين القرآن ، لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة منفصلة عن المنهج ، مثال ذلك سيدنا موسى فمعجزته العصا وفلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذى جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول الله فمعجزته هى عين منهجه ، وهى القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل رسول مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن الرسول الذى أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تظل معجزته عين منهجه بحيث يستطيع أى مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه معجزته وهى عين منهجه .

وسيظل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله أرادها مختلفة عن بقية المناهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذى يشتعل مرة

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتعال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يخبره من يصدقه . وقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله التوراة والإنجيل :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج منسياً . وليس على بالهم كثيراً ؛ لأن الأمر إذا توارد على البال واستقر دائماً فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ماعدا النبيين ـ لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كتموه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى : ما لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم . ويا ليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ؛ لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ؛ لذلك لم يكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل ـ سبحانه ـ بأمر حفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ومصداق هذا النص ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحافظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة .

إذن فالله يُسخر لحفظ القرآن حتى من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يبتعدون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع فى سيارته مصحفاً ، وفى حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة سافرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً . وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفياً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفياً لكان نسيان القرآن وارداً ؛ لأن المسلمين ابتعدوا فى بعض أمورهم عنه كمنهج ، ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعلى الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المسرفين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً يمس المصحف ، يقيم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألته ، ولكنها مسألة الحافظ جل شانه . وإن حدث أى تحريف يسير فى القرآن من أعداء الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية فى سورة الفتح وهى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكأنهم يرغبون فى زيادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت ضجة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف مهما كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشون » والخشية : خوف متوَهَّم ممن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان من سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، وليخشَ كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غيَّر أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشرور تأتى من ذلك . بل قد لا يدرى السلطان شيئاً عن ذلك، وقد يتدخل قريب للسلطان ـ دون علم السلطان ـ ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضى الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتى من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشية هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والملتفين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصدر كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالاً للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ونرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » وثمن آيات الله مهما بولغ فى تقييمها فلن يتجاوز نفعه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا ـ كما قلنا سابقا ـ لا تقاس بعمرها الحقيقى أى إلى أن يُفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حىّ تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما نفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هى مقدار عمره فى الحياة . وعمر الفرد فى الدنيا له حد محدود غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك تجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ، وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت فى الأربعين ورابع يموت فى المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهى ـ إذن ـ بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت فى الوجود جعلها الله شائعة فى كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد ـ بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنين فى بطن أمه ؛ فهذا حمل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حمل يسقط من بعد شهر أو شهور ، وجعل الحق لنا ذلك لنأخذ من الأمر الغيبى وهو الجنين فى البطن مراحلَ تكوينه . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأزمنة فى الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحا جليا حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً فى هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذى يأخذه المرتشون ليغيّروا آيات الله وأحكامه سينفعهم فى هذه الدنيا ، وأعمارهم فى هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنياً قليلة بالنسبة لعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرّف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له فى هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة فى العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوى منهى ، فإن قايضه بعمر غير منهى هو عمره فى الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان فى الدنيا مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد فى الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو فى السلب . ونعيم الإنسان فى الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأى صفقة تكون هى الرابحة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفقة هى الرابحة ؟ إذن فصفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟.

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة فى الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم فى أمرٍ فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قمة كل الأمور هى العقيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التى أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إننى أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على نفسى فهل هذا كفر ؟ أم هذا ظلم ؟ . إنه ليس كفراً ، ويكون ظلماً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما تفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من التكليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التى خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهى عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما تسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

فتذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإنجيل .

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال : أمن الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق ، فهي آيات نزلت في مناط الحكم عامة . فإن حكم إنسان في قضية القمة وهي العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن ردّ الإنسان الحكم على منشئه ـ وهو الحق الأعلى ـ فهذا لون من الكفر . وإن آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن فـ « كافرون » و« ظالمون » و« فاسقون » تقول لنا : إن الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقولن أحد : إن تلك آية نزلت لتلك الفئة ، وتلك الآية نزلت لفئة أخرى ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال في بداية كل حكم « ومَن » ومَن كما نعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق في الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه .

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلفين بتدبير أمور الخلق في الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا في خدمة آدم ؛ لأن كل مظهر من مظاهر القوة في الكون لا نرى الملك الذي يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من الغيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدبرات أمر . وحين يبلغهم الحق أن الطارىء على الكون وهو آدم ، وأنهم في خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك نجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدبرات أمرا لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس عندما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن « العالين » هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس : أأنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه بنص القرآن :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون « إبليس » محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفي القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصي . لأن الجن داخلون في قانون الاختيار . فإن ألزم الجنيّ نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . ومادام الحق هو الذي أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم ، فرئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره ؛ ذلك أنهم يدخلون في الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصي ويتأبى ، أما وإنه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى ـ أن ينصاع لأمر الله . لكن إبليس علل أمر عدم السجود ، فقال :

﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفي آية أخرى قال سبحانه :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأبّى كائن على الحكم ، أيتأبّى على الحكم الأصم ، أي على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على مَن حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأبى إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً . لكن آدم عصى ربه وقرب من الشجرة التي نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل فى التكليفات مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة بثمارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة . وسبحانه يريد أن يحمى الإنسان ؛ لأن التكليفات التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يعفى المكلف من القيام بها إلا فى الأمر الذى ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن يحمى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر فى الخمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

لأن الإنسان لو جلس فى مجلس خمر ورأى السُّكارى قد سعدوا وضحكوا فقد تراوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » . ونجد أن تكليفات الحق إنما تأتى للعمل النزوعى ، ومعنى العمل النزوعى أن يتحرك الإنسان للعمل . أما بالنسبة للإدراكات فمن الجائز أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر عنه عمل نزوعى فنجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ، ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فالمنهىّ عنه هو الظلم ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾

(من الآية ٨ سورة المائدة)

أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يجرم البغض لأنه مسألة عاطفية . ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من تكره . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله . وآدم أكل من الشجرة ، فهو ـ إذن ـ قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فما بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوغل آدم فى المعصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنى لم أقدر على نفسى يا ربى . إذن فهو لم يَرُدَّ الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحانه هو الذى علم آدم كيف تكون التوبة . فآدم - إذن - ليس كإبليس الذى رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نفسى .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله راداً للحكم على الله ومخطئاً لله - سبحانه - فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعى - إذن - للجدل ولا للخلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد فى النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الباطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله فى الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود فى التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعلينا أن نأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث .
أى أن النفس تُقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل يعنى ذلك أن تقتل العين؟ لا . ولكن العين تقلع مقابل عين . وكذلك « والأنف بالأنف » . أى الأنف المجدوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق : « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تفقأ بالعين ، وكذلك الأمر فى جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد خصوصية أكل ويشتهيه كاللحم فلا يقال له:جوعان ، ولكن يقال « قَرِم » . وإن كان يشتهى اللبن يقال له : « عَيْمان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان جائعاً للجنس فهو « شَبِق » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل شىء له تعبير . ومثال آخر : يقال:فلان جلس ، أى قعد . وهذا فى المعنى العام . ولكن الجلوس يكون عن اضطْجاع . أما قعد ، فهى عن قيام ، أى كان قائماً وقعد . ولذلك قال الحق : « قياماً وقعوداً » .

ومثال آخر : يقال : « نظر » و« رمق » و« لمح » ؛ وكل كلمة لها موقفها ؛ فالنظر يكون بجميع عينيه . و« رَمق » أى لحظ لحظا خفيفاً . و« لَمح » أى اختلس النظر إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ، والعين مفقوءة بالعين ، والأنف مجدوعة بالأنف ، والأذن مصلومة بالأذن ، والسن مخلوعة بالسن . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح : « والجروح قصاص » لأن الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون بمثله ومساوياً للشىء ، وهو مأخوذ من قص الأثر ؛ أى السير تبعاً لما سارت عليه القدم السابقة دون انحراف . ولما كان القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفعة من يد جائع متهافتة بعكس الصفعة التى تأتى من يدِ صاحبها فى منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذى فعل الفعل ؟

إذن لا يصح أن يدخل الإنسان فى متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعلم حكاية « تاجر البندقية » ذلك المرابى اليهودى الذى أقرض نقوداً مقابل رطل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يُسدِّد المال فى الميعاد ولكن القاضى أنار الله بصيرته . فقال : خذ الرطل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسنأخذها منك أو إن زدت أوقية فسنأخذها منك . فقال المرابى : لا أريد .

وقد قنن الحق للجريمة ، ولم يغلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئا غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن الذى يتعب البشر فى تقنيناتهم أنهم يطيلون إجراءات التقاضى ، فساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتنبهت بشاعة الجريمة فى النفس البشرية. ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ؛ لأنك إن مكنته أرضيت نفسه بأول شفاء . وساعة يُعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يزهد فيه ؛ لأن الأمر حين يكون فى يده ويقدر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو .

وسيظل المتصدَّق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجارحة من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إيعازات الثأرات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب فى مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب القصاص ؟ فإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثأرات فلهم فى التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفى صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان نجد الذى عليه الثأر يأخذ كفنه ويذهب إلى العائلة الطالبة للثأر ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفنه بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . ويحيا ، وصاحب الثأر متفضل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كفارة

له » تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما : « متصدِّق » و« متصدَّق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحنن الله الخلق بعضهم على بعض ؛ لذلك تأتى المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه فى التصدق .

وينهى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقفينا أى أتبعنا ، فعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل نجد أن قفا الأول يكون فى وجه الثانى . وعندما يقول الحق : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى الذى جاء بالتوراة . « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والنور » يناسبان البيئة التى نزلت إليها تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات اسمها « المقولات الإضافية » ، كأن يقول إنسان فى قرية لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكيروسينى ؛ أما إذا قال إنسان فى مدينة لابنه : أضىء النور ، فالابن يضغط على الزر ليضىء المصباح الكهربائى . وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن الإنسان فى منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة لأصحاب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضافى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يمنع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هى معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التى نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت فى حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية فى حاجة إلى طاقة روحية ؛ لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام فى قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورّثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومواعظ .

ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والحق أنزل فى الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أى أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة فى التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج على الطاعة . فإن خرج أحد على الطاعة فى أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج على الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالمسألة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبى الخاتم :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك تشريعاً جاء من أعلى . وهناك من يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمى ، أو يقول : الإسلام دين رجعى ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ونقول : لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام فوقى ؛ لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزايا فهو تقدمى ، وإن كان للرجعية مزايا فهو رجعى ، وإن كان لليمين مزايا فهو يمينى وإن كان لليسار مزايا فالإسلام يسارى ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعى والتقدم العلمى الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاء متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدمياً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى خالدة فوق هذه الحياة . إن الذين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التى تسبب كل هذا الصراع فى الدنيا من شرق وغرب هى : الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر ـ على سبيل المثال ـ إلى القائمين على أمر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا فى بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار الطريق الاشتراكى .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا في الزمن تراجعوا عن أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالى أظل كما هو ؟ لا ؛ لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تعطى العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما ـ إذن ـ يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام أوجد هذا اللقاء من البداية ، فاحترم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم تصل الشيوعية أيضا إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية ـ قبل أن توجد ـ وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التى لا تعترف إلا بالربح المادى ، امتلأت مجتمعاتها بالضحايا الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أنزلنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى . وحين نأخذ معطيات البيان القرآنى ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أى ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيض الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتآزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقا ، وأن تأتى كل قوانين الحق فى حركة الحياة بالانسجام لا بالتنافر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أى نزل بالمنهج من عند الله الذى يقيم منطق الحق فى كل نفس وكل مكان ، ويَضمن كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا أجملت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » أي أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التي جاءت في صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجنس ، و« ال » للعهد ، فيقال « لقيت رجلا فأكرمت الرجل » ، أي الرجل المعهود الذي قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للعهد أي الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس أي الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمنٌ رقيبٌ عليها ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » ـ إذن ـ تعني أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بالحق الثابت في كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بالحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو في مضمونه وفي ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التي نزلت فيها ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمروا هذا الكون بما أمدّهم به من عقل يفكر ، وطاقات تنفّذ ، ومادة في الكون تنفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أي ترقٍ أو إسعاد فلهم في مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يُعملوا العقل الذي وهبه الله ليخدم الطاقات التي خلقها الله في المادة التي خلقها الله ، وحينئذ يأخذون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله في الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر . فنجد الجاذبية التي تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية في الكون سلباً وإيجاباً تعمل لنا وإن لم نعرف ما تنطوي عليه من سرّ .

إن الحق سبحانه حين يريد ميلاد سر في الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المسخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف ـ هذا الميلاد ـ عمل العقل فى مقدمات تنتهى إليه ، وحينئذ يأتى الميلاد مع مقدمات استعملها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل التمرين الهندسى الذى يقوم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنبط ما يريد المدرس أن يستنبطه من مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث فى الشىء معملياً وتجريبياً وصل ميلاد السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر فى الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أيمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟ . لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شىء على يد باحث كان يبحث فى شىء آخر، فنقول: إن هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة .

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التى اكتشفت لوجدتها من الصنف الثانى ، ونجد المفكر أو العالم وقد غرق فى بحث ما ، ثم يعطيه الله سراً من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة، وحينما جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ، وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاه علماً من عنده ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ ، ووهبه حكمة يُؤتى بها خيرا ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ . وهو سبحانه وتعالى يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرزوا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد منا أن نتفعل هذا الانفعال فلا بد أن يضع المنهج الذى يصون طاقاتنا وفكرنا مما يبددهما .

والذى يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ، والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى نصدر فى كل حركاتنا عن هوى واحد ؛ وهو ما أنزله الخالق الأعلى الذى لا تغيره تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكى نبحث فيه ؛ لأننا سنتفق فيه قهراً عنا . ولذلك نقول دائما : لا توجد اختلافات فى الأفكار المعملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحابى . والنتيجة المعملية تخرج بوضوحها واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً فى معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخلها على حضارتها ، بينما يختلف الأمر فى الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ؛ لأن الأهواء لا تلتقى أبداً ، والحق قد وضع حركة الحياة لتنفعل بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن اتحادنا وعدم تعاند الطاقات فينا . بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فمنهج الله فى كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيما لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة : لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن المادة لا تجامل والمعمل لا يحابى .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً خاتماً أعطى بـ « افعل ولا تفعل » . أما بالنسبة للأمر المادى المعمل فقد جعل أمره فى ذات النبى صلى الله عليه وسلم . فعندما قَدِمَ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ؛ أى يلقّحونه ليثمر . فمر النبى صلى الله عليه وسلم بقومٍ يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأْبُروا النخل ، فخرج شيصا ؛ أى بُسْراً رديئاً ، وخاب النخل . ومرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىءٍ من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمنا قضية كونية مادية تجريبية معملية :
(أنتم أعلم بأمر دنياكم)(١) .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركا للحبل على الغارب فى شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس ـ كما نعلم ـ تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع ؛ يعطى أولاً الاحتياج المادى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة فى الكون على ضوء المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأمن الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يقفوا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب . ولكن عندما اكتمل رشد الإنسانية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويوكله الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع للبشر جميعاً . فقد علم الله أزلاً أن الإسلام سيجىء على ميعاد مع إلغاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد اتحدت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان ومانعا أن يجىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بالمنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و« لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و« لاتفعل » لكن المنهج

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة .

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحافظوا عليه ، ومادام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمتثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتى سبق أن ذكرناها وهى النسيان وهو متمثل فى قوله الحق :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشياء وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أى أن الحق طلب منهم أن يحافظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطيعوه ولكن أغلبهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جُرِّبتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتى له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(٩ سورة الحجر)

ومادام الحق هو الذى يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه . إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقا لما بين يديه من الكتاب » فالمقصود به الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة نجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه فما الموقف ؟ نعرف أن لله صفات بلغت فى تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان يسمع ، و« الله غنى » ويقال : « فلان غنى » ؛ فإذا سمى الحق باسم وجد فى الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذا صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك فى ضوء : « ليس كمثله شيء » .

إن أى اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغنى » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على اطلاقه فهو لله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر .

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير فى شئون العمل ، وهذا يعنى أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن متنبه ، أى رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤتمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر قول صحيح . وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يصدق عليه كل ذلك ، وباللازم لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون شهيداً إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤتمنا .

إذن فـ « مهيمن » هو قيم وشاهد ورقيب . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فعلى أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نزل من عند الله ، فإن بقى الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به ، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقيه من أهواء البشر .
« فاحكم بينهم بما أنزل الله » . و« احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، و« الحَكَمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ونربطها باللجام ؛ حتى نتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضا مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله بشهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، ومادامو قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا ـ على سبيل المثال ـ أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبى ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا الحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك عندما تحكم لنا سنؤمن بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصوناً من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أعلم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يضع يده على

السطور التي بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن ييسروا على أنفسهم ليستبقوا لأنفسهم السلطة الزمنية ، ووصفهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم في الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فأى أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ، فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان في العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التي تحكم أفعال الإنسان فالله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكما آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة آل عمران)

أي أن هناك أشياء كانت محرمة في دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسباً بنى إسرائيل في بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور لبنى إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن فقد يكون تحريم الشيء بسبب الضرر الناشيء منه ، أو بهدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هى الطريق فى الماء . والمنهج هو الطريق فى اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هى من الماء ومن الغذاء الذى يخرج من الأرض ، فكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى فى القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهاج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجاً ، فلماذا قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق فى أصول العقائد التى لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل العقيدة أولاً بلا هوادة ، فنادى بوحدانية الله ، وعدم الشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الآلهة . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يخفف قليلاً فقليلاً . إذن فالمراحل إنما جاءت فى الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هى وبحسم لا هوادة فيه .

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » . هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا فى الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأفعال تتعلق أيضا بزمن نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه فى زماننا . إذن فالأمران متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرِّع .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فلو شاء لجعل « افعل » ولا « تفعل » واحدة فى كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ؛ لذلك كان من المنطقى أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمة واحدة فى « افعل » و« لاتفعل » ولكنه

ـ سبحانه ـ لم يرد ذلك حتى لا يألف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحينما يألف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرمون لذة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتى التشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليفرق بين قوم وقوم ، ففى الصوم ـ على سبيل المثال ـ نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس فى الفترة ما بين الإفطار والسحور ؛ فالحق يأتى إلى الشىء الرتيب ويأتى فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات فى زمان معين ، ولا يقرب غيرها فى أى زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . والمؤمن لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتيه الصوم ليعلمه ويدربه على الانصياع للتكليف فيحرمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة ـ إذن ـ ليست رتابة أبداً . بل هي ابتلاء واختبار البشر « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » والابتلاء ـ كما نعلم ـ ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أن نكون حكماء وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء فى مصلحتنا ؛ لأنه يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد ، وقصارى ما يزينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنقضى فى الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا فى ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

أى تسابقوا فى الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إنما يقاس بعائده ، فإياكم أن تفهموا أن الله حَرَمَكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرمكم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعيم ومتع الآخرة المُصلحة فى زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير» وسكت عن الشر لكان ذلك كافياً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . ويتبع ذلك قول الحق :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بيّن إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنفيذ ، لذلك يأتي هنا قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » بلاغاً للرسول وإيضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشيء مخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذي زاد في هذه الآية هو قوله الحق : « واحذرهم أن يفتنوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أن يوقع به ضرراً في أمر ذي نفع ، والذي يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما في باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضُراً في صورة نفع ، كأن يأتي خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وافعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والحذر - إذن - يقتضى عقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الحذر من الغراب . فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه :

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحنى ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان هذا الإنسان يخبىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر بفطرته .

ونرى مثل ذلك فى مظاهر الأشياء كالمرابى الذى يزين للناس أن يضعوا أموالهم عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شىء ينفع ولكنها ضارة بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله : (يمحق الله الربا) .

وهذا أمر ضار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . والحق يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حذراً ، فماذا يكون المطلوب من الأتباع ؟. إنه الحذر نفسه ؛ لأن أفضل البشر وَجَّهَهُ الله إلى الحذر : « واحذرهم أن يفتنوك » لأن الصورة التى دخلوا بها هى صورة تزين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإن حكمت لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع . وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحميك أن تنزلق إلى شبهة باطل. فهم قد اختاروا أن يوغلوا فى الكفر ، وفى الابتعاد عن منهج الله ، وسيصيبهم ببعض عذابه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلماً ، بل يصيبهم ببعض الذنوب التى ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن طاعة كتبهم ورسلهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى موجوداً فى الكتب السابقة على القرآن ، وكانت البشارة بمحمد رسولا من عند الله يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس كافة الأشياء التى تُحسِين الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويحرم عليهم أن يزيفوا ويغيروا المنهج الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعناد ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج . فمن اتبع نور رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالنجاة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها بالفشل ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الكتب .

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

ـ لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منى بابنى .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : وكيف ذلك يا بن سلام ؟ .

قال عبدالله بن سلام : لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً ويقيناً وأنا لا أشهد

بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمر بن الخطاب :

ـ وفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بنى إسرائيل وأحبارهم كتموا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع فى الهدايا التى كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها . وماداموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم .

ونلحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطاباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال ؛ لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك . فها هوذا أبو هريرة رضى الله عنه ينقل لنا ما حدث :

ـ زنى رجل من اليهود بامرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقلنا فتيا نبى من أنبيائك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى امرأة ورجل زنيا ؟ . فلم يكلمهم حتى ذهب إلى مِدْراسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذى يتكلمه قومه . وقال الشاب : إنا نجد فى التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى مُحَمَّماً مجلودًا ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، فقلنا : تعالَوْا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) ، فأمر به فرُجم فأنزل الله : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتم هذا فخذوه) يقُولون ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[1] .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو أن الاتهام كان شاملاً للكل بأنهم فاسقون ؛ لما أحس الذين يفكرون فى أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذى جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الذين يديرون فى رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سيجدون النور واضحاً فى كلماته .

ونتساءل : لماذا أرادوا أن يلووا أحكام الله ليحققوا لأنفسهم سلطة زمنية وثمناً تافهاً من تلك الأشياء التى يتقاضونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟

ها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

والجاهلية هى نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا : « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذى قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ تتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتى إلى الذهن

(١) رواه مسلم .

إفرادياً . مثلما نسمع كلمة « جبل » فيقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجبل ؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقا بين اللفظ حين يؤدى إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربي القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وها هوذا رجل عربي قال : أشهد أن محمداً رسولَ الله ـ بفتح اللام فى كلمة « رسول » ـ وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربي آخر : وماذا يصنع محمدا ؟ ليلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر . إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلما نقول لصديق : « محمد » ، ويعرف هذا الصديق محمدا ، فيسألك : « وما لمحمد » ؟ وبقوله هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زارني أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ؛ ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ؛ لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة ونستطيع إقامة الدليل عليها تماما مثلما نقول : « الأرض كروية » ، حيث توحى الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضفنا إليها نسبة هى « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم . إذن فالعلم نسبة مُعتقدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد مثلما يكرر الطفل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يثق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هى التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معناه أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يختلف عن الأمى ، فالأمى هو الذى لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذى يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبث بها .

« أفحكم الجاهلية يبغون » والحق هنا يتساءل : هل يرغبون فى الاستمرار بالاعتقاد الخاطىء الجاهل ؟ والأمر مع الأمى ـ كما عرفنا ـ يختلف عن الأمر مع الجاهل ؛ لأنه يكفيك أن تقول للأمى العلم الذى تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من عملين . . الأول أن تجعله يحذف ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والثانى أن تجعله يقتنع بالقضية الصحيحة . والذى يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة .

لكن ماذا إن كانت النسبة مجالاً للنفى ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفى مساوياً للاثبات فهى نسبة شك . وإن غلب الإثبات فهذا ظن . وإن كان النفى راجحاً فذلك هو الوهم . وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذى يسبب التعب فى هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون فى قضايا خاطئة . فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسفهون حكم الجاهلية .

ولنلحظ أن هذا التسفيه كان فى زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستفتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا : لقد أظلنا عهد نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا العكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ هاهوذا الحق يخبرنا بما قالوا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقال الأحبار :

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[1] ونسقى اللبن على الماء ونفك العانى[2] ونصل الأرحام ونسقى الحجيج وديننا القديم ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلا . وبذلك زوروا القول .

وينقل الرواة قصة أخرى فى هذا الموضع ، أن واحداً من أحبار اليهود قال لأبى سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأحبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التناقض والتضارب . وماداموا قد تناقضوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتناقضوا مع الكتاب الذى نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق :

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتى من بعد ذلك بالمقابل وهو قوله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وسبحانه لم يقل : إن الأحسن فى الحكم هم المسلمون لجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه ـ أزلا ـ يعلم أنه سيأتى قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ونحن نرى فى بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلصق هذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله فى كتابه . وعندما نرى أن حكم الله يجرم فعلا وله عقوبة ، فالعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على المسلم وغير المسلم ، إذن فلا نقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية . ولكننا نقول : إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلحظ أن هناك استفهاماً فى قوله الحق : « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستفهام هو نقل صورة الشىء فى الذهن ، لا نقل حقيقة الشىء . وساعة يطلب

---

(١) الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

(٢) العانى : الأسير .

المتكلم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك فى الحياة العادية . وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذى زاره ، تلك هى حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذى يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأضرب مثالاً آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يأتيك إنسان ويدعى أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذى أخرجته من السجن . فتقول له : من الذى ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذى فعلت ولا تريد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك تريده هو أن ينطق بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذى صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح المسألة إقراراً وليس إخباراً .

« أفحكم الجاهلية يبغون » فالحق عالم أنهم حين يديرون رءوسهم فى الجواب ، لن يجدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإخبار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ؛ لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فالذى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق فى قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على عدد من الجزر وبها عمارات شاهقة والعنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها ممسوسة من فرط الهوس على الثروة . وحين تسمع هذا الصادق فأنت تأخذه على محمل الجد وتعتبر كلامه يقيناً وهذا هو علم اليقين ، أى أنه إخبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتى هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة على ارتفاع يساوى أربعين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهبط الطائرة قليلاً ؛ لترى أضواء مدينة صاخبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هى نيويورك ، وتلك هى ناطحات السحاب . هكذا صار علم اليقين عين يقين .

وعندما تنزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما تسيران إلى جزيرة مانهاتن . وتصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب فى نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست فى مضمون وتفاصيل هذا الخبر . وقديماً قلت لتلاميذى مثالاً محدداً لأوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت فى أندونيسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ؛ لأنهم يصدقون قولى . وقد نقلت لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى غرفة وأفتح حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين وقمت بتقشير ثمرة الموز ووزعت على كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل الذى علم والذى تحقق .

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المرائى والمشاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجرد علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرؤ على التكذيب ، لذلك نجد أن سيدنا الإمام علياً ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

والبداية تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحن نسير على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا ـ نحن المسلمين ـ لا نراها حق اليقين . وهو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم . لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها فى قوله الحق :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا عن منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هى الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه فى النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين . أما من يدخله الحق النار ـ والعياذ بالله ـ فسيعانى منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بالجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

نلحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا . والمنهى عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولىّ ؟. الولىّ هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولى يلى ؛ أى يقف فى جانبه . ونسمى الذى ينوب عن المرأة فى عقد النكاح « الولىّ » . وكذلك « ولىّ المقتول » . والمراد هو : يا من آمنتم لاحظوا تماماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الضلالات من البشر ، هذه الضلالات تمثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة .

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحيثية الإيمان بالله . فما دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت فى إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤتمناً على نصرتك ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيفعلون ما قاله الحق :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون ، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم ؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم . وسبحانه يقول : « بعضهم أولياء بعض » .

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن ـ إذن ـ أمام ثلاثة أقسام ؛ يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب بشقيهم برغم أنهم فى خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون عملاقاً قادرا على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه فى الواقع الحياتى : معسكر الشرق ـ الذى كان ـ يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجىء شىء يتصل بالإسلام حتى يتفقوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقى ؛ لأن الإسلام بمنهجه خطر على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكنه فى الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون فى ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما ينفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام .

ويقول الحق : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أى أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنه يقع فى شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع المسلمين بلسانه ومع أعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ؛ فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئا ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأبى على منهج الله فى الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأبى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلا ؟ .

والحق يأمر الإنسان بالإيمان . ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . والمشرك يتأبى على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأبى على المرض أو الموت ؟. لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان من يدله على الطريق الموصل للغاية . فهداه أى دلّه على الطريق الموصل للغاية . ولا يتجنى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المجال هنا كان عن النهي عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع هذا النهى وفى قلبه الإيمان نفذ النصيحة . ولكن الذى طمس المرض ـ وهو النفاق ـ قلبه فهو الذى يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ونعرف أن المسارعة هى تقليل الزمن فى قطع المسافة الموصلة للغاية فإذا كانت هناك مسافة تقتضى السير لمدة خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرض على الإنسان أن يقطعها فى وقت أقل من ذلك . وهناك « يسارع إلى » و« يسارع فى » ، مثل قول الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هى المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال : « يسارع فى كذا » ، أى أنه كان فى الأصل منغمساً فى هذا الموضوع . وعندما يقول الحق : « يسارعون فيهم » أى كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك فالمسارعة فى ظرفيتهم . وبذلك يتهافتون عليهم . والعلّة العامة أن فى قلوبهم مرضاً جعلهم يبتكرون ويلفقون أسباباً ، هذه الأسباب هى « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والموالاة هنا من الخوف أن تدور الدوائر ، ونحتاج إليهم لأن عندهم الأموال والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبىّ ؛ فقد قال : أنا رجل أخشى الدوائر . أى أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلما نقول : « الأيام دول » . ولكن كلمة « دول » هى انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهى انتقالية فيها ضرر . وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضى الله عنه :

ـ أنا سآخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأنفض عنى ولاية اليهود والنصارى .

وأورد الحق قول المنافق : « نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح » وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فلنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يا رب بيننا وبينهم .

إذن فقوله الحق : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » أى الحكم الذى يضع حدًّا لمسألة موالاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون .

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً . يخاطب المؤمنين به . والمؤمن بالله له أعمال تؤدى كأسباب إلى مسببات ، وقد يأتى للمؤمنين أشياء بدون مقدمات منهم ، وهى الفضل من الله . إذن فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها وتعدّون ما استطعتم من عِدَّة وعُدَّة وتؤذونهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لبنى النضير ، فكان الإجلاء ، واستولى المسلمون على أرض بنى قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه ـ إذن ـ يعامل المؤمنين معاملتين : الأولى أن يصنع المؤمنون مقدمات تؤدى إلى نتائج :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وهنا جعل الحق قتال المؤمنين سبباً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالنصرة بالربوبية .

وساعة تسمع « عسى » و« لعل » فهذا معناه الرجاء . والرجاء أن المتكلم يرجو أن يقع ما دخلت عليه « عسى » . مثال ذلك قولنا : (عسى أن تكرم زيداً) . ومن يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعني أن القائل ليس فى يده إكرام زيد . أما إذا قال القائل : (عسى الله أن يكرم زيداً) ، فهذا نقل للرجاء من البشر

إلى الله . والقائل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، والمرجو هو الله ، وقدرة الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل فى اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان المتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

وتتعرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذى يعطى « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وقد تحقق ذلك فى واقع الأمر ، وساعة قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ونحن نحتفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وبأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » أى أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » هو كشف لما فى قلوبهم من مرض النفاق ، وقد خلعوا على المرض وعبروا عنه بهذا الكلام سترا لما فى قلوبهم ، فكأن الذى أسروه فى نفوسهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعلى هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدلنا على أن القول الذى نشأ منهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض فى قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن ينتصر منهج الإسلام ؛ لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، وساعة تكون السيطرة للإسلام ينتهى ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب فى المدينة قبل أن يأتى الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ؛ لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التى جعلتهم يحرفون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله فى تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - فى عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يُخَذِّلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » وساعة يسمعون هذا القول الربانى

وهو قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته ويُقرأ في المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم : « فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذى فى نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون فى أنفسهم » . أى أنهم قالوا فى أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا فى أنفسهم لأعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما فى أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التى نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب فى الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق . وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كبتاً قسرياً وهو الكبت الذى لا يجرؤ صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بإلحاح بِنْيَة ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفطن المؤمنون إلى ذلك فيقولون : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولظهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا نادمين مكبوتين .

« ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت » أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو ـ كما قلنا ـ الانتفاخ الذى يصيب البهيمة التى تأكل طعاماً غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمنت ولكنهم يلتفتون فيجدون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يقل رأس المال . لقد فعل المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يسلم لهم هذا الأمر وانكشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل نداء مثل هذا قد يجىء بعده حكم من الأحكام أو بشارة من البشارات أو وعيد للمخالف . والذى يأتى فيه شبه إشكال وليس بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » فسبحانه يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون القول : « يا قائم اجلس » أو « يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا نقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، اى أمراً معقوداً فى القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب مؤمناً ويطالبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق يقول : أنت آمنت قبل أن أناديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائماً . وجدد دائماً إيمانك لأننى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المقبلة فى إيمان عالٍ مرتقٍ قبل أن أتكلم معكم بوصف الإيمان أنتم آمنتم أولاً فناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم .

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحداً ؛ لأن الذى أذن لشرعه أن ينزل على رسول ونبى خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة فى الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول فى آية البقرة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق يقول : « ومن يرتدد منكم عن دينه » أما فى الآية التى نحن بصددها فى سورة المائدة فهو سبحانه يقول : « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . والحكمة العليا فى أن الحق سبحانه وتعالى يأتى فى كتابه بآيات متحدة فى المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف ليدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن ينزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز .

وكان الخلاف بين اللغتين محصوراً فى الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها « يرتدد » . و« يرتد » بها مِثْلان والنطق بهما صعب . ولذلك حاول الناس فى مثل هذه الحالة أن يدغموا مِثْلاً فى مثل . ولذلك كان من اللازم أن نُسكن الحرف الأول من المثلين. والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَن » شرطية جازمة . والدال الأولى أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن فمن أجل الإدغام نفعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتقيان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى للإدغام ، أما الحرف الساكن الأخر فهو الطارىء . فنتصرف فيه ، ولذلك نحركه بالفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالفتح .

وجاء لى ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ« يرتد » بالنصب أى بالفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » والسائل يفهم أن « مَن » إما اسم موصول ، وإمّا هى « مَن » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من يرتدُّ » ـ بالضم ـ وإن كانت « مَن » الشرطية لجاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء ساكناً للإدغام تخلصنا من السكون بالفتحة وهى « فتحة » التخلص من ساكنين ، لأنه ـ كما قلنا ـ لا يلتقى ساكنان .

والذى يُظهر لنا ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه عندما عطف قال : « فيمت » بالجزم عطفا على يرتدد . أما السبب فى أن جواب الشرط واضحٌ فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جوابى أو عطف ، وجواب الشرط هو قول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَن » شرطية ، لأن كلمة « يأت » جاءت مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذاك النسق ؟ نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش . وكانت قريش تمتلك السيادة . ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك في رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذي يحج إليه كل عربي . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته ، إذن فالبيت الحرام هو الذي أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينبههم الحق إلى ذلك عندما قال في سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام . ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله في سورة قريش :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان في رحلة الشتاء والصيف ، ولو انهدم البيت الذي يحقق لقريش السيادة لهجم الناس على القرشيين من كل جانب ؛ لأنه القائل في شأن من قصدهم لهدم بيت الله الحرام .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صنعها الله لقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً في اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان ينصب في قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة

المصفّاة المنتقاة ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأتى بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التى عندهم هى اللغة العالية . ولذلك عندما جىء لزمن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شىء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وبنو تميم والحجاز كانوا مختلفين فى بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع ـ عندما نتعلم الإعراب ـ قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق فى القبيلتين .

وفى الآية التى نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفى آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكأن الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليتضح أن القرآن لعموم الناس جميعهم .

وعندما نقرأ قول الحق :

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتى بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » يدل على أن إجراءً سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتصور أن إلهاً ينزل قرآناً يتحدى به ثم يأتى فى القرآن بقضية مازالت فى الغيب ويجازف بها ، إن لم تكن ستقع ؟ . والحق يقول : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » و« سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتى من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذى يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان ؟ . لا أحد يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يتحكم ويحكم ويخبرنا بأنه سوف يأتى أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فماذا يكون الأمر ؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجازف ويجرى على لسان محمد بأن قوماً سيرتدون وهو لا يعلم أيأتى قوم مرتدون ؟ والعلم جاء فى هذه الآية كما جاء فى كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قالها الحق قضية كونية : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث فى الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربى :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون محباً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتى من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادله الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلحظ أن حب الله هو السابق فى هذا القول الكريم : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم ، لقد علم الحق أنهم سيتجهون إليه فأحبهم ، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟ . إنه ودادة القلب . وقلنا الكثير من قبل فى أمر ودادة القلب . ونعرف أن هناك لوناً من الحب يتحكم فيه العقل . ولوناً آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مراً غير مستساغ الطعم ، ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يجده فهو يلف ويدور ويسأل فى كل صيدليات البلد فإن لم يجده فهو يوصى المسافر إلى الخارج لعله يأتى له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يمتلىء بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بعاطفته أم بعقله ؟ إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله . والحب العقلى ـ إذن ـ هو إيثار النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لابن غبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد ـ هنا ـ يحب ابنه الغبى بعاطفته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك رصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقلى وحب عاطفى . وهذا ما يحدث فى المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يجرب ذلك حين يجرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشقٍ لله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[1] .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : أنت أحب إلىّ من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[2] .

وهنا علم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلى ؛ لأن عمر رضى الله عنه علم أيضا أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن

(١ ، ٢) رواه أحمد ٣٣٦/٤ والسيوطى فى الدر المنثور ٢٢٣/٣ .

يا عمر . أي كأنه في هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحب الله لا تقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقل أو حب عاطفي ؟ ؛ لأن المراد بحب الإله هو دوام فيوضاته على من يحب ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فالحق يلقاه في أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هي الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها رؤية المحسن .

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » وعندما يقول الحق : « فسوف » فلنعلم أن ما يأتي بعدها هو من إعلامات النبوة التي جاءت على لسان محمد في قرآن الله ؛ لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء في قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا في الردة إلى قسمين ؛ قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبي بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . وحين تنظر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً .

وأول الارتداد كان في اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان في اليمن كاهن مشعوذ اسمه عَبْهَلة بن كعب ، ويقال له : ذو الخمار ، أو ذو الحمار في رواية أخرى ، وهو الذي يعرف في كتب التاريخ الإسلامي باسم الأسود العنسي . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « بيْنا أنا نائم إذ أوتيتُ خزائن الأرض ، فوُضع في يديّ سواران من ذهب فكبر عليّ وأهمّني ، فأوحي إليّ أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابيْن اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة »[1] .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ روّضه صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

(١) رواه البخاري في التعبير والمناقب والمغازي ، ورواه مسلم في الرؤيا ، والترمذي في الرؤيا ، وابن ماجه في الرؤيا ، وأحمد ١/٢٦٣ .

القرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للحمار هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « ذو الخمار » أى أنه كان يرتدى خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أى مرتد لم يطالبه من يتبعه بعلامة صدقه فى النبوة .

إن أول شىء فى التأكد من صحة قول أى إنسان : « أنا نبى » أن يسأله الناس عن علامة الصدق فى النبوة وأن يتعرفوا على معجزته ، لكننا لا نجد ذلك فى مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناسُ الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبى وعن معجزته التى تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أى رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟.

هنا نذهب إلى الجانب النفسى من الأمر ونقول : إن التدين أمر فطرى والإنسان الذى ليس له دين يغضب ويحزن عندما نقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق :

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

(سورة الكافرون)

فكأن الأصل فى الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذى يجعل الناس فى خشية من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتى إنسان ويقول : أنا نبى ومعجزتى أننى خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الهوى الذين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك لدين جميل ، ويستسلمون ويخدعون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحللهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعى النبوة فى الزمن القديم وحتى عصرنا هذا لأننا لم نجد أحداً من المثقفين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجزتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكليفات بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء غيرهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وغفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادعوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أحداً منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . ومدعى النبوة إنما يرضى النفوس التى لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون متدينة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكراً مثيراً ، وتبعه بعض من المتعلمين الذين أرادوا ديناً على هواهم ، وكذلك كان الأمر فى البداية . وعندما جاء ذو الخمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسبى قلوب من يسمع منطقه وكان يريهم الأعاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولى على مُلْك اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استطارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الوالى على اليمن من قِبَل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الخمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاولة ذى الخمار . ويحتال المسلمون للنهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذى الخمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ليلتها : « قتل الليلة الأسود العنسى »[1] .

وبعد ذلك يأتى الخبر فى آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إعجازات

---

(١) كنز العمال .



النبوة . إذن فقد تعرض المؤمنون على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة فى العقيدة بحكاية ذى الخمار أو ذى الحمار . وكانت قصة ذى الخمار كالمصل الواقى الذى يربى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقدية دينية بل ستتعرضون . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يبلغ ذلك للمؤمنين عن الله ـ سبحانه ـ إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجىء المسلمون بالردة ولم يكن الله قد خبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى . والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم يوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمتلك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرةَ على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن فحين يوجد الارتداد ، لا يفاجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد مجىء الارتداد فإن وعد الله الآخر يجىء : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا فزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأتى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

أما عندما تقرأ « سوف » فأعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد . ولذلك نحن نرى أن الردة قد امتدت فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وفى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ .

وما هى ذى مواصفات القوم الذين يأتى بهم الله فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ؟ إنها مواصفات ست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيزاً فى آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن ننفعل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم ـ إذن ـ ينفعل انفعالاً مناسباً لكل موقف ، وليس مطبوعا على انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قادراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عزيز أمام عدوه لا يُغلب ، ويجابهه بقوة . والمؤمن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خفض المؤمن جناح الذل لوالديه . أيخدش ذلك عزته ؟ لا . بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . والحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . وحين ينفعل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ويقال فى اللغة : « ذليل لفلان » فلماذا ـ إذاً ـ يقول الحق هنا : « أذلة على المؤمنين » ،

و« على » تفيد العلو . والذلة تفيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتى هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هى : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون فى ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره . وهى ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه لين جانب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أذلة على المؤمنين » يعنى أن المؤمنين يعطفون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن المادة « ذال » و« لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أى جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل ليس بقهرٍ من الإنسان للأنعام ولكنه بتسخير من الله . وهى ميسرة لخدمة الإنسان . ومثال آخر . قوله الحق :

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

أى متطامنة مهيأة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » ـ بضم الذال ـ وهو ضد العز . وهناك « ذِل » ـ بكسر الذال ـ وهو اللين . إذن فالذل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أى اللين . والذُّل ـ بضم الذال ـ هو ضد العز ، فإذا أردنا ذِلّة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذِّل، وإن أردنا الذلة التى هى ضد العز، فهى من الذُّل . وعندما يكون المؤمن على ذِلة للمؤمن . فهى ذِلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشىء ليتدانى للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول :

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أى ذُلِّلت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن . وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتدانى له . وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

وهنا يأتى الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أى أن ذلة المؤمن لأخيه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ، لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول المأثور : (من تواضع لله رفعه) .

أى من تواضع وفى باله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين فى تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يُغلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو ينضم إلى الجهاد في سبيل الله . « يجاهدون فى سبيل الله » وكلمة « الجهاد فى سبيل الله » تخصص لوناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أبى موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرَى مكانه ، فَمَنْ فى سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »(١)

وما دام المؤمن محبوباً من الله ويحب الله وذليلاً على المؤمنين وعزيزا على الكافرين ،

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد ، ومسلم فى الإمارة ورواه أحمد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار ؛ لأنه يجاهد فى سبيل الله . ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمح له ، وكأنه سبحانه يوضح : تنبهوا جيداً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ويجاهدون فى سبيل الله فلا نظن أنهم بمنأى عن سخرية الساخرين ، وهزؤ المستهزئين ، ولوم اللائمين ليردوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق : « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضح ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق بقوم يحبهم ويحبونه وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين وجاهدوا فى سبيل الله وما خافوا لومة لائم .

وساعة نستقرىء هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ؛ أشار بيده مرة إلى أبى موسى الأشعرى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هذا »[1] .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء »[2] .

وقد حدثت الردة الأولى فى اليمن ، وكانت فى قوم أبى موسى الأشعرى ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل ـ كما أوضحنا ـ وبعد ذلك تطوع فيروز الديلمى ودخل على من كان يدّعى النبوة ذى الخمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

---

(١) حديث شريف صححه الحاكم ورواه الطبرى فى التفسير .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى فضائل الصحابة وأحمد ٢/٤١٧ .

عليه وسلم ليلتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث ـ أيضاً ـ فى زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادّعى مسيلمة الكذاب أنه نبى . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى قسمة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هبات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[1] .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشى » الذى قتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ فى موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : أنا قتلت فى الجاهلية خير الناس ـ يقصد حمزة ـ وقتلت فى الإسلام شر الناس ـ يقصد مسيلمة ـ وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « طليحة بن خويلد » من بنى أسد وادّعى النبوة ، وكلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذى جاء لقتاله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا ننطق « الردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التى حدثت وقوبلت

---

(١) رواه أبو حنيفة فى مسنده ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ص ١٨٠ برواية الإمام الحصكفى .

هذه المقابلة . ولا نسميها « رد » فتح الراء ، لأن الرد ـ بفتح الراء ـ يكون عودة إلى حق ، أما الردة ـ بكسرة الراء ـ فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

أما الذى يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التى جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعندما يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون : لقد حدثت رِدة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادىء أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد فى اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد ـ أيضاً ـ إلا فى الإسلام ، وهو موقف الواعظ من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصنيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ونقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراقصة تتعبد فى محراب الفن . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ . عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هى الكلمات المعبرة ولذلك يذهبون إليها .

ويؤخذ فى ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهدر دمه ويقتل . وعلى من يفكر فى الدخول إلى الإسلام أن يحتاط لحياته . إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول ، وينبه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول فى الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامل وليس لهواً أو لعباً .

إن على من يرغب فى الدخول فى الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهى إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث فى عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن يعى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنها النصيحة وهى عملية لصالح الإسلام ، وهى أمر علنى ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط .

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام واخرج متى تريد . لكن الدين الحق لا يخدع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وتكلمنا من قبل عن الردات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة « سوف » التى جاءت فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » تدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وظهر سبعة ادّعوا النبوة ، مثال ذلك : « بنو فزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ من حاربهم . وكذلك قوم غطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيهة بن سلمة ، وكذلك بنو سُلَيْم . قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبو بكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعت فيهم النبوّة سجاح بنت المنذر والتى تزوجت مسيلمة . وكذلك « كِندة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحُطَم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبو بكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبو بكر ومن معه . ولكن أيمنع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه تخلف عن النبى

صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التى فتحها فى صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية - أو ليأخذن - غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فإذا نحن بعلىٍّ وما نرجوه ، فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »[1] .

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الغساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا موالين للروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام بهيلمان كزعيم للغساسنة . وكان لهم العظمة فى الجياد والملابس . وكان يرتدى رداءً طويلاً فوطىء أحد الناس رداءه ؛ فسقط ، فلطمه جبلة ، وأبلغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه القصاص . وقال سيد الغساسنة : إنى أشترى هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل فعرض سيد الغساسنة ألفين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر فى المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتنصر . هكذا يتضح لنا آفاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة فى زماننا جاءت من فارس ممثلة فى البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاه الدنيا ، إن كان يريد الحكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه فى الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا ، والذى يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ ؛ لأن الإنسان مؤمن بفطرته ودليل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يغضب ويثور ؛ لأنه لا يتصور أن ينزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

---

(١) رواه البخارى - واللفظ له - فى الجهاد وفى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة ، والترمذى فى المناقب ، وابن ماجه فى المقدمة ، وأحمد ٩٩/١ ، ٨٥ .

ساعة يسمع إنساناً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ، وتلك هى الفطرة الإيمانية التى فطر الله كل الناس عليها . والذى يجعل الدين أمراً شاقاً على النفس البشرية ليس فطرة الدين ، ولكنه تكليف التدين ؛ لأنه أمر يدخل فى الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها فى مناط الاختيار البشرى ، ولم يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد على الكفر :

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

(سورة الشعراء)

فليس فى قدرة أحد أن يتأبى على الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكاليف الإيمان مسألة اختيارية . والإنسان حر فى أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفى كلتا الحالتين سيلقى الجزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : ـ والعياذ بالله ـ « أنا لا أؤمن بالله » .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجهزاً للتعبير عن مكنونات قلب الإنسان وخاضعا لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصنوعاتنا نحن : جهاز التليفزيون الذى صممه البشر ليكون آلة منقادة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من برامج ، فإن أرسل الإنسان فى جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية تستكشف آيات الله فى الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمانى . وإن أرسل الإنسان أفلاماً خليعة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق الإنسان بدائرة المفسدين فى الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو ينفذوا التكليف الإيمانى فهو يعلم أن قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و« العبيد » ؛ فكل الكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير فى أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو - كما نعلم - أحد العمليات التى تجرى على الرغم من الإنسان .

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهى أجله . كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكِبْر الإنسان وخروجه عن طاعة الله فى أشياء لا تعنى أنه خارج فى مطلق أموره عن الله ؛ لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم فى بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم فى نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسىّ الميلاد والموت ما من أحد بقادر على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد فى بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهرى ، وكلنا عبيد لله فى ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار فى بقية أمور الحياة .

والذكى حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتنى يارب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونواهيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذى يوضح للمؤمن ما الذى يمكن أن يفعله وما الذى يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إننى أخرج من اختيارى إلى مرادك يارب . والعبد الذى يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن .

ونرى فى حياتنا العادية نموذجا لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أنتم تريدون التنزه ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة : لنذهب إلى المكان الفلانى . ويجيب آخر : أنت حر فى أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة فى قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذى يتمرد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وتتجلى تلك المناعة فى أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والواحد منهم يعلن : أنا نبى مرسل . ويَجِدُ هذا النبى المزيف من يستمع له ويصدقه ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنتَ نبياً فما معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف لهوى فى نفوسهم .

هذا الهوى يتلخص فى أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنّه يتبع منهاجاً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنّه هو المهدى المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم فى كل شىء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجاب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبى المزيف لتقبله ويقبلها من شفتيها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل ـ إذن ـ فى مثل هذا الموقف ؟ إنه التدليس الضال الذى يدعى لنفسه الهداية ، إنها هداية إلى الجحيم .

وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تأتى من قوم يبغضون الإسلام ،

ويصطادون الرجل الذى تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبى المزيف .

مثال ذلك الهندى ميزرا غلام أحمد الذى جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطانى . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن ينالوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الأمبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت فى الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التتار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية فى حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذى أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال فى سبيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغى الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول فى كتابه الكريم :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته يمهل ولا يهمل . وجاء وباء الكوليرا فى الهند سنة ١٩٠٨ ليقضى على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وظهر أيضاً فى فارس وهى موطن سلمان الفارسى مَن ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ؛ لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتى المهدى .

وعندما سأله الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ؛ لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه مخطىء وأعلن التوبة فى المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه قنصل روسيا فى فارس ، وهيأ له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازى أن ينال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لتخطب خطبة فى الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أى انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ، لأنه فى انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إنّ التشريع المختص بالمرأة ، والذى جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خُلِقَت لتُشَمّ ولتُضَمّ »
« فلا يمنع ولا يُحَدّ شامّها ولا ضامّها »

وما دامت المرأة زهرة إذن فهى تجنَى وتقطف « وإلى الأحباب تُهدى وتتحف . . إلى أن تقول فى نهاية خطابها : لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم (!!)

ومن يرغب فى أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التى جاءت فى خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشانى طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خذوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الممات شىء . وهذه خلاصة الانحلال الذى جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذى جاء به هذا الباب وأسموه دينا بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكاليف ، وادعو أن ذلك دين (!!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وقنصل روسيا القيصرية هو الذى شجع هذا الرجل وحماه فى عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العارم ، ولم يستطع أن ينقذه أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولامتلأ بالسرور والحبور ؛ لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أى عقاب سيذهب ؛ لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذى جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » لمؤلفه حيدر بن على البهائى لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك) أى لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أى مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائى حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . ومما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم فى بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار .
